روزا ياسين حسن

حرّاس الهواء

رواية

الكوكب
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

إلى آرام..

انتعل قلبي، وامضِ أنّى شئت!

في ممرّ السفارة الطويل كانت تهرول!

حذاؤها الشرقي من جلد البقر، الذي لا تنتعل إلاه، لا يكاد يطأ الأرض الصقيلة، وذيل الفرس يتطوّح مناوشاً ظهرها.

بدت أشبه بجارية من عصر الرشيد، تخبّ في ممرات قصر الخلافة رافلة في سروال رهيف فضفاض أرجواني اللون مزموم عند كاحليها. لا أعرف حقيقة من أين استطاعت الحصول عليه في مدينة كدمشق وفي أوائل الألفية الثالثة!!

لم أتمكن من اللحاق بها آخر الممر حتى كادت أنفاسي تتقطع:

ـ مدام.. مدام صوفي!!

استدارت دهِشة كأن شيئاً لم يكن، وابتسمت تحيّيني.

من يرى وجه مدام صوفي، مديرة العلاقات العامة في السفارة، لن يقتنع أنه لظهر المرأة نفسها! من الخلف لن أصدق أنها تجاوزت الخامسة عشرة أو السادسة عشرة على أبعد تقدير، أما وجهها فيغصّ بتجاعيد دقيقة تحوّل صفحته الناصعة إلى ما يشبه ساحة حرب.

ـ بليز مدام صوفي كنت أريد أن أقول لك شيئاً.

ـ Yes؟!!

لم تطلب مني الدخول إلى مكتبها! مستعجلة كالعادة إذاً. وقفت منتظرة كلامي، تصالب ساعديها على صدرها. وأنا قررت أن أقنص الفرصة من فوري، وأبدأ بطلبي.

بادرتها بعربية فصحى:

ـ بليز مدام صوفي، علينا أن نغير ترجمة كلمة officer. لفظة ضابط وحدها تجعل أولئك المساكين يرتجفون والدماء تصعد إلى وجوههم.. لا يمكن أيّ عربي أن يتخيّل ضابطاً مدنياً!

ـ ...!!

ـ إنه تاريخ طويل عشّش في خلايا المخ، وليس من السهل تغييره!!.. Well, I know that[1] الدقة في الترجمة هي المطلب الأول، لكن طرقات قلوبهم تصلني من بعيد كعصفور في قبضة صياد.. هل تفهمين عليّ مدام؟

---

(١) أعلم ذلك جيداً.

الاستغراب، كل ما كان ينضح به وجه صوفي. مصغية كانت دون أي تعبير آخر على ملامحها. ربما كان شرحي غير وافٍ! خاصة أن تغيير أية كلمة في الترجمة سيتطلب إقناعاً أكبر بالتأكيد، هذا إذا لم أطالب برفع كتاب خطّي إلى مكتب السفير.

سهمت مدام صوفي برهة في قبضتي المتشنجة أمام وجهها والقابضة على عصفوري الأثيري. كان وجهها قد انبسط، لكنها متجهمة وجديّة على غير عادتها! اعتقدت للحظات أنها ستستدير من فورها لتعود إلى الهرولة بعيداً عنيّ.

لكن قبضتي لم تكد تسترخي، لتهوي إلى جنبي، حتى ابتسمت صوفي ببطء، ثم مدّت يدها لتربّت على كتفي.

ـ برافو أناتْ.. برافو.. أنت رائعة.

قالتها بعربية مجعلكة، وأردفت:

ـ بالنسبة لي هذه المحبة في قلبك أهم من الدقة الحرفية للترجمة.. قلبك عطوف بين أضلاعك الصغيرة.

قصدت أضلاعي الضئيلة ربما!

أنهت جملتها، وبشّرتني بابتسامتها العريضة التي تظهر كامل اصطفاف أسنانها اللامعة. ابتسامة بيضاء كوجهها الذي لا يحمل أية قسمات عربية.

[٢]Do what ever you think is the best.

---

(٢) افعلي ما ترينه الأفضل.

شدّت قبضتها على كتفي قبل أن تتركني وتبتعد في الممر الطويل مؤرجحة شعرها.

صحت في أثرها:

ـ مدام.. ما رأيك بكلمة Boss، أليست أفضل؟

رفعت إبهامها عالياً علامة الأوكي دون أن تلتفت إليّ، واستمرت في خطواتها العجلى التي يُسمع حفيفها فحسب بين الجدران الباردة.

لوهلة بُعثت داخلي روحٌ طازجةٌ حيّة. سعادة خيالية راحت فجأة تطوّحني بين الغرف الكثيرة المتماثلة على جانبي الممر الطويل.

وافقت مدام صوفي على اقتراحي.. هكذا بمنتهى البساطة!

لا أدري كيف تحمل تلك الكندية الباردة، البيضاء كالجبنة، هذه الروح! لديها قلب نقيّ خالص، ربما كان الشيء الوحيد الذي ورثته عن أبيها اللبناني الأصل. قالت لي يوماً إنه قضى حياته يتنقل بين بلدان العالم في سيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر. لم يشتعل نزاع في أي من مناطق العالم إلا حضره، لم تنشب حرب إلا كان في الكاست الطبي فيها!

ربما كان في الأمر مبالغة ما! لكنه، كما قالت لي صوفي، كان شاهداً في حرب دارفور، في البوسنة والهرسك، وحتى في أفغانستان!

ـ ثم مات، ويا لسخرية الأمر، في إحدى جائحات الملاريا في أفريقيا.

ـ ...!!

لم أعرف وقتئذ ما السخرية في الموضوع! هل كان ينبغي أن يموت عجوز مثله بقنبلة أو صاروخ كي يغدو الأمر تراجيدياً وليس ساخراً؟! لكن مدام صوفي تعتقد أن أباها دفن في أفريقيا في إحدى المقابر الجماعية الكثيرة المنتشرة هناك.

المهم، إنجازي سيبدل يومي السيئ، سيجعل الأفكار السوداء، التي رافقتني منذ الصباح، تتبدد، تتلاشى كغيمة زائفة. باستخدام كلمة Boss لن أجبر يوماً بعد يوم على مراقبة عيونهم الفزعة وهم يؤدون التحية العسكرية أمام (الضابط)! ضاربين الأرض بأقدامهم بكل ما أوتوا من قوة، كأنهم عساكر في مشهد كوميدي أشبه بالتهريج.

تأخرت عن موعد المقابلات.

لا بد أن الضابط الكندي، أو عفواً المدير الكندي، قد استاء من طول انتظاري، والذين ستتم مقابلتهم اليوم راحوا يذرعون الممرات جيئة وذهاباً خارج غرفته وقد أخذ القلق ينهشهم أعمق فأعمق.

فتحت الباب، الفستقي اللون، ودخلت غرفة المقابلات.

انتابتها رغبة بالتقيؤ، أنستها فرحها الطارئ بالنصر على اللغة. إنه شعور الغثيان الذي راح يجتاحها حالما تطأ هذه العتبة. ربما عمل الدفء اللزج على تصعيب الأمر أكثر. كان المكيّف يضخّ الحرارة في الغرفة، كذلك السخّانة الكهربائية الصغيرة المدورة، التي يضعها المدير قرب قدميه، وتتصاعد منها هبلة القهوة في الركوة النحاسية.

المدير من دائرة الهجرة والتجنيس الكندية تفرزه المفوضية العليا

للاجئين كي يقوم بدراسة حالات اللجوء بكل أشكاله إلى كندا. وهو الآن، ككل صباح منذ سنتين ونصف وحتى اللحظة، يتفحص الأوراق أمامه على المكتب، تلّة من المصنفات تغصّ بالأوراق الملونة والرسوم. كان يبدو متضايقاً وحزيناً على غير عادته الصباحية، يرتشف قهوته العربية من كوب خزفي بحجم القبضة.

القهوة هي الشيء الوحيد الذي أحبه جوناثان غرين هنا، إضافة إلى عيون الدمشقيات المكحّلة، حسب تعبيره.

حيّته عنات:

– Hi Joe; how are you?[٣]

– ...

لم يجب.

رفع رأسه عن الأوراق، ابتسم بأسىً مكشراً تكشيرة غزل ثم عاد ليدفن رأسه في التلّة! لا بد أنه يتفحّص التقرير الطبي لطالب اللجوء الجديد الذي سيقابله للتو والذي على عنات إسماعيل أن تترجم مقابلته.

اقتربت منه حيث كرسيها المعدني يلاصق كرسيه وراء المكتب، ولمحت من المصنف الأزرق الأنيق ورقة مليئة بالتواقيع وجانباً من صورة جسد محروق.

---

(٣) مرحبا جو؛ كيف حالك؟

- How is the baby?[٤]

صاح بلكنة ممطوطة وهو يدسّ الصورة بين الأوراق، ثم ربّت على بطنها ضاحكاً. ربما أحسّ بصدمتها حين لمحت الصورة أمامه، أو بانزعاجها الواضح على ملامح وجهها، ورائحة الغرفة تأتيها كمزيج من رائحة صديد ودم فاسد.

- Fine[٥]..

اصطنعت الابتسام، ثم تحسست بطنها الذي يكتنف طفلها في بداية شهر الحمل الثالث.

على طاولة المكتب تقرير جديد للمفوضية العليا للاجئين باللغة الإنكليزية أدرجت فيه الأعداد المقدرة للأشخاص المستحقين اهتمام المفوضية وتدخّلها. ربما رغبت عنات، عبر قراءتها له، في الخروج من حالة الغثيان، أن تنتقل من براثن عالمها الصغير، الذي يضغط على روحها وتفكيرها، إلى عالم أكبر.

العدد المقدر للاجئين في آسيا هو الأكبر بشكل لافت. أوروبا تأتي بعدها بما في ذلك البوسنة والهرسك وفلول الشيوعية وما إلى ذلك. التقرير ذاك لم يكن مذيّلاً بتاريخ! لكن من الواضح أن زمناً طويلاً لم يفت عليه. سيمر هنا على الأرجح كورقة لا نفع لها، وربما رمته العاملة بعد انتهاء الدوام في سلة المهملات! لكنه بالتأكيد لن يمرّ في أماكن أخرى من العالم بمثل هذه السلبية.

---

(٤) كيف هو الجنين؟

(٥) جيد.

بتر جو شرودها شارحاً لها بعض المعلومات عن طالب اللجوء الأول لهذا اليوم وقصته المكتوبة في التقرير.

اسمه سالفا كواجي.

شاب سوداني مسيحي من الجنوب. كان منتمياً إلى الحركة الشعبية لتحرير السودان، حركة جون قرنق، كما كانوا يطلقون عليها، ثم انخرط في الجيش الشعبي التابع لها، في القوات الراجلة حاملة الأربيجي، ليخوض الحرب الأهلية التي امتدت أكثر من عشرين عاماً بين الشمال والجنوب. إثر ذلك بقي شهوراً طويلة أسيراً في يد جنود البشير، قبل أن يتم إطلاق سراحه في تبادل الأسرى.

سالفا غير متزوج. يعيش وحيداً بعد أن قُتل معظم أهله على مدار الحروب.

كان جوناثان منهمكاً ومأخوذاً كما هي عادته دوماً في ما يخصّ القصص الجديدة، بينما أشعر في لحظة كهذه برغبة في التقيؤ، بصداع لئيم يعتصر دماغي ويجعلني أتهاوى على كرسيي الجلدي الأسود.

يبدو أن وجهي بدا شاحباً كالأموات حتى التفت إليّ قلقاً وأمسك بيدي ماطاً إنكليزيته أكثر:

– If you are tired, Annat, we can postpone today's meetings(٦)

---

(٦) إذا كنت متعبة عنات نستطيع تأجيل مقابلات اليوم.

- Don't worry, I'll be fine[٧]

جوناثان غرين، على الرغم من برودته التي تستفزني، صديقي شبه اليومي طوال السنوات الثلاث المنصرمة. سأحزن عليه حين يغادر قريباً، وقت تنتهي مدة عمله المحددة هنا في السفارة.

حين التقينا للمرة الأولى بدت قامته عملاقة بالنسبة إليّ. شعره كان فضياً مع قليل من الظلال السوداء، فيما عيناه الزرقاوان جاحظتان مع كثير من البياض، الأمر الذي يجعل نظراته أشبه بمشاريع للانقضاض على فريسة.

اليوم أضحى شعر جوناثان أبيض تماماً دون أية ظلال.

في اليوم التالي للقائنا الأول دعاني، بعد انتهاء العمل، لنتناول العشاء معاً، ومن ثم لنشرب كأساً من التيكيلا. قال، محاولاً إغرائي، إنه سيجعلني أشربها على الطريقة المكسيكية، فلأمه أصول لاتينية من بلدة صغيرة على خليج المكسيك، وهو يحمل جينات جنوبية في دمه أكثر بكثير من تلك الأميركية الشمالية.

على الرغم من عدم اقتناعي بتلك الكذبة قبلت الدعوة يومذاك.

كان خوليو يملأ المكان بأغنيته الشهيرة When I Need You، وأنا أحسّ بارتباك كبير لم أعهده قبلاً!

طلبنا طبقين من الدجاج مع شرائح البصل والفليفلة والفطر، على الطريقة المكسيكية طبعاً. وكان عليّ، نزولاً عند أمر جو، أن أفرغ

---

(٧) لا تقلق سأكون بخير.

كأس التيكيلا الصغيرة في فمي، كما فعل هو تماماً، ثم أرشف بعده مباشرة شريحة الليمون المضمّخة بالملح، والموضوعة فوق الكأس كغطاء، وأمضغ قشرتها ملتذة بمرارتها اللاذعة!

ذاك السائل الناري الذي حرق جوفي بالكامل خلال مسيرته إلى معدتي جعل جوناثان غرين، الضخم كعملاق وذا العيون الزجاجية الجاحظة، صديقي منذ تلك اللحظة وحتى اليوم.

لأريح تحديقاته الشكاكة تحاملت على نفسي مجاهدة أن أبتسم، مجاهدة أن أستقيم مسندة ساعدي إلى المكتب، استعداداً لاستقبال السوداني. لا أبتغي أن تجتاحني عقدة الذنب الآن، لا أريد أن أشعر بها تجاه كل أولئك المنتظرين خارجاً والذين هم بحاجة لي. دفعت السخانة بقدمي بعيداً عن المكتب، ورشفت قليلاً من القهوة اللزجة الباردة من فنجان جو.

بدلاً من دخول شاب جسيم بعيون جريئة، كما تخيلت سالفا كواجي، شُقّ الباب قليلاً، وامتد منه رأس صغير أسود. لم يكد يتّضح من الكتلة المستديرة القاتمة إلا بريق عينين وديعتين وآسرتين، يمور الندى داخلهما كنجوم محتشدة. كان سالفا يدور بعينيه في فضاء الغرفة، يتفحصنا والأثاث المحيط بريبة وهلع، كأنه يدخل غرفة إعدامه.

انتظرنا لحظات حتى سبر الشاب كامل التفاصيل البسيطة، ثم انسلّ بتردد وصمت إلينا، وعيناه لا تزالان تتابعان التفرس المحموم في كل ما حوله.

هنيهات..

ثم بدا أن ملامحه أخذت بالانبساط. وقف في الوسط مباعداً ساقيه، ساتراً وسطه بكفيه كلاعب كرة قدم سيصدّ للتو ضربة على مرماه.

ـ So.. Your name is Salva Quajee[٨]

ابتسم جو مشجعاً.

هزّ الشاب رأسه. كان ذا جبين فسيح أجلح، يشغل معظم مساحة وجهه.

عرّفته بعربية فصحى إلى جوناثان، المدير الكندي الذي سيكون أحد مقرري مصيره كلاجئ، ودعوته للجلوس على كرسي معدني بجلسة جلدية أرجوانية قبالة المكتب.

اطمأن سالفا. استرخت ملامحه وهمّ بالجلوس.. فجأة لمحت عيناه السخانة الكهربائية الصغيرة جانب المكتب التي سبق أن أبعدتها بقدمي. انتفض واقفاً بشكل مباغت، وهو يشير برعب إليها، ثم انطلق هارباً خارج الغرفة كالممسوس وهو يهمهم بكلمات غريبة.

الموقف كان مفاجئاً بالنسبة إليّ، بل صاعقاً. لكنه لم يبد كذلك بالنسبة إلى جو. طوّح برأسه أسيانَ، ثم طلب من الحاجبة أن تقدم لسالفا شيئاً يشربه في الخارج، لربما هدّأ ذلك من أعصابه. ثم صاح بعربية مضحكة:

ـ اللي بعدو.

---

(٨) إذاً.. اسمك سالفا كواجي.

أما أنا، فهمس مقرباً رأسه مني:

They tortured him with an electric heater, similar to – this one... Look.[٩]

وبسط أمامي صورة فوتوغرافية كبيرة لجذع سالفا الأسود اللماع وقد شعّت عليه دائرة قرمزية مائلة للبني وسمت كامل بطنه الضامر، ونفرت قليلاً منه. كانت تبدو دقيقة الخطوط كأنها رسمت بيد فنان! إذاً هو الحرق الذي لمحت طرفه حين وصلت.

اجتاحني شعور الغثيان أشدّ مما كان. غدت الغرفة أضيق من قبر يضغط على صدري. العالم تحوّل إلى غرفة للتعذيب! ليس غريباً أن أفكر بالموت منذ الصباح ووضعي هذا أسوأ منه!! والعار يجعلني أتجلل به لأني أخوض في الموت وأنا أكتنف في أحشائي كل الجمال.

على كلٍّ، التقارير الطبية تبيّن دوماً التبعات الجسدية لما تعرّض له طالب اللجوء! التبعات الجسدية فحسب، وربما التبعات النفسية الواضحة، أي التي تحوّلت إلى أمراض عصبية مشخّصة جليّة، لكن ثمة الكثير من طالبي اللجوء شُوّهوا، مُزقت دواخلهم وعطبت أرواحهم، دون أن يكون هناك علامات على أجسادهم. كم كانت فرصة أولئك أقل! ذلك أن كل ما يقولونه كان يوضع في زاوية التشكيك.

بدلاً من دخول المتقدم الثاني عاد رأس سالفا الأسود ثانية. طفق

---

(٩) عذّبوه بسخانة كهربائية مشابهة لهذه.. انظري.

يراقب الغرفة من شقّ الباب الموارب محاولاً الدخول مجدداً. كان لهفاً مصرّاً على تخطي هذه المقابلة، ربما قضى سنوات يحلم بها وبالهجرة. لكن الأمر ذاته تكرر حين لمح السخانة الكهربائية قرب قدمي. أخطأت.. كان علي أن أخفيها تلك اللعينة، لكني لم أفطن، انشغلت بصدمتي وغثياني.

ـ Hide it, please[١٠]...

صاح جو. بدا أنه فقد صوابه فيما ازداد بياض عينيه وجحوظهما.

ـ You... bring in another person[١١]

خرجت الحاجبة من فورها، فيما أغلق جو ملف سالفا مؤقتاً، وفتح الملف الثاني.

ـ Emmanuel Jemmo, chaldean from Iraq... you have also chaldeans in northern Syria Annat, right?[١٢]

هززت رأسي رداً على همس جو الذي اصطنع الهدوء.

ـ آسفة جو، أنا متعبة، يجب أن أذهب.. تستطيع طلب مترجم آخر اليوم.

---

(١٠) أخفِها أرجوك..

(١١) وأنت أدخلي شخصاً آخر.

(١٢) عمانويل جمّو، كلداني من العراق.. لديكم أيضاً كلدان في شمال سورية عنات، صحيح؟

ـ ...

كلّمته بالعربية دون أن أعي. لكنه هزّ رأسه أسيانَ كأنه فهم تماماً. دفع إليّ بمجلد ضخم ملون: التقرير السنوي للسفارة الذي يدرس الوضع السياسي الاقتصادي وحقوق الإنسان في المنطقة.

ـ This is for you.. See you tomorrow[١٣].

ـ Ok.. bye

حملت عنات إسماعيل المجلد دون أن تتفحصه. وخرجت دون أن تنظر حولها. خجلة كانت، خجلة جداً من ضعف مفاجئ احتل جوفها كله بدل قوتها السابقة، وجعلها تهرب من مكان إلى آخر.

ممر السفارة يغصّ بطالبي اللجوء.

بعضهم مع أسرهم، وبعضهم الآخر يقف وحيداً وساهماً. كرنفال من الأزياء المختلفة، ألوان البشرات المتباينة، اللهجات، اللغات، والأجساد الموسومة بماضٍ لا يرضى أن يزيح ثقله عن أرواحهم.

ـ يا منايك يا كلاب..

كان ثمة شاب ملتحٍ يصيح بأعلى صوته في وسط البهو.

ـ يا عرصات، شو مفكرين بلدكم الجنة؟

حمله ضابطان من جماعة السفارة، وجرّوه إلى الخارج. كان صوته

---

(١٣) إنها لك.. أراك في الغد.

يلعلع بين الممرات مستمراً في شتائمه.

ـ بخمسة آلاف دولار بروح على البلد اللي بريده.. شو مفكرين حالكم.. يا كلاب.

همّت عنات بالاقتراب لتسأل عن وضعه حين لاقاها رجل ستيني من ليبيا باشّاً. كانت قد ترجمت له سيرة حياته كاملة قبل مدة. بدا أن الموافقة على طلبه أتت منذ وقت قريب. حيّاها بغبطة وهو يشكرها، يدور حولها ممتناً كأنه يقاوم رغبة جارفة باعتصارها بين ذراعيه، ثم راح يرطن بكلمات من لهجته المحلية. لم يكد يكمل كلامه حتى تعلّقت برقبتها امرأة قصيرة ممتلئة، بلباس ليلكيّ طويل وفضفاض ومنديل رأس من اللون نفسه، وراحت تقبّلها بجنون جاعلة إياها تنحني رغماً عنها. فهمت عنات أنها زوجته وهي لا تعرف كيف تردّ لها الجميل.

ـ أنت غيّرت حياتنا يا آنسة.. غيّرت.. غيّرت..

وطفقت المرأة بالبكاء. لم يكن لدى عنات أية طاقة لتشرح لها أن لا فضل لها في الأمر. ابتسمت فحسب وهي تهمّ بالخروج.

ـ لكن يا آنسة.. انظري.. انظري.

كان الليبي يحاول أن يدلّها على شيء ما قبل أن تذهب. سبابته الثخينة تدور على رقعة ورقية فسيحة معلقة على جدار الممر، وقد صوّرت عليها خريطة العالم بالزون الملون.

ـ انظري يا آنسة هنا. باشر نكون هنا في المنطقة الحمراء.. هنا جنب المنطقة الخضراء.. انظري. بعد أسابيع.. والله ما أعرف كيف

أشكرك.. أسابيع فقط!!

ـ ...

لم يكن هذا الليبي يعرف إلى أين سترمي به الأيام القادمة! كان ذاهباً إلى منطقة حمراء بجانب منطقة أخرى خضراء ليس إلا! هذا كل ما كان يعرفه، دون أسماء، دون تواريخ، ودون تفاصيل بلاد جديدة سيرمى إليها. بدا أن الهرب كان كل ما يهمّه! وإلى أية بقعة كانت في هذه الأرض.. إلا بلاده.

غادرت المبنى.

كان عليها أن تمرّ بمقر المفوضية العليا للاجئين في حي الروضة. على الرغم من أن المفوضية قريبة من السفارة، لم تكن تمتلك أية طاقة على ذلك.

إذا بقيت هكذا سأفقد عملي خلال أيام معدودة، وقبل أن أكمل شهر حملي الثالث، فكرت عنات وهي تجتاز حيّ الروضة بسرعة.

صخب ما قبل الظهيرة يقتحم الحي الوادع، يتردد على جدران بيوته العريقة. نزلت باتجاه حديقة السبكي قبل أن توقف سيارة أجرة وترتمي داخلها. كان علي الديك يصيح من مسجلة السيارة بأغنية ما، لا يكاد صوته يسمع وسط ضجة الموسيقى الصاخبة! أما السائق الشاب فقد كان يستعمل المقود كطبلة جلدية. صاحت كي يسمعها، وبكل ما بقي فيها من قوة!

ـ إلى دمّر البلد.. وبسرعة لو سمحت.

أبي متكئ على الصوفا كالعادة.

تكاد قامته الضئيلة تتماهى معها، تغوص إلى داخلها، وهو يلتحف رداءه الصوفي ذا اللون السماوي.

كالعادة أيضاً يتابع محطات السيكس!

لا أعرف من أين يوالد عجوزي كل هذه الرغبة المتواصلة بالسيكس!! ما هذا الكمّ الهائل من الطاقات الإيروتيكية المكبوتة والمتراكمة داخله طوال أعوام!

ارتبك من قدومي المبكر على غير موعد. راح يقلّب المحطات بهيستيرية دافعاً بالريموت كونترول إلى الأمام كمن يصوّب مسدسه على دريئة بعيدة.

ما الذي أستطيع فعله لأب يكاد يتجاوز السبعين وما زال كمراهق في الخامسة عشرة؟! ويظنني لا أفطن إلى لياليه الطويلة يقضيها وهو يقلّب أفلام البورنو. يضع ربطة أوراق التبغ على اللوح الخشبي العتيق ويبدأ بالفرم وهو يراقب التلفاز فاغراً فمه حتى آخره، تاركاً لسانه يتدلّى منه كخرقة مبللة.

في بعض الأحيان كاد أبي يفرم أصابعه بدلاً من أوراق التبغ فيما كيانه بكليته يذوب في التلفاز. أما أنا فعليّ أن أتقلّب في رعب دائم من أن تدهم قلبه جلطة جديدة مفاجئة بدل أن تدهمه صدمة اللذة.

ـ مرحبا أبو حيان.

ابتسم مكشراً.

ما زال قلبي يغصّ حالما ألمح وجهه الحبيب الأسمر وقد زادته

التجاعيد سمرة، وعيناه تغوصان في حفرة المحجرين يوماً عن يوم.

ـ مبكرة اليوم.. تعبانة؟

زمّ شفته العليا الشبيهة بشفة أرنب متعاطفاً.

طوال حياته وهو يعاني من تلك الشفة، وقد جعلت شعر شاربيه ينبت على جانبيها لا غير، على الرغم من ذلك بقي أبي مصراً على تربية شاربيه العجيبين. كنت أزعجه بجلافتي دوماً:

ـ لماذا لا تحلق؟.. أليس أحلى من نصفي الشارب المقسومين؟

ـ رجل بدون شوارب!!! لا يمكن.

أحسده! كم هي الأمور واضحة بالنسبة إليه: الرجل هو ذاك الكائن الذي لا يحلق شاربيه أبداً، لا يقرب الأعمال المنزلية الوضيعة، ينتج قرارات الحياة القاطعة، ولا تسيل دموعه حتى في أقسى الظروف.

هذا هو الرجل باختصار، والمرأة هي كل ما عكس ذلك. ولا داعي للتفكير في ماهية الذكورة والأنوثة، ولتذهب إلى الجحيم كل ثورات الجندر، والحركات النسوية ومدارسها التي ما فتئت تتوالد منذ بدايات القرن الماضي وحتى اليوم في أرجاء العالم.

ـ أحسدك..

يفهم أبي ما أقصد، لكنه يتشاغل عني.

هو في داخله مختلف تماماً. وفي السنوات الأخيرة لم يتبق أي أثر لتلك القناعات فيه. كما أنه لم يستطع يوماً أن يمارس دور الرجل

المفترض الذي يراه، فالمرأة المفترضة لم تسمح له. كما أنه لم يستطع أن يكون الذكر المطلق في وجه أنثاه المطلقة.

تلك الأنثى، التي لم تصبح أنثاه يوماً، كانت أمي.

كأنه اطمأن إلى أني لم ألمح أية مؤخرة عارية أو أجساد متداخلة، استرخى في مجلسه ليتابع نشرة الأخبار على قناة الجزيرة القطرية.

كان ثمة رجل يتكلم عن سقوط بغداد عام ١٩١٧ بيد جيش بريطانيا العظمى، وذلك في الحرب العالمية الأولى بقيادة الجنرال الإنكليزي مود. ذاك المذيع المنفعل جعلني أعود للاستماع إليه وهو يقارن ما حدث قبلاً بالذي حدث قبل أيام حين سقطت بغداد مرة ثانية بيد جيش الولايات المتحدة الأميركية في ٩ نيسان ٢٠٠٣، لكن هذه المرة في حرب غير عالمية وبقيادة الجنرال الأميركي تومي فرانكس!

تلقّف حسن مصاصة المتة بين فلقتي شفتيه الأرنبيتين، شفط السائل المرّ المحلّى، ثم راح يتلمظ مبحلقاً في التلفاز. كأنه نسي كل ساعات اللذة المنصرمة، وعاد ليتفاعل مع الكارثة الجديدة، كما سمّاها، الحرب على العراق. ثم ما لبث أن رفع مقعده قليلاً ليدسّ يده تحت مسند الصوفا الإسفنجي، أخرج ربطة مرصوصة من أوراق التبغ المحشوة بوريقات النعناع الأخضر، ثم تناول لوح الفرم من جانبه، وبدأ استعداداته لفرم التبغ.

ـ يبدو أنك تعبانة اليوم؟.. ها عنات؟!!

لم ترد، دخلت غرفتها لترمي رزمة أوراق جوناثان غرين على السرير وترتمي بجانبها.

كانت تحسّ بنبضها أسفل بطنها! كأن قلبها انتقل إلى أدنى، أو كأن الدماء راحت تُضخ من ذاك الجزء إلى بقية أنحاء الجسد. لكنها لا تشعر بحركة الجنين! الدكتور قال: ما زال الأمر مبكراً لتشعر بحركته. ستنتظر حتى الشهر الرابع كي تشعر بتقلصات الحياة في رحمها.

متعبة.. متعبة.

شعور أثيري يختطفها عالياً كلما فكرت بالكائن الذي يتوالد في بطنها يوماً عن يوم، بتلك المعجزة التي تحوّل حضنها من جوف فارغ إلى مرجل رباني يمتلك وحده سحر الخلق.

أنتظرك بفارغ الصبر يا حبيبي.. يا صغيري الذي سألقي أمام قدميه كل أوقاتي، كل ذاكرتي، تاريخي، ولينتعل روحي ويمضي بها أنى يشاء.

قبالتها بجانب الكومبيوتر كانت صورة جواد أبو عطا تنتصب بإطار فضي أكله الزمن. يبتسم، وقد انتفخت وجنتاه. عيناه تضيقان كعادتهما حين يبتسم كأنهما تحاولان الاحتفاظ بالفرح القليل المتبقي داخلهما.

فوق الطاولة، على الحائط، ثمة مجموعة من الرسائل منتشرة بغير ترتيب. ورق سجائر صغير ورقيق، كلمات ضئيلة تكتظّ على المساحة الضيقة. كانت رسائل جواد من المعتقل، دأب على بعثها طوال السنوات العشر الأخيرة من اعتقاله، وقت نقل من سجن تدمر الصحراوي إلى سجن صيدنايا القريب من دمشق.

فوق الرسائل صورة لجميلة العلي، والدة عنات، معلّقة في إطار

ذهبي متكلّف، فيما تركن بجانب الكومبيوتر رواية «نزيف الحجر» لابراهيم الكوني. الروايات كانت تتبدل باطّراد على الطاولة، ربما كانت الحل الأوحد كي تتخفف عنات من ثقل أيامها، ثقل يجعلها تحسّ بكثافة روحها تزداد سماكة.

الروايات وحدها كانت قادرة على خلق عالم موازٍ، على تشييد تفاصيل يومية لكنها ليست بيومية، على استقدام شخصيات حقيقية لكنها ليست بحقيقية. الروايات وحدها كانت قادرة على نقل عنات إلى عالم افتراضي، عالم رمزي، غنيّ متعدد وملون بدل أحادية كل ما يحيط بها.

دخل والدها إلى الغرفة فجأة حاملاً معه رزمة أوراق صفراء وقلم حبر ناشف. هذا يعني أنه سيتحفها بقصيدة ألهمته إياها الأقدار البارحة. رآها ترمق الصورة فجلس بجانبها ليخبرها أن جواد اتصل قبل قليل.

ـ ولمَ لم يتصل على الموبايل؟

ـ قال كان مقفلاً..

ـ هو يعرف أني مضطرة لإقفاله في العمل.. لماذا لم يتصل من جديد؟

ـ قال أيضاً أن تحاولي بعث إيميل اليوم.. ويمكن تقدري تدخلي على هذا التش.. التشا.. شو اسمه؟

ـ تشاتينغ بابا.. تشاتينغ.

صمتنا كلانا لحظات، قبل أن أبادره مشيرة إلى رزمة الأوراق في يده.

ـ يجب أن تكون قصيدة غزل جديدة.

ـ أكيد.

سيظل أبي يتحفني بقصائد الغزل. غزل لامرأة كنت أعتقد أنها شبح ما يرفرف حوله. لكني لم أعرف لمن! اليوم صرت أعرف من يكون، بالتأكيد ليس شبح أمي، لأنها لم تكن ملهمته وهي حيّة فما بالك بعد موتها بسنوات!!

كانت القصيدة أبياتاً مقفّاة موزونة على البحر الوافر، كما أخبرني، كلمات مدروسة منتظمة كأنها صكّت في قوالب من فولاذ.

ـ بابا قصائدك العمودية صارت موضة قديمة.. يبدو كأنك تكتبها من زمان آخر.. انظر الغبرة تتصاعد منها.. شوف!

يضحك أبي، ويكمل إلقاءه.

يا للفضيحة! كيف يمكن أن يكتب بطريقة أخرى، ويمرّغ تراث المتنبي وأبي تمام في الوحل الحديث!! إنه تاريخنا العتيد، وعليّ إن أخطأت وبحت باستنكاري، أو بحبي لقصيدة النثر مثلاً، أن أتحمل محاضرة عن مجد الشعر العربي وجمال القوافي.

أصدر حسن إسماعيل أربع مجموعات شعرية.

طبعها في مطبعة مهملة في أحد أقبية شارع القوتلي باللاذقية، عثر عليها ذات يوم صيفي بالصدفة وهو يخرج من مقهى العجّان أحد مقاهي الشيخ ضاهر القديمة الذي يتكئ على جامع فارهٍ يحمل الاسم نفسه: جامع العجّان.

غالباً ما كان أبو حيان يخرج من المقهى قبل صلاة العصر بقليل، يدخل الجامع ويصلّي مع الجماعة. لم يكن أحد من أقاربه يعرف بالأمر، فصلاته في مسجد طائفة أخرى ستجرّ عليه مشاكل هو في غنى عنها. على الرغم من أن أياً من أصدقائه المصلين لم يعترض على تأدية صلاته معهم.

يفكر أحياناً لمَ تغويه الصلاة في هذا المسجد؟ لا يعرف سبباً محدداً! ربما كانت لمّة أصدقائه القدامى، وربما كانت صالة المسجد النظيفة المكيّفة والمزخرفة كأنها بهو في قصر سلطان، وربما، وهذا ما تيقّن منه في ما بعد، كان السر في صوت المؤذن الخلاب الذي استطاع أن ينأى به بعيداً عن المكان المغلق مؤرجحاً إياه بين نغمات الصوت وهدهدة الأدعية والآيات.

مؤذن جامع العجان كان يملك أجمل صوت نادى للصلاة سمعه حسن، خاصة عندما يهدل قبل صلاة الفجر:

الصلاة خير من النوم

ثم يعيد ملحناً الجملة ببطء أكثر: الصلاة خير من النووووووم

كأنه يمهّد لبزوغ الفجر بترنيمة سحرية مسْكرة.

لم يدخل الجامع ذاك اليوم. كان غاضباً وقد خسر في لعبة الطاولة مع أحد رفاقه. قهقهاتهم الهازئة تضجّ في أذنيه وهو يبتعد، طعم المرارة يختلط في حلقه مع مرارة شاي المقهى الثقيل والمحلى إلى درجة تثير الغثيان. راح يتمشى وهو يدخّن بقية سيجارته التي لفها في المقهى مطيلاً الطريق إلى بيت العائلة الكبير في منتصف زقاق العنّابة.

لزوجة تموز ورطوبته البحرية القاتلة جعلتا أشدّ استفزازاً، وربما دفعتا لتغيير طريقه باتجاه الكورنيش الغربي على البحر.

عند الناصية، حالما انعطف يميناً، عثر على تلك اللوحة المعدنية الصغيرة، كانت مغطاة بالمشايات البلاستيكية، مشايات من مختلف الألوان والأحجام مكتظة على حبال من القنب يعرضها محل الأحذية المجاور للمطبعة.

مطبعة السعادة لصاحبها مصطفى الصوفي.

جملة كانت كفيلة بقلب حياته، بخلق معنىً جديد لها، سيقوم مصطفى الصوفي ذاك بترجمته إلى حقيقة يومية:

مئات الدواوين تتراكم سنة بعد أخرى في زاوية المطبخ، فما من مكان آخر لها في المنزل الضئيل. ينقلها أبو حيان رزمة رزمة كلما سافر إلى اللاذقية وعاد.

سيكون من نصيب أي ضيف قادم، مهما كانت اهتماماته، نسخة أو نسختان من أحد الدواوين كهدية عزيزة، شاء ذلك أو أبى! وكم ارتسمت تعابير الضيق أو خيبة الأمل على وجوه الكثيرين إثر معرفتهم بحقيقة الهدية.

على الرغم من ذلك كله لم يكلّ أبو حيان يوماً. كنت أحدثه عن الماء واللغة وتشابه ماهيتهما. فكرة أعجبتني حين قرأتها يوماً. سيكون شكل الكتابة عندها بمثابة الوعاء الذي يحدد شكل اللغة/ الماء.

ـ شو هالترهات!!

يجيب أبي وهو يفهم مناكفتي له. وينفث من أنفه سحابة دخان كثيفة لها رائحة النعنع.

سألته إن كان جواد قد قال متى سيتصل ثانية. أجاب بصوت واطئ ومتردد أن لا، وراح يراقب عيني متعاطفاً.

ـ الصبر يا حبيبتي الصبر.. ستُحلّ الأمور قريباً.

ـ يبدو أني أنا التي سأنحلّ شيخي.

مدّ يده السمراء ليمسّد شعري. كنت بأمسّ الحاجة إليها.

وبديع الحسن قد فاق الرشا حسناً ولينا(١٤)

تحسب الورد بخدّيه يناغي الياسمينا

وطبع قبلة على جبيني، ثم ربّت على بطني مبتسماً.

ـ على فكرة، اتصلت إيزابيل اليوم صباحاً.

ـ متى ستأتي؟

ـ يمكن بشهر آب.. يمكن.

وضحك لتنفلق شفته أكثر كاشفة عن أسنانه المزنّرة بالأصفر. طبع قبلة أخرى على جبيني، وغطّاني بالبطانية قبل أن يغادر الغرفة. قلت له إني كنت أفكر بأمي اليوم. ابتسم، وقرص وجنتي تحبباً. ربما كان

---

(١٤) قصيدة لأبي نواس.

يفتقدها أيضاً، لا أعرف حقيقة.

ـ فكري بابنك القادم وبنفسك حبيبتي.. نوم العافية.

ـ أنا تعبانة في الشغل أبو حيان. يمكن هذا سبب كل مشاكلي.. لا تقلق.

يبدو أن الجواب تأتّى عليه. صمت فحسب.

كان أمراً مبلبلاً في الحقيقة. أن يكون المرء مترجماً، ومترجماً فورياً على وجه الخصوص، يعمل على قضايا كالتي أعمل عليها، عليه حينها أن يتسلّح بحيادية كاملة، أن يحتفظ بتلك المسافة بينه وبين الآلام التي تسرد أمامه كي يستطيع أن يحوّلها في اللغة دون أن يحرّف كنهها، أو لنقل دون أن يسبغ عليها من جوّانيته أية ذرة معنوية.

يعني أن ينقلها وهي نت.. صافية من مصدرها القائل.

لا أعرف لمَ أنسى هذا في المدة الأخيرة!. أشعر أني أخسر من مراسي، من خبرتي التي راكمتها طوال سنوات. أنا أقع يوماً بعد يوم في فخّ تقودني إليه اللغة! إنها تغويني بالتعاطف، بالتمثّل، وبالانجراف حيث لا ينبغي أن أقع في غوايتها. تجعلني أحمل عبء الحكايات، أعيش خوفها وذلّها، أتغير تحت وطأتها، أتمزق وأنا أنوء بكل تلك الحيوات المتراكمة فوق ذاكرتي يوماً بعد يوم ومقابلة بعد مقابلة.

أنا أغوص أبعد فأبعد في فخّ تقودني إليه اللغة!

طلبت من أبي أن يشعل المسجلة قبل أن يغادرني. كنت قد

وضعت فيها كاسيتاً هذا الصباح. لربما حملتني موسيقى VAS الصوفية بعيداً عن هنا.

صدحت الموسيقى الشرقية في المكان وأنا أخلع ستياني، وقد صرت أحسّه يضغط تنفسي يوماً بعد يوم. الاحتقان يتزايد باطراد في ثديي، يجعل مجرد لمسهما مؤلماً.. حتى حجمهما راح يتبدّل! أحسّ جسدي بكامله يتبدل أمام عيني، ينقلب، يتحضّر، كلما خضت أبعد في حملي.

على الرغم من شعور الغثيان المبرّح الذي ما فارقني، رحت في نوم عميق. صورة جواد تغيّم أمام ناظري، وتنهدات لذة تتناهى بعيدة ومجوّفة إلى مسامعي. كان أبو حيان في الصالون قد بدأ أوقاته اللاهبة مع إحدى محطاته الأثيرة.

تلك المساحة الضيّقة، تحتشد فيها الرسائل المعلّقة على الحائط، كانت تفتح أمام عنات إسماعيل آفاقاً لا نهاية لها! تجعلها تجترّ الصبر كلما كادت تفقده، أو كاد يلتهم آخر ذرة من طاقة لها على الاحتمال. وكم كانت المرات كثيرة حتى اكتملت السنوات الخمس عشرة على اعتقاله.

اليوم صارت شاشة الكومبيوتر، ذات الأربع عشرة بوصة، تحجب القسم الأكبر من تلك الرسائل:

بعضها تحوّل بقع حبر غائمة ليس إلا، ومحيت عنها الكلمات. بعضها الآخر كُتب بقلم الرصاص أصلاً، لذا غدا محالاً قراءة أي شيء منها.

لكنها الرسائل، وستبقى ملتصقة هناك مهما مثّل بها الزمن، مزهوّة بحمل عبء الشاهد على كل تلك السنوات المريرة التي مرّت.

حين اعتقل جواد أبو عطا لم تكن عنات قد بلغت الثانية والعشرين بعد وقد تخرّجت للتو من قسم اللغة الإنكليزية. الآن ها قد مرّت ستة عشر عاماً منذ ذلك اليوم. يوم غائم من آذار سنة ١٩٨٧.

الكمين، الذي ألقي القبض فيه على جواد، أعدّه ابن عمه حسام أبو عطا. كانت قد مرّت فترة طويلة لم يستطع فيها حسام أن يكتشف مخبأ ابن عمه، فيما الأخير يقيم في غرفة صغيرة استأجرها على سطح بناية من بنايات أوتوستراد المزة. الأمر كان بناءً على قرار الحزب ريثما يتسلم جواد غرفته في السكن الجامعي، حيث سيضيع هناك بين جموع الطلاب، ولن يكون هيّناً على عناصر الأمن إيجاده وسط الزحام.

حملة الاعتقالات ذاك العام طالت معظم أطياف المعارضة من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين مروراً بأطياف الوسط المعارض. في تلك السنة اعتقلت ميّاسة الشيخ أيضاً من مدرج الجامعة المركزي، فيما صوت دكتور الأدب المقارن يلعلع في المدرج. بلا استئذان دخلت مجموعة من أربعة عناصر بلباس مدني، سألوا عن ميّاسة الشيخ التي كانت قد انكمشت في مقعدها في الصفوف الخلفية وقد استشعرت خطراً قادماً. لم تكد الأصابع تشير إليها حتى كانت مسوقة إلى الخارج. حاولت أن تثير ضجة علّ أحدهم يساعدها على الهرب، أو إلهاء العناصر، أو أي شيء من هذا القبيل، لكن صفعة مهولة باغتتها، جعلت نظارتها الطبية تطير عن عينيها وتتناثر شقفاً على البلاط. ثم دفشة من الخلف أخرجت قميصها العريض من تحت زنار بنطالها الكحلي.

ترنّحت أمامهم دائخة حتى رُميت في سيارة الأمن الواقفة بالانتظار أمام مبنى الجامعة.

بقي الطلاب صامتين، يقطعون أنفاسهم كسكان قصر مسحور. فيما الأستاذ يراقب الجماعة الخارجة هلِعاً أبكم دون أن يستطيع الحراك.

ودّعه آخر عنصر بحركة بذيئة من إصبعه الوسطى. أخرج لسانه دالاً، وغاب في باب المدرج.

ابتعد صوت السيارة الهادر.

حينئذ عاد الأستاذ بصوته الأبحّ ليكمل المحاضرة كأن شيئاً لم يكن! كان خجلاً حدّ الموت، يشعر بأنه مجرد جرذ قبيح وجبان يهزّ رأسه أمام طاولته الخشبية، ويجاهد كي يبدو المشهد طبيعياً. وجوه الطلاب المتلونة أمامه راحت تجنّنه، تجعله يتخبّط في ظنونه المرعبة. المدرج يتخايل أمامه مشوّشاً، مكتظاً بعناصر المخابرات، والطلاب يتحولون إلى أشباح مرعبة تحاول الإمساك به.

بعد أسابيع قليلة قدّم الدكتور استقالته، ورحل أستاذاً مساعداً في جامعة مسقط المركزية في غرب سلطنة عمان.

حين اعتقلت ميّاسة الشيخ إثر ذلك اليوم كان قد مضى خمس سنوات على اعتقال زوجها إياد الشالاتي الذي اختفى ذات يوم من سنة ١٩٨٢ وابنتها لا تزال في بطنها بعد. اختفى معه أيضاً زوج أختها ضحى، سليمان الأحمد، الذي كان مقرراً أن يلاقيه في ذلك اليوم في موعد حزبي عند مفترق شارع العابد وبوابة الصالحية أمام البرلمان تماماً.

ـ الجريدة في المكتبة وراء الباب.

ـ ...

لم يكن إياد بحاجة لكلمة السر، عرف سليمان فوراً على الرغم من لحيته الكثة الطارئة، السوداء جداً، ونظارته الطبية بإطارها العريض الغامق التي تلتهم أكثر من نصف وجهه. لكنته الممطوطة فضحته، لكنة تسم ألسنة معظم صيادي السمك.

ما إن ألقى سليمان كلمة السر حتى هجمت مجموعة من الشبان يرتدون ثياباً مدنيةً. حاول إياد الهرب، لكن الأسلحة نبعت فجأة بين أيديهم، ولُقِّمت مستعدة للإطلاق مباشرة.

في الثواني الفاصلة بينه وبينهم فكر إياد أنهم قد يطلقون النار عليه بمنتهى البساطة. ربما لم يفكر لحظتئذ بعدد الذين قد يسقطون صرعى بالخطأ والمكان مكتظ بالمارين، ولا بمشهد الجثث التي ستتراكم يرافقها الزعيق الهلع كمشهد من فيلم أكشن، بل فكر أنه لن يقوى على صدّ رصاصهم بجسده المتعب، وأنه لا يقوى كذلك على المضي في عدوه بعد.

بعد عدة خطوات وقف، قفل عائداً إليهم وهو يرفع يديه مستسلماً.

اعتقل سليمان مع إياد بالطبع، ولم يكن قد مضى أكثر من ثلاثة أشهر على زواجه من ضحى الشيخ.

الكمين الذي رُتِّب لاعتقال جواد أبو عطا نفّذ في بيت رجل فلسطيني من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، اسمه فهد الجليلي. كان صديقاً للحزب بشكل ما، ولديه منشرة لصناعة الموبيليا في قبو بيته آخر مخيم اليرموك جنوب شرق دمشق.

يتردد جواد على الجليلي كل حين ليوصل إليه بعض أدبيات الحزب. يقوم فهد بدوره بتوزيعها على مخيم فلسطين والعروبة واليرموك والمنطقة عموماً. ولأن لفهد الجليلي مواهب غريبة في توزيع مئات الأوراق والكتيبات والأخبار الشفهية خلال زمن قياسي فقد كانت العلاقة الطيبة معه أهم ما على جواد الحفاظ عليه. حتى لو كان مجرد الجلوس لسماع الجليلي، وهو يتحدث لساعات متواصلة دون لحظة سكوت، أشبه بحفلة تعذيب حقيقية.

نزولاً إلى القبو الشاسع الممتد على كامل مساحة البناء، وهو يشكّل منشرة الموبيليا، يتزحلق جواد على برادة الخشب وقد غدت، وهي تفترش الأدراج، كالصابون السائل. كان عليه أن يتحمّل رائحتها النفاذة، حتى لو قادته إلى الاختناق، وهي تنحشر في فوهتي أنفه ممزوجة برائحة عرق الجليلي الأقرب إلى رائحة إسطبل للأبقار.

ـ اللي عملناه في الجبهة الشعبية بتحتاجو سنين حتى تعملوه رفيق مصطفى.. إساكو صغار.

ويضجّ فهد الجليلي بضحكة مجلجلة. يمطّ اسم جواد الحركي، الذي لا يعرف إلاه، ويتلقف سيجارته الحمراء القصيرة بين شفتيه الغليظتين. كان له سمرة أهل الغور وشعرهم الفاحم المجعّد وعيونهم الحالكة.

ـ من البارحة لليوم وزّعت المية وخمسين منشوراً الذين جلبتهم لي..

ويضحك من جديد بتفاخر نافثاً سحابة من الدخان الثقيل في وجه جواد.

خلال اللقاءات الأولى كان من السهل إقناع الجليلي باسم جواد الحركي، لكن كان من الصعب إقناعه بهويته البديلة. فقد اكتشف الجليلي، ببساطة شديدة، هوية جواد.

سأله بغتة ذات مرة:

ـ من جبل العرب أنت ها؟

ـ لا...

ـ إذاً من وين؟

ـ أنا من الرقة.

قهقه الجليلي عالياً، ثم رمق جواد مزورّاً، ووجهه الأسمر ينضح باستهزاء العارف الذي تمّ تجهيله للتو.

ـ ها رفيق مصطفى.. إنت بتظن أنو فهد الجليلي بتمشي عليه هالقصص؟ إنت إذا مش من الجبل ولا السويداء فمن صحنايا أو جرمانا. لا تقلّي رقّاوي.. رفيق مصطفى، أنا حرف الظاء ألقطه من سفر سنة! درزي إنت رفيق مصطفى.. مش هيك؟

ـ ...

ـ هه.. قال رقاوي قال!

لم يكن أمام جواد إلا الصمت. يومها صمت الجليلي أيضاً لدقائق مجّ فيها السيجارة حتى آخرها ثم همّ بالعودة إلى الحديث عن أصول جواد، لولا أن نزل بعض العمال فجأة وهم يحملون غرفة جلوس فخمة إلى القبو.

أراد الجليلي أن يسأله إذا كان أهله يطلقون اسم مصطفى على أولادهم، فمعلوماته تقول عكس ذلك! لكن جواد انسلّ من فوره مستغلاً الفرصة بعد أن اطمأن إلى أن المناشير صارت مكدّسة في الدرج العلوي لمكتب الجليلي.

في اللقاءات التالية لم يحاول الجليلي أن يتطرق إلى الموضوع ثانية، فيما حرص جواد دوماً على رمي أوراقه ثم الانسحاب سريعاً كلصّ.

اقتضى الأمر في تلك الآونة، ضمن خريطة المخيمات الفلسطينية، أن يرتّب الحزب علاقات طيبة مع أشخاص من الفصائل السياسية كافة. بينما يرتّب جواد علاقة مع الجبهة الشعبية يكون لدى رفيق آخر، أو رفاق آخرين، مهمة لدى الجبهة الديموقراطية أو مقر منظمة التحرير الفلسطينية. حينئذ فحسب، يستطيع الحزب أن يضمن إعلاماً جيداً في أوساط المخيمات ذات الانتماءات الفسيفسائية بامتياز.

في ذاك الوقت كان الاتجاه الديني يشتدّ ساعده يوماً بعد يوم، والأحزاب الإسلامية المحلّية المعارضة تعدّ علاقات طيبة أيضاً مع تصاديات الإخوان المسلمين والتيارات الإسلامية الأخرى الآخذة بالتشكل.

ظل الأمر روتينياً في توزيع منشورات الحزب الثورية حتى قدِم إلى منشرة فهد ابن أحد العمداء في المخابرات العامة. كان الشاب، الذي يسبقه صيته، يريد أن يفصّل غرفة نوم جديدة قبل عرسه الآتي بعد أشهر. قدّم له الجليلي مجموعة من الكاتالوكات الحديثة ليختار التصميم المفضل لديه، وبحركة متسامحة شهمة تركها عنده ريثما ينتقي الابن تصميمه بتمهل، حينئذ سيقوم فهد بتفصيل غرفة

نوم له.. لكن من الأحلام!

ـ وغداً آخذ الكاتالوكات منك.. أريد أن أسلّم على والدك.. اشتقت له كثيراً.

فكر فهد أنها ستكون مناسبة جيدة لخطب ودّ الأب المتنفذ. لن يأخذ من الابن سعر الغرفة كفرصة لربح واسطة ما عند الحكومة وسلطات الأمن.

قبل أن ينتصف الليل كانت دورية أمن سياسي تشحط فهد الجليلي من سريره إلى سيارة ستيشن قابعة على مدخل الحارة الضيقة. لم يردعهم صراخ زوجته المجنون في سكون الليل. كانت تستغيث وهي تلتحف بالشرشف دون أن تستطيع مغادرة الفراش بثدييها العاريين وكيلوتها المزخرف الأحمر. لم يردع الدورية كذلك عري الجليلي الكامل إلا من غطاء صغير شفاف استطاع أن يتلقفه في آخر لحظة من على الطاولة النصفية في الصالون ليستر به وسطه.

كان فهد قد نسي، لسوء حظه، بياناً للحزب ضمن أحد الكاتالوكات، احتفظ به كذكرى بعد أن عمل على إيصال المئات منه في أنحاء المخيمات الفلسطينية.

عند الصباح اعترف فهد لاهثاً باسم جواد أبو عطا، باسمه الحركي الذي يعرفه بالطبع: مصطفى. ووسط حشرجته اعترف أيضاً بكل أعداد الراية الحمراء، النداء الشعبي، البيانات، والمنشورات التي سبق أن وزّعها، أو لم يوزعها، في أوساط الفلسطينيين. سرد تاريخ عائلته بالكامل، من أيام هجرة جده في عام ١٩٤٨ من الجليل الأعلى وحتى اليوم مروراً بمشاعر الإحباط التي أثرت على تربيته إثر النكسة. وحين هم بقصّ حكاية زواجه وعلاقته المتهتكة مع الجارة

دسّ المحقق مقدمة حذائه في فمه صارخاً فيه أن يخرس وإلا اقتلع لسانه.

كان فهد الجليلي يتحدث منذ ساعة ونصف دون توقف كأنه روبوت.

ـ أنا بدي الشباب. فهمت علي؟! بدي المنايك اللي بتعرفن. وأول واحد فيهم مصطفى الخرى تبعك.

وعد الجليلي أن يساعدهم في القبض على مصطفى بأية وسيلة يريدونها.

ـ ووعد الحر دين.

قال المحقق ساخراً، ومعس رقبة فهد بين أسفل حذائه والأرض الإسمنتية الخشنة.

كان الجليلي لا يزال يتلوّى ألماً، فلم تمض دقائق على إطلاق سراح خصيتيه، وقد بقيتا مشدودتين إلى حلقة معدنية في سقف غرفة التعذيب منذ مساء الأمس، فيما جسده العاري يتقلّب على نتوءات الأرض القاسية. لكن يقين المحقق كان يقوده منذ البارحة: إلقاء القبض على ذاك الذي أتخم المخيم بالأوراق الشيوعية، بالدعوات لإسقاط النظام ومعاقبة البطانة الحاكمة، سيفتح أمامه الباب على مصراعيه كي يضع الحزب بكامله في قمقم معتم، قمقم لن يخرج منه يوماً.

عند الظهر كانت صور بعض الشيوعيين المتخفين أمام الجليلي وهو يدلّ باكياً، بصوت أقرب إلى صوت صوص، على صورة شاب

ملتح أسمر يعرف أن اسمه مصطفى فحسب! يأتي كل أسبوع، في وقت معيّن، محملاً بالبيانات والمجلات المرتبة كزنّار بين حزامه وجسده النحيل، أو المدسوسة في الجيوب الداخلية لفيلده العسكري، في جواربه، وفي ثيابه الداخلية أيضاً.

الكمين الذي أُعدّ في بيت فهد هيأه ابن عم جواد الذي أمّن صورة منسية له. وكان عليهما، حسام عطا الله وفهد الجليلي، أن ينتظرا جواد في بيت فهد كمفاجأة ليسهروا معاً. في ذاك اليوم كانت العاصمة تتهيأ لحدث استثنائي: موكب رسميّ سيمرّ على أتوستراد المزة باتجاه ملعب الجلاء الرياضي القائم في آخره. عناصر الشرطة يومذاك مزروعون على سطوح كل البنايات التي تحدّ الأتوستراد على طوله، متسمّرون على جوانب الطريق كدمى خشبية، مدسوسون في الحارات المحيطة وأمام الأبواب، يُشرعون أسلحتهم وأجهزة اللاسلكي متوفزين بانتظار إشارة.

ولأن الوقت كان مبكراً على موعد فهد الجليلي، فقد قصد جواد غرفته. كان يفكر أنها مناسبة لتغيير ثيابه المتسخة، التي تفوح منها رائحة سمك متعفن، وليستعد لموعده مع عنات اليوم في الساعة التاسعة مساء. كما أن عليه ترتيب الغرفة التي سيعودان إليها عاشقين مشتاقين حدّ الجنون في آخر الليل. مرّ شهر كامل منذ التقيا آخر مرة.

حين وصل جواد الغرفة كانت مجموعة من العناصر تراقب الأتوستراد من أمامها. ثلاثة عناصر يندلقون بكليتهم إلى الأسفل، واثنان يراقبان البنايات المجاورة.

ارتبك للحظات قبل أن يلقي التحية بشكل حاول فيه أن يكون طبيعياً

قدر الإمكان. سمع صوته كأنه صوت رجل آخر يمسك أحد ما بتلابيبه. ثم توجه إلى الغرفة، لكن قدميه راحتا ترتجفان رغماً عنه.

ردّ العناصر التحية، وعادوا للمراقبة.

أف.. الحمد لله. همس جواد قبل أن يحاول إدخال المفتاح في قفل الباب. ليسوا هنا من أجلي. لكنه لم يدخل الغرفة. دسّ المفتاح في جيبه من جديد ونزل من فوره. فقد كان محالاً عليه أن يبقى دقيقة أخرى قريباً منهم.

موعده مع فهد الجليلي اقترب، والازدحام الشديد الذي خلقه الاحتفال ومجيء الموكب إلى الملعب سيجعلانه يتأخر عن الموعد لا محالة.

في تلك الليلة استطاعت عنات إقناع والديها بأنها ستسافر إلى طرطوس كي تعود والدة ميّاسة الشيخ التي مرضت إثر اعتقال ابنتها. لذلك ينبغي أن تطمئنّ على العجوز والصغيرة ديانا، ابنة ميّاسة، التي رميت دون أب أو أم عند جدة مريضة وهي لم تكمل بعد سنتها الخامسة.

في ذلك اليوم كان على عنات أيضاً أن تقوم بنزع شعر ساقيها وعانتها في الحمام، دون أن تحسّ جميلة بأية حركة.

خرجت قبل الساعة السادسة مساء كي تكون مقنعة في خطة السفر. دسّت قميص نومها الجديد في حقيبتها القشية الكبيرة، قميص نوم أبيض بزهور أرجوانية، قماشه القطني الناعم يثير فيها خيالات شبقة. كانت لهفة لتقع عينا جواد عليه، وتشعلاها بالرغبة. كما دسّت فرشاة أسنانها في الحقيبة وعلبة مكياجها الصغيرة، ولم

تنسَ أن تأخذ رواية ميلان كونديرا المترجمة حديثاً معها. كانت ترغب في أن يقرأها جواد، أن يخرج قليلاً من عبء قراءاته السياسية، أو أن يطّلع على كتابة روائي ينتمي إلى منطقة مختلفة تماماً. روائي أهون ما كان الرفاق يطلقون عليه هو لقب: الرجعي. كانت تريد لجواد أن يطلّ على ضفاف أخرى، مغايرة وربما مضادة، تختلف عن تنظيرات لينين وروزا لوكسمبورغ، ونصوص تفترق عن روايات ألكسي تولستوي وشولوخوف.

أغلقت الحقيبة وخرجت من فورها.

أمامها ثلاث ساعات من التسكع قبل أن يحين الموعد المنتظر. عتمة الشتاء المبكرة وبرد آذار لا يسهّلان الأمر أبداً.

يا ألله كم أشتاقك!

أحسّ بأني أشتمّ رائحتك أينما ذهبت ممزوجة برائحة مطر قادم. عيناك السوداوان تلاحقاني بغوايتهما. دغدغة لحيتك أحسّها الآن على تفاصيل جسدي.

اقشعر جلدي بالكامل، واستيقظت متلفتة حولي لئلا يضبطني أحد المارين متلبسة بحالة شبق مجنونة اجتاحتني للتو.

شهر كامل جواد.. شهر كامل!! والله حرام.

سأتسكع نازلة من مزة جبل باتجاه ساحة الأمويين مروراً بالمدينة الجامعية وأنا أستحضر لحظات لقائنا الأخير في غرفة قريبة من السماء في أعلى بناية من بنايات أتوستراد المزة.

أحسّ أصابعك تكوران أجزائي، تحدّدان شكل ثديي. أنفاسك

تهمس في أذني كلمات فاحشة تثيرني، ولسانك يلعق كل ما بقي من لزوجة. تتلمظ بطعم أحمر الشفاه بنكهة الفراولة، وتسخر مني متهماً إياي بالبرجوازية، التهمة الأمضى التي من المفترض أن تجعلني أجنّ وأنا صديقة الشيوعي العتيد! ثم تعيد عليّ أن مظهري المتكلّف، بمكياجي المبالغ به وثيابي المتأنقة دوماً، يجعلني أشبه بسيدة صالون مدينية سخيفة.

وأضحك..

ذلك أنك لطالما استمتعت بتمريغ أنفك بعانتي الناعمة. كنت أحسّ لسانك يبتهل إليها، يتحرك رشيقاً وأنت تجوسها به. ثم تغرقه في الجيوب الداخلية المنداة المبللة برائحة سرو هطل عليه المطر للتو.

أليس هذا ما كنت تصف به سائلي الوافر؟!

وأبتسم متلذذة حين تقول لي إن المرأة الثورية لا تنزع شعر عانتها، ثم تعتصرها بين أصابعك اللهفة. وأعود إلى نعت رفيقاتكم بالمسترجلات وهنّ يتلحفن على الدوام بثياب رجالية مقيتة، وتفوح منهن روائح رجالية أيضاً.

وتضحك...

ثم تمرر باطن كفك الرطبة على أعلى صدري ونحري وأنت تهمس بأنه يمكن لأي كان أن يكتشف وصولي اللذة من مراقبة البقع القرمزية وهي تتفشى على بشرتي.

وتضحك...

كل ذلك كأنه يحدث الآن، هنا في الشارع النازل من مبنى

الجمارك باتجاه المسرح القومي الذي لا تزال أعمال البناء فيه جارية منذ خمس سنوات وحتى الليلة.

...

في الوقت الذي كانت عنات إسماعيل تتسكع فيه ماسحة الشوارع شبه الفارغة كان حسام أبو عطا يهمّ بمغادرة بيت فهد الجليلي حيث الكمين، وقد فقد الأمل بقدوم جواد.

ساعة كاملة على مضي الموعد ولم يأت. راح الرجل يهدّد بإخبار رؤسائه. كان يصرخ أن الجليلي وحده من أعلم جواد أبو عطا بالكمين. فهد شاحب وخائف، يتصوّر تعذيب البارحة بتفاصيله يتكرّر على جسده. أحسّ بألم مفاجئ يدهم خصيتيه فيما زوجته المرتعبة تبكي بهيستيرية إلى جانبه.

لكن جواد ولج لحظتئذ مدخل البيت لتتلقفه عناصر الدورية القابعة في آخر الحي قبل أن ينبس أي من الحاضرين بكلمة.

آخر ما أدركه جواد، وعنصر المخابرات يحشر رأسه في السيارة، دموع فهد وزعيق زوجته، والارتياح الذي بدا على وجه ابن عمه الموجود في مكان لا ينبغي أن يكون فيه.

الأسئلة هي كل ما رافق جواد في رحلة الذهاب تلك إلى الجحيم.. أسئلة بقيت طويلاً دون أجوبة شافية.

في العاشرة ليلاً وقفت عنات بباب البيت مشعثة!! والكحل، الذي بالغت اليوم في تحديد عينيها به، يسيل على وجهها المبلل بالدموع.

كان ينبغي أن تكون في طرطوس الآن!

قبل قليل، كانت جميلة وحسن مسترخيين أمام التلفاز، الذي لم يكن يبث إلا القناة الأولى الرسمية، ووردة الجزائرية تناغي بليغ حمدي وهي تغني العيون السود. حين لمحت جميلة ابنتها ركضت هلعة لتلاقيها. لم يخطر ببالها إلا أن يكون أحدهم قد اعتدى على صغيرتها. كانت تفكر بكل ما هو سيئ في الأمتار القليلة الفاصلة بين الصوفا، التي تشرب المتة عليها، والباب الخارجي. إنهم ينتشرون كالقمل في كل مكان، يجوسون زوايا الليل، وعنات صبية وحدها في الساعة العاشرة، و..

احتضنت ابنتها المنهارة، وسندتها حتى اتكأت على الصوفا.

نشيج عنات المتعالي وصراخ جميلة جعلا أبو حيان يركض مهرولاً من الحمام وهو يرفع سرواله وعيناه الهلعتان مفتوحتان على آخرهما.

ـ اعتقلوا جواد..

لم يسأل أي منهما من هو جواد هذا!

مرّت ليلة طويلة حكيت فيها كل ما في جعبتي. كنت أتدثر بشرشف أمي الزهري عابثة بطائري السنونو المطرّزين عليه، فيما حقيبتي لا تزال ملقاة على الأرض وأشيائي مبعثرة قربها. والدي يلفّ سيجارة وراء سيجارة دون أية استراحة، يضمّخ طول كل منها بلعابه تاركاً كيس التبغ الجلدي مفتوحاً طوال السهرة. الغرفة أضحت ضبابية شاحبة، ووجهاهما قبالتي يتمازجان مع شحوبها المتزايد.

ـ شو يعني كل هالشي؟

ـ يعني سأنتظره.

ـ وإذا طوّل في السجن؟!

سأل أبي متوجساً وهو يزمّ شفته الأرنبية ويحيط كتفي بذراعه.

ـ سأنتظره..

راحت جميلة تحاول إقناع عنات بأن الله وحده يعرف متى سيخرج جواد. ربما اعتقل لساعات وربما ظل هناك سنوات. الأمر منوط بمزاج السلطات ليس إلا. ثم رمقت حسن كي يساندها. لكنه ظل صامتاً يمجّ سيجارته كأنه يتعلّق بها من الغرق.

ـ ...

ـ سأنتظره.

ـ الداخل إلى هناك مفقود والخارج مولود يا عيوني.

رمته الأم من جديد بنظرة سريعة ودالّة، كان الأخير مربكاً أيضاً.

ـ ثم إن أهله لن يرضوا أن يزوجوه ببنت علوية. تعرفين عنات لن يرضوا إلا ببنت منهم!.

ـ لا يهم.: نحن اتفقنا بابا.

توقعت أن يسألني كيف اتفقتما دون أن تأخذا برأيي أو دون إخباري على الأقل. لكنه ظل صامتاً.

ـ أنا أحبه بابا! ثم متى كانت الطوائف تهمّك؟ كل عمرك وأنت تستخف بهذه القصة، تحكي عنها كأنك تحكي عن زبالة! الطوائف!! لا أتذكرك إلا وأنت تسبّها!

ـ ...

ـ وقت تعرفه أنت وأمي ستحبانه. أنا واثقة من هذا.. هو شاب رائع بابا.

ـ ارتاحي هلق حبيبتي.. ارتاحي.

ـ ...

لم يعودا إلى التفوه بأية كلمة!

حقيقة فوجئت برد فعلهما! كانا لطيفين، كما هما دائماً معي، متفهمين على غير العادة، وقد جاهدا كي يشعراني بأني هنا بين أحضانهما في أمان مطلق.

قامت أمي إليّ، طبعت قبلة على خدي الملطّخ بالملح والكحل، ثم تركتنا لتذهب إلى المطبخ بعد أن أغلقت التلفاز الذي أعلن إغلاق بثه.

نشيد حماة الديار يرفرف مع العلم السوري.

لن تستطيع الانتظار كل ذلك العمر.. ابنتي وأعرفها. همست جميلة لنفسها وهي تعدّ الشاي الثقيل بعيدان القرفة.

أعرفها.. نافدة الصبر متسرّعة، تعشق الحياة والصخب أكثر من أي شيء في العالم. إن طال اعتقال حبيبها سنة أو سنتين فلن تستطيع انتظاره، ستكون الحياة التي بداخلها أقوى.

لكن ماذا لو اعتقلوا عنات أيضاً؟!

فكرت جميلة وهي تحمل صينية عليها كؤوس الشاي بيد والإبريق باليد الأخرى. ثم ما هو شكل ذاك المسمى «جواد»! لمَ تحبّه ابنتها كل هذا الحب؟!

لكنها لم تكن تتقبّل فكرة زواج ابنتها من درزي. لا تريدها أن تتعذّب. ثم ماذا سيكون موقف الأقارب؟ سيقاطعونهم بالتأكيد.

فكّرت جميلة من ثمّ أن مقاطعة الأقارب ليس أمراً تخاف منه، فقد سبق أن قاطعوها منذ زمن بعيد.

لكن هل سيستطيع جواد ذاك، إذا افترضنا أنه خرج من المعتقل قريباً، أن يتحدّى أهله ويتزوج بفتاة من خارج طائفته!!

كانت تشكّ بذلك. لكنها شعرت بوجد عميق استطاعت عنات أن تبثّه في أرجاء البيت كله وتحيطها به بكليتها، كأنها هي التي غدت عاشقة لذلك الغريب الذي اقتحم حياتهم فجأة.

ثمة هالة تحيط بالصبية تجعل الصوفا تحتها تضيء. هل هذا ما يفعله الحب؟

...

فوالله ثم والله إني لدائب

أفكر ما ذنبي إليك فأعجب(١٥)

ولجت جميلة باب الصالون رامقة حسن وابنته متعانقين. ثم خطر

---

(١٥) قصيدة لمجنون ليلى/ قيس بن الملوح.

ببالها أن حسن لن يوافق على الأمر حين سيفكر به جيداً، على الرغم من أنه الآن، وتحت ضغط الحالة، راح ينشدها شعراً. إنه لسان عاطفته ودموع ابنته المنسابة لا غير!

أأقطع حبل الوصل والموت دونه؟
أم أشرب كأساً منكم ليس يشرب؟
أم أهرب حتى لا أرى لي مجاوراً؟
أم أفعل ماذا؟ أم أبوح فأغلب

الآن راحت دموع حسن تتساقط مع أبياته. أما جميلة فقد راحت تشعر بسعادة ما في قرارة نفسها، بقشعريرة متعة لم تُرِد الاعتراف بها! وربما بظلال غيرة دفينة من غواية متّقدة وأنوثة طاغية، يحقنها الحب عادة في خلايا المرأة، وقد راحت تشعّ من عيني عنات المتورمتين.

حبيبتي عنات.. يا نور عيوني

وصلتني رسالتك الرائعة[١٦] طلعت في فم أحمد موسى وهو يقضم

---

(١٦) كانت عنات إسماعيل قد بعثت رسالتها الأولى في قلب وردة جورية قدمتها إلى جواد أبو عطا في إحدى زياراتها إلى المعتقل عبر الشبك. يومها كان التفتيش دقيقاً، لذلك قام السجان بتفتيت الوردة، وضبط الرسالة الملفوفة بين بتلاتها. وكان عقاب جواد أسبوعين في المنفردة.
في الزيارة التالية دسّت عنات الرسالة في قطعة من محشي الكوسا، الذي صنعته أمها، وهكذا وصلت الرسالة حين قام أحد الرفاق في المهجع

قطعة من محشي الكوسا. تعرفينه، رفيقنا الدكتور..

يا حبيبتي، رسالتك أنستني الطعام والدنيا وكل ما جلبتموه في زيارتكم الرائعة. مشتاق يا روحي.. مشتاق.. مشتاق. طيفك يلحّ عليّ في لياليّ الباردة والموحشة. أستلقي على فرشتي، أمسك الكتاب محاولاً القراءة، فتقفزين في وجهي، أتخيلك بين السطور، حورية أسطورية تناغي خيالي، أنا البحّار الذي أجوب المحيطات بحثاً عنك. أتذكر أوقاتنا الطويلة في غرفة أتوستراد المزة، شمعتك الأرجوانية تضفي على المكان الصغير والحميم كقلبك مسحة مثيرة. غناء أسمهان من كاسيتك يلفّني ويسكرني مع عسل رضابك وأمداء جسدك الدافئ. أحسّ كل شيء الآن تحت يديّ ولساني وهو يجوس تفاصيلك الفاتنة.

مشتاق يا عيوني مشتاق. كل كلمة.. كل كلمة جلفة أو قاسية قلتها لك في تلك الغرفة تذبحني كل يوم.. كسيزيف أنا يا حبيبتي. هل سامحتني عليها؟ صدقيني أنا أحبك كما أنت تماماً، أحبك عنات بكل تفاصيلك.

(...)[١٧]

حين أتينا إلى هنا حبيبتي من سجن تدمر كنا نشعر بأننا أتينا إلى الجنة. الوضع هنا مختلف تماماً، لكنهم استقبلونا بالتشريفة رغم

بقضم قطعة الكوسا، لتخرج الرسالة الملفوفة بقطعة نايلون شفاف في فمه. أما رسالة جواد هذه فقد خرجت في قطعة شوكولا كروية كان قد أهداها لعنات في الزيارة التالية.

(١٧) الإشارة هذه تعني دائماً أن ثمة كلاماً ممحواً أو غير مفهوم.

ذلك. انهالت أرجلهم وكرابيجهم وعصيهم علينا نحن الثمانية ما إن دخلنا مبنى السجن. ثم وضعونا في مهجع معزول يطلقون عليه: الباب الأسود.

اكتشف رفاقنا زاوية مشتركة بين مهجعهم ومهجعنا. ولساعات طويلة ونحن نسمع صوت طرق على الجدار بآلة حادة. اعتقدنا أنهم رجال السجن يحفرون لشيء ما، لكننا فوجئنا عند الظهر بصوت يهمس لنا من فتحة صغيرة في الجدار أحدثت في الزاوية.

بما أن الثقب كان صغيراً فقد كنا نضطر، الواحد تلو الآخر، إلى الابتعاد عنه كي يستطيع رفاقنا رؤيتنا.

سنوات طويلة مرت قبل أن نلتقي.

تعرفين حبيبتي مرّت ربما أكثر من سبعة أعوام لم ألمح فيها محمود ولا طارق.. يا أللـه يا عنات كم كان لقاؤنا جميلاً. كنت أتوق للمسهم ليس إلا.

على الرغم من أننا بقينا معزولين لشهور في الباب الأسود، إلا أن تلك الفتحة الضئيلة كانت معبراً لكل الأشياء الجميلة: أصوات الرفاق، حبّهم، أرواحهم التوّاقة، أطاييهم، والأهم أنها كانت جسراً إلى الحياة كي لا نشعر بأننا خارجها، خاصة أننا أضحينا هنا في صيدنايا حيث تمور تفاصيل الحياة بكل ألوانها. لا تستغربي عنات وصفي هذا لمعتقل! ربما كان ما أقوله حقيقياً حين أقارنه بالقبور الوحشية التي كانت عليها زنازيننا في تدمر.

ذات مساء وبعد نوم السجانة سمعنا صوت محمود يهمس من الثقب بأن نحضر كأساً ما. حين فعلنا مرر لنا أنبوباً من كيس

سيروم قديم ليسكب منه سائلاً أحمر قانياً.

كان نبيذاً.. تصوري.

بعد خمس سنوات وثمانية أشهر وعدة أيام أشمّ رائحة النبيذ. انتابتني رغبة بالبكاء فداريت عيني عن الرفاق. ليس من المعقول بعد كل ما مر بنا أن أبكي من أجل رائحة النبيذ! كان ضعفاً لن أطيق أن يكتشفوه.

رائحة حامضة لاذعة يشوبها القليل من الحلاوة.

أحد الرفاق كان قد صنعه في المهجع من بقايا العنب الذي أتاهم في زيارات صيف العام الماضي. عبر ذاك الأنبوب شربنا قهوة ساخنة أيضاً ولأول مرة بعد زمن، ثم سكرنا من رائحتها البنية.

تعرفين حبيبتي كانت تشبه رائحتك للغاية.

(...)

أعرف حبيبتي كم تتمزقين خارجاً.. أعرف ما قد تعانينه وأنت فتاة في عزّ أنوثتك. ما كتبتِهِ لي في الرسالة الأخيرة أحسّه بكل جوارحي، وأعيشه معك.

أحلم حبيبتي بذلك اليوم الذي أخرج فيه، وأعانقك بين ذراعي. أشتاقك أكثر مما تشتاقين إليّ، الحياة في الخارج قد تلهيك قليلاً عني، لكني هنا أعيشك في كل لحظة، في كل ثانية، وقد راح الطغاة يبنون بيننا أسواراً وأسواراً..

أحلم بأني سأخرج ونبني معاً بيتنا الصغير، بيتنا الذي يغص بصغارنا

ومشاكلنا وتفاصيلنا وحبي المجنون.

بانتظارك يا حبيبتي في الشهر المقبل. ومنّي قبلة طويلة طويلة قدر لياليّ الباردة بدونك. وأرجوك حبيبتي اكتبي لي، اكتبي عن كل تفاصيلك، كل ثانية من نهارك وليلك.

اكتبي لي عن كل أصدقائك، معارفك، أهلك.. وعن كل ما تفكرين به.

أنا أعيش يا عنات على فتات الحياة التي تهبها لي كلماتك.

جوادك

سجن صيدنايا

١٩٩٢/١١/٢٣

(يا مولاي يا شيخ عبد الرزاق تساعدني..

يا مولاي تجيرني وتخلّي كل هالمصايب تحيد عني.

بشفاعتك يا شيخي يا عبد الرزاق، وبشفاعة الخضر وسيدنا علي.. تجيرني وتحمي بنتي عنات وتنوّرلها طريقها.

بشفاعتك يا مولاي وشيخي...)

كان الهامش الضيق على كتاب القرآن قد انتهى ولم تنه جميلة رسالتها للولي بعد. ذلك أن الهامش كان مثقلاً أصلاً بعشرات الرسائل المكتوبة بخطوط مختلفة، بعضها مقروء والآخر يبدو كأنه مكتوب بلغة غريبة مشفرة.

كانت إحداهن قد طلبت في رسالتها إلى الإمام عريساً لينقذها من

عنوستها القادمة على عجل. لا يهمها صفاته، المهم أن يكون رجلاً، نحيفاً كان أو سميناً، فقيراً أو غنياً، متزوجاً أو غير متزوج.. لا يهم. المهم أن يكون رجلاً فحسب. بشفاعتك يا سيدي ومولاي يا عبد الرزاق.

حاولت جميلة أن تقلّب صفحات الكتاب يدفعها فضولها لقراءة الرسائل التي بعثها غيرها إلى الإمام الشفيع. هوامش الكتاب كلها ممتلئة بالرسائل والدعوات والترجيات. كان أحدهم، أو إحداهن ربما، قد دست صورة ابنه، أو ابنها، في الكتاب. على قفا الصورة مكتوب أنه سافر منذ سنوات إلى لبنان ولم يعد إلى أهله، والرسالة تطلب من الإمام أن يعيده إلى حضن أمه وأبيه.

نصحها مسعود، خادم المزار، بأن تكتب رسالتها على ورقة منفصلة، ثم تدسّها بين طيات الثوب الأخضر المبارك الذي يلتحف به القبر العظيم. كانت الطيات مليئة بالرسائل المطوية المدسوسة والهاجعة بصمت بين الثنيات. وهذا ما فعلته جميلة، أعادت كتابة رسالتها على ورقة بيضاء مسطرة من كتاب مدرسي منتظر على حافة القبر، ثم أضافت جملة أخيرة تطلب فيها من الإمام أن يبعث الحب والسكينة في قلبها الذي يغلي كمرجل، وبعد أن طوت الورقة تذكرت طلباً أخيراً فعادت وفلشت الرسالة ثم أضافت: وبشفاعتك يا سيدي تقرّب من طلعة جواد من السجن. حرام من شان بنتي عنات، والله عم تدوب متل الشمعة.. يا سيدي ويا مولاي. وإذا ما حبيت تطلّعه وأنت العارف المنان أرجوك أن تبعث لها بعريس ينسّيها جواد يا شفيعي.

حين وصلت جميلة المقام قبل قليل خرج مسعود ليلاقيها. عكازاه الخشبيان كانا يضربان الأرض بالوتيرة نفسها التي تضربها بها قدمه

الخشبية، مما يجعله يصدر صوتاً هادراً كلما تحرك أو اقترب. وجهه يسفر عن ابتسامة عريضة.

أتته جميلة العلي وحدها اليوم، لم تكن تريد أن يعرف أحد بقدومها. دعاها مسعود للجلوس على مصطبة خشبية أمام المزار. كانت رائحة البخور تفوح من ثيابه الأشبه بالأسمال. لملمت جميلة أطراف تنورتها الكلاسيكية السوداء تحت فخذيها، وجلست.

ثمة مسجلة عتيقة تلوك أغنية: الحب كله، لأم كلثوم. سمعت جميلة الأغنية نفسها في زيارتها الماضية!

ـ يظهر أنك تحبّ أم كلثوم!!

بادرته محاولة تبديد الارتباك الذي راح يكبّل كلامها. قال العجوز إنه يحب أم كلثوم جداً. حقيقة هو يحبّ ثلاثة أشياء: الله وأم كلثوم ولينين. وافترت شفتاه كاشفتين عن لثة عارية من الأسنان.

مرتبكة متلهفة كانت جميلة. تريد أن تحكي ما أتت لتحكيه، لكنه لم يصمت. أدخلها إلى غرفة المزار لتقوم بالطقوس المفترضة. خلعت حذاءها العسلي، ذا الكعب العالي، قبل أن يدعوها إلى رمي النقود في صندوق الزكاة المعلّق وراء الباب. ثم راح يراقب ورقة الخمسين ليرة راضياً وجميلة تدسّها في فوهة الصندوق. ثم تركها تحاول كتابة رسالة إلى الإمام.

كانت ثمة صورة دون إطار للإمام علي، يظهر فيها محاطاً بهالة نورانية، وبأسماء الأئمة الاثني عشر.

صورة للنبي الخضر، يركب فرسه محارباً التنين.

صورة للإمام جعفر الطيار.

في مستوى أدنى، على الحائط نفسه، صورة للينين! كانت جميلة تعرف تلك الصورة فلطالما استقبلتها وهي تلج غرفة عنات كل صباح.

التقط مسعود الاستغراب الذي لاح في عينيها حين لمحت معرض الصور ذاك. مما جعله يبادر، سعيداً متحمّساً، إلى سرد الحكاية كاملةً وبالتفصيل على مسامعها، وهي نافدة الصبر متلهفة كي يصمت قليلاً لتقصّ ما أتت من أجله.

صورة لينين تلك سبق أن جلبها له أحد الرجال المتنفذين، اسمه: حسين الصالح.

حسين ذاك كان بعثياً، بعثياً بكل جوارحه. أرسلته الدولة في منحة كي يدرس في الاتحاد السوفياتي هندسة الكهرباء. هناك استطاع لينين أن يمتلك ناصية قلبه! أنساه، خلال أشهر، فلسفة ميشيل عفلق ورفاقه، ليظلّ حتى فترة قريبة لا يؤمن إلا بلينين وبالثورة الشيوعية البلشفية. أتى يوم ومرض حسين مرضاً لا شفاء منه، عجز عنه الأطباء جميعاً، حسب تعبير مسعود، وأتى إليه هنا، إلى هذا المزار بالذات.

كانت صلواته اليومية المتتالية، خلعات ثياب الإمام الملفوف بها قبره، الزيت المقدس، وخلواته الطويلة، لأيام ولليال في شتاءات كانون، كفيلة بشفائه.

ـ سبحان الله العلي القدير.. شفي بقدرة قادر خلال فترة قصيرة!!

ـ سبحان الله...

ردت جميلة.

في يوم ما أتاه حسين الصالح وهو يحمل هذه الصورة، صورة لينين. كان ممتناً لمسعود وللمقام الجليل اللذين ساعداه على الوصول إلى رحمة الله والشفاء التام. كان يريد أن يمحو كل ماضيه السابق الأسود بإعطاء الصورة إلى المزار.

ـ ليبارك الله بك وبعلمك، وإن شالله تحمل هذي الصورة لك، كل ما تطلّعت إليها، مباركات كل الذين ساعدتهم وستساعدهم على الوصول.

بعد ذلك لم يعد حسين الصالح شيوعياً.

صار شيخاً مرموقاً في قريته، يؤمه الناس من كل القرى المجاورة ليتباركوا به. فيما بقيت صورة لينين عند مسعود تذكره إثر كل نظرة بالآلاف، وربما بالملايين، الذين عليه هدايتهم بعد وتخليصهم من أسر صاحب الصورة.

ـ هدي الصورة جلبتلي الكثير من السعد.. كأن الله عم يبعت لي من خلال هالملحد كل بركاته.

وضحك مسعود من جديد.

بعد أن بخّرت جميلة غرفة المزار، قرأت دعواتها للإمام ولله، بدأت تسرد لمسعود قصتها. سمعها وهو يغيّر كاسيت الحب كله بكاسيت إنت عمري، ثم بكاسيت الأطلال.

حين أنهت حديثها كانت تكفكف دموعها المنهمرة. ثم أسرّت له بشعورها أن ثمة لعنة ما نزلت عليها، وأنها حاولت، بشتى الوسائل، دفع تلك اللعنة عنها. لكن كل ما فعلته ذهب سدى.

لم يمر أسبوع دون أن تذوّب قطع الرصاص، وترميها في الماء. كانت تؤمن بأنّ طقّة الرصاصة الساخنة في البرودة تدرأ العيون الحاسدة. لكن شيئاً لم يتغير. بيتها يغصّ بالأيقونات، بالحجارة الزرق، وبالأعين الفضية المنقوشة. لم تترك شيخاً في المنطقة سمعت بمعجزاته إلا ذهبت إليه. وتراكمت في أرجاء البيت أحجبة الحب والشفاء، فيما الأمراض تجنّ في جسدها يوماً إثر يوم، والكره يستوطن قلبها وبيتها الذي صارت تحسّه أشبه بقبر.

ـ قبل مدة صرت أتعذب من ضيق التنفس.. ومن ألم في صدري هنا.

وعادت جميلة إلى البكاء.

ـ رسالتك إلى مولانا رح تنقذك أكيد.. ورح حاول أعمل اللي بقدر عليه..

بعد طول أدعية وهمهمات، وبعد أن أشعل الكثير من حبات البخور في قصعته المعدنية، وناجى المزار والمدفون فيه، أوصل مسعود لجميلة ما عليها فعله.

كانت ثمة علبة مغلقة بإحكام فيها وسادة صغيرة مدفونة في مكان ما من بيت أهلها. وسادة سوداء غُرزت فيها إبر ودبابيس، كل إبرة تمثل شراً سيتحقق في العائلة مزروعاً في قلوبهم وفي درب حياتهم كما ينغرس المعدن المدبب في قطن الوسادة. كان عليها أن تنبش

لتجدها، تحرقها، ثم ترمي رمادها في نهر جارٍ وهي تردد:

لتحترق عيونكم الحاسدة كما حرقت هذي الوسادة..

بإذن الله وإمامه العلي..

لتبتعد شروركم عني كما يبتعد ماء النهر الجاري..

بإذن الله وإمامه الجليل.

ظلت جميلة لأسابيع تبحث في حديقة بيت أهلها المهملة عن العلبة. نبشتها كلها.. ولم تجد شيئاً. صار البيت والحديقة عبارة عن خرابة، لكن أية وسادة، سوداء كانت أو ملونة، لم تظهر.

تفكر جميلة الآن أن كل ما يحدث إنما يحدث بسبب كونها لم تجد تلك العلبة، لم تحرق الشرور المستوطنة فيها، فاستوطنت في روحها وحياتها.

على الشباك المطلّ على الزقاق كانت تقف منتظرة ابنتها. ينبغي أن تعود عنات من زيارة جواد في سجن صيدنايا!

لكنها تأخرت كثيراً! تأخرت...

الملفّ الثاني كان بلون رمادي محايد لا يناسب البتة قضية شاب كلداني!

لم يحاول جوناثان تمرير أية ورقة لي. كنت أضعف من أن ألمح الآن أي حرق أو دماء أو ظلال ألم بعيد. المرض واضح على محيّاي منذ الصباح!

راح جو يسرد بإنكليزيته الممطوطة:

Emmanuel Jemmo.. spent 6 years in Saddam – Hussein prisons. He is a chaldean young 30 years old, single[١٨]

(١٨) عمانويل جمّو.. قضى في سجون صدام حسين ست سنوات. وهو شاب كلداني يبلغ الثلاثين، وغير متزوج.

... –

– Saddam Hussein no more exists[١٩]

قهقه جو مداعباً.

But he still exists in his memories, Joe.. missiles – don't kill memories![٢٠]

زمّ فمه متبرماً من مزاجي الصباحي الذي لا يحتمل أية مزحة من هذا النوع.

ودخل الغرفة عمانويل، ذاك الكلداني الساحر.

كأنه يحمل بين قسماته الدقيقة البديعة وشعره الأجعد الطويل الأسود كل حضارة الرافدين التي أنتجته بطريقة ما. شعرت للحظات، تحت تأثير عينيه الواسعتين كعيني غزال شريد، أن الغثيان فارقني وبتّ أفضل حالاً بكثير.

ابتسم الشاب بثقة، وهو يجلس قبالتي، ورمقني بفضول.

كان يرتدي سترة جلدية بلون العسل وقميصاً من الجوخ الحشيشي. يشبه شارل أزنفور بهذه الثياب. فيما أنا غاطسة في سواد ثيابي. كما يقول جو حقاً: صرت أبالغ بلباسي الأسود دوماً!!

---

(١٩) لم يعد هناك صدام حسين بعد.

(٢٠) لكنه ما زال موجوداً في ذاكرته، جو.. ليس من السهل التخلص من الذاكرة بصاروخ!

ـ أهلا عمانويل.. أنا عنات إسماعيل، وسأترجم للسيد المدير كل ما ستقوله بحرفيته. وعليك أنت أن تعرض عليه قصتك، وتقنعه بكل أسبابك ليقبل طلبك للجوء. هو أحد المقررين الأساسيين.. اتفقنا؟

ـ كلدانية؟

سألني عمانويل دهشاً باندفاع مفاجئ وبعربية عراقية.

ـ لا..

ـ آشورية؟

ـ لا!

ـ إذاً.. سريانية.

ـ لا..

أسقط بيد عمانويل.

أردت إخباره بالأمر وما فيه، بأن والدي كان عاشقاً للقوميين السوريين لا غير، لذا سماني بهذا الاسم. وبأنه رغب دوماً في الانضمام إليهم. رغبت لسبب ما أن أحدّثه، ربما كي أطيل التأمل في وجهه البديع الجذّاب، لكن القصة مملّة وليس من ضمن اهتمامات عمانويل بالتأكيد أن يعرفها. كان عمانويل الآن يتوق للرحيل إلى أرض الجدة لا غير.. وفكرت إن كان قد قرأ رائعة ويليم كامو تلك.

ـ أنا سورية عربية عمانويل..

بدت الخيبة على عمانويل، لكنه سرعان ما لملمها وابتسم لجو.

– Well Emmanuel, tell us what you have in mind.[٢١]

قال له جو وابتسم مشجعاً، ليبدأ الكلداني بسرد قصته بإشارات مبالغة من يده اليمنى:

كان فناناً عراقياً يعزف البزق.

ذات ظهيرة شتوية، على مسرح صغير في عيد القديسين في مدينة أربيل شمال العراق، غنّى طويلاً وعزف. كان الاحتفال مناسبة لاجتماع كافة الانتماءات الآشورية من أقليات كلدانية وسريانية ونسطورية، ومن ضمنها وفد لجمعية الشباب السوريين السريان كان مدعواً إلىٰ الاحتفال.

كانت حفلة استثنائية، لم يعهدها أحد من أهالي المنطقة منذ عشرات السنين.

نهاية الحفلة طلب إليّ الرفاق بإلحاح أن أعزف أغنية كلدانية، أغنية واحدة فحسب كنت متقناً لها. فيما الجميع متشوّق لسماع تلك الأغنية، باللغة الكلدانية وعلى الملأ، بعد أن حرمتنا السلطات لسنوات طويلة من المدارس والكنائس الكلدانية ومن جرس اللغة المحبب إلى أسماعنا.

كانت الأغنية تقول:

تعال يا رفيقي كي نغنّي

فإن الأغنيات وحدها التي تجمعنا..

---

(٢١) حسناً عمانويل، تستطيع أن تسرد ما لديك.

ترالالا ترالالا

الأغنيات وحدها توحدنا..

ترالالا ترالالا

فإن الأغنيات وحدها التي تحلّق دون أجنحة

وتذهب إلى من نحبّ.

غنيت الأغنية بكاملها. غنيتها كما لم أغنّها يوماً. الناس يتمايلون أمامي كتلة واحدة، الشموع تتهادى في الظلام المخيّم، ونسيم الليل المنعش يلفح وجهي، يجعلني أنتشي، ويحنّ صوتي أكثر كأنه يناغي البزق في يدي.

كان الأمر أشبه بحلم، أو بحفلة ملائكية، أو.. لا أعرف.

ما إن انتهت الأغنية حتى كان رجال الأمن العراقي قد أحاطوا المكان، مسلّحين كجيش غادٍ إلى حرب. سدّوا منافذ الخروج من المسرح، وأخذوا عشرات الشبان والفتيات الموجودين.

لكني لم أكن معهم!

حبسوني في غرفة من كواليس المسرح طوال أيام دون ماء، دون طعام. بعد ثلاثة أيام طويلة صرت أحسّ بأن حلقي تحول إلى كتلة من الشوك الجاف، وبأني لا أقوى على الحركة.

في آخر اليوم الثالث أتى أربعة رجال من قوات أمن العاصمة، ساقوني، وأنا شبه مغمى علي، إلى سجن المهجر في بغداد..

ـ ...!!

ـ كانت تهمتي، كما فهمت في ما بعد، التحريض على ثورة كلدانية للأقلية.

ـ ..!!

ـ كنت قائداً لثورة شعبية بدون أن أعرف.. واتهموني بالانتماء إلى حزب الاتحاد الديموقراطي الكلداني المحظور.

وضحك عمانويل كاشفاً عن أجمل أسنان رأتها عنات في حياتها. قسمات وجهه بدت أكثر انبساطاً وراحة وهي تترجم لجو آخر الكلمات.

ـ Had you belonged to them?[٢٢]

ـ No... never[٢٣]

التفاصيل في سجن المهجر بكلية تدريب الشرطة، الذي كان مركزاً لتدريب الكلاب البوليسية، جعلت جسد عنات يقشعر رعباً. إنها التفاصيل اللعينة.. التفاصيل.. التفاصيل. على الرغم من اعتقادها بأنها اعتادت على هذي القصص، وتشكّلت لديها مناعة من آلام اللاجئين عبر سنوات من عملها في السفارة.

ليست مناعة بهذا المعنى! إنه تداخل معهم، تمازج، جعلها تتحول يوماً بعد يوم إلى جزء من تلك الحكايات، لا مجرد مستمعة خارجية. كأنها، بترجمة ما يقولون، تعيد تدوين ما عاشوه، أو تعيد

---

(٢٢) هل كنت منتسباً إليهم حقاً؟

(٢٣) لا.. أبداً.

عيشه من جديد بجسدها، بإحساسها، وبثقافتها الخاصة والحميمية. تتحوّل من مترجمة ـ هي في النهاية تعبث باللغة أو تعيد كببغاء قول ما يبدعه الآخرون ـ إلى مشارك في كل تلك الوقائع التي حصلت أو لم تحصل.

ربما كان ذلك الصغير في أحشائها هو من جعلها تشفّ ثانية، تتطهر من ذاكرتها المقيتة، كأنها المرة الأولى التي تجلس فيها وراء هذا المكتب تسمع، ترى، تخاف، ترتعب وترتجف.. جعلها ذاك الصغير، الذي لا يكاد يُرى، تعود صفحة بيضاء! كتلة من طين رخو لم تصلّبه صفعات الآهات الساخنة، ولا الرياح المحملة بآلام أناس أغراب يتوالون على أيامها كقطار محموم لا يرضى التوقف.

يقال إن النساء بشكل خاص كنّ يعانين من أمراض تناسلية مستعصية ونزوفات مستمرة جراء الممارسات التي كانت تمارس عليهن في سجن المهجر. في مرات كثيرة كان صراخهن المستغيث يتناهى إلى عمانويل ورفاقه في الزنزانة مغطياً على نباح الكلاب. فقد كان ثمة ثلاثون زنزانة تحت الأرض وثلاثون زنزانة غيرها مستخدمة كحجرات للكلاب.

لا أعرف لماذا كان يسيطر عليّ هاجس أن تكون أختي إنعام أو أمي مثلاً في إحدى حجرات الاغتصاب تلك؟! وجه إنعام يستفزني مع كل صرخة أسمعها، أرى تقلصات العذاب تشوّه وجهها، تمسخه، وتشكله من جديد، وجه غريب متألم ومُغتصَب.

الكثيرون الكثيرون لقوا حتفهم في السجن، ليدفنوا في مقابر جماعية مرتجلة، قيل إنها كانت تُحفر حول السجن كيفما اتفق.

كانوا يعصبون عيني، يجردونني تماماً من ملابسي، يعلقونني ساعات

طويلة من معصمي، وغالباً ما كانوا يوثقون يدي اليسرى إلى الخلف حتى عطبت تماماً.

صمت عمانويل قليلاً. كانت يده اليسرى هاجعة على حضنه منذ البداية. كيف لم تنتبه عنات إليها!! قد لا يستطيع بعد اليوم احتضان البزق بهذه اليد الميتة.

راحت أمعاء عنات تغلي. غرفة المكتب تمور فيها تاركة إياها تغوص إلى قاعها الفائر كبر كان. التفتت إلى جوناثان حالما سكت الشاب لتعتذر منه عن الإكمال. لقد وصلت إلى الذروة، فإما ستنسحب حالاً وإما ستتقيأ كل ما في جوفها.. هنا على الطاولة. رمقها جو وعيناه تجمعان العتب واللوم والتعاطف. لكنها سارعت إلى الهرب دون أن تلتفت إليه أو إلى عمانويل. كانت خجلة للغاية، وإحساس مهين بالذنب راح يجتاحها عنوة.

لم يفارقها شعور الغثيان ذاك حتى التقطتها حارات المالكي. الجو الربيعي الحار أزاح انزعاجها قليلاً وأعادها كما كانت تقريباً.

إلى البيت انطلقت. كان ينبغي أن تتمدد حالاً في السرير وإلا...

شتاء ١٩٩٣ في بدايته.

يصيح المذيع، ذو الصوت الرخيم، من مسجلة السيرفيس بأسئلته. يجيب ضيفه في البرنامج الإخباري بصوت حادٍّ أقرب إلى الزعيق. البرنامج كان عن الاتفاقات التي أبرمتها سورية وتركيا مؤخراً بخصوص الأكراد ومشاكلهم المتفاقمة اليوم في بدايات عقد التسعينيات.

صوت المسجلة العالي يجعل جو السيرفيس مشحوناً ومتوتراً أكثر فأكثر. السائق يشتم طوال الوقت بالكردية، يبصق كل حين من شباك السيرفيس المفتوح على جنون البرد والعواصف، وذلك على الطريق الصاعدة من بلدة منين باتجاه تلال صيدنايا.

البصاق، الذي يردّه الهواء إلى الداخل أقوى وأسرع، يتلقفه وجه ميّاسة الشيخ الجالسة وراء السائق تماماً.

المذيع يعود ليتحدث عن تأكيد السوريين عدم السماح للأكراد بالقيام بأية نشاطات في سورية، وعن وعدهم للأتراك بملاحقة عناصر الـ P.k.k حزب العمال الكردستاني، والعمل على إيقاف المعسكر التدريبي باسم أكاديمية معصوم قرقاماز في سهل البقاع اللبناني.

الضيف يعاود الزعيق.

شتائم السائق تتصاعد وتتكثّف.

كانت عنات إسماعيل تحاول أن تستمع إلى البرنامج باهتمام على الرغم من اللغط والضجة في السيرفيس. بجانبها على المقعد الجلدي تحتضن ميّاسة ابنتها النائمة، وقد كادت قامة ديانا تجاري قامة أمها الضئيلة. تمسح ميّاسة وجهها كل حين من البصاق، تفرك عدسة نظارتها بمحرمة قماشية زهرية اللون، شاردة في نافذة السيرفيس كانت وهو ينهب الدرب الصاعدة بسرعة عجيبة.

كانت ترتدي قميصاً يعجّ بالألوان من موضة الثمانينيات مهلهلاً على جسدها النحيل، وقد زادته إسفنجات الكتفين هلهلة. شعرها الطويل الأسود يتكئ بجديلة طويلة عليه. ونظارتها، التي وضعتها للتو على عينيها، تغطي معظم مساحة وجهها بإطارها العريض من العظم الأسود.

مظهر ميّاسة لم يتغيّر يوماً! تبدو دائماً امرأة من عصر آخر.

السيرفيس يغصّ بالنساء الذاهبات إلى الزيارة الشهرية التقليدية: ميّاسة وابنتها لزيارة زوجها، أم أسامة وابنها لزيارة زوجها وأخيها، أم الياس خوري لزيارة ابنيها، فلك ومنى وأم محمود و.. كثيرات كنّ.

ـ ما بالك ميّاسة؟

استدركت عنات متأخرة وضع صديقتها الصامتة منذ بداية الرحلة. ابتسمت الأخيرة مومئة إلى أن لا شيء هناك، وعادت لشرودها. هناك شيء ما إذاً. التقطت عنات يدها الصغيرة الهاجعة على ظهر ديانا، ضغطت بلطف عليها متحسّسة العظيمات الدقيقة النافرة.

فكرت أن ميّاسة لا بد تتذكر أختها ضحى. من الممكن أن تكون قد تمنتها معها الآن. من يرى ضحى لن يتخيّل بحال أنها ومياسة أختان. جسد مياسة المتهدّل يقابله جسد مكتنز أبيض يفور حيوية وطاقة، هو جسد ضحى. إنهما مختلفتان بطريقة تثير الاستغراب أحياناً!

كانت مياسة تبدو على الدوام كأنها تجتاف الحياة داخلها. فيما تخرج ضحى كل الحياة التي بداخلها كي تهبها إلى حياة الخارج التي تبدو فقيرة للغاية دون ذلك!

كائن جوّاني وآخر برّاني. كائن يُدخل وآخر يُخرج!

على الرغم من كل ذلك كانت مياسة وضحى أقرب كائنين من الممكن أن يوجدا في الحياة. كأنهما يجمعان ثنائية موجودة في كل واحد منّا، ثنائية كانت ممتزجة قبلاً وانفصلت بفعل طفرة جينية ما. أو ربما كتوأمين سياميين تم فصلهما بعملية جراحية معقّدة، وظل كل منهما يحمل الآخر في تكوين خلاياه.

بعد سنة ونصف من اعتقال إياد الشالاتي وسليمان الأحمد تقدمت ضحى إلى المحكمة بطلب للانفصال عن زوجها. وافق القاضي الشرعي على دعوى التفريق مباشرة، وأرسلت مذكّرة الطلاق إلى

سليمان في سجن تدمر.

تلقى سليمان ورقة الطلاق كأنه يتلقى حكم إعدامه الذي سينفذ بعد دقائق. انهار على باب المهجع، ارتمى بكل ثقله عليه مصدراً دوياً فارغاً. حين ركض إليه رفاقه كان وجهه شمعياً، وضيق التنفس الطارئ جعله يشهق بكل جسده ليصيب نسمة من الهواء الذي انقطع عنه فجأة.

كان سليمان الأحمد يجعر، يضرب رأسه بالباب، يبكي، يئن، ويصيح عالياً كحيوان ذبيح. حين وصل السجانة إلى المهجع كان قد فقد الوعي للتو.

لكن تلك الورقة كانت كفيلة بجعل سليمان يتراجع عن أكثر قراراته ثباتاً: يقبل بالتوقيع على وثيقة بقيت إدارة السجن شهوراً طويلة تقنعه بالتوقيع عليها. تحوّل رفضه القطعي إلى موافقة مفاجئة دون أية شروط!

الوثيقة كانت تقتضي أن يتعهد المعتقلون السياسيون عدم العودة إلى الفعل السياسي المعارض مجدداً، وأن يعترفوا بأنهم أخطأوا بعملهم السري، الذي لم يجرّ البلاد إلا إلى الحروب الأهلية والبلبلة، ومن ثم تابوا.

التوقيع على الوثيقة كان يمنح المعتقل وعداً من السلطات الأمنية بإطلاق السراح المباشر.

إثر تغلغل تلك الوعود انقسم أعضاء الحزب الكثر إلى جبهتين: واحدة مع التوقيع وأخرى ضدها. نشبت حرب لوقت طويل في المعتقل. سليمان، الذي كان من عتاة الجبهة الثانية، انقلب بين يوم

وليلة إلى الجبهة المغايرة! كان يظن أن خروجه من المعتقل كفيل بإعادة الأمور إلى مجاريها بينه وبين ضحى الشيخ، وأن خوف ضحى من غيابه الطويل، الذي كان المبرر الوحيد لطلبها الطلاق، سينتفي في حال خروجه. حينها ستنتهي القصة نهاية سعيدة، مثل قصص الغرام في الكتب، ليعودا معاً ويكملا حياتهما من جديد.

لكن السلطات الأمنية ما كانت لتطلق سراح الموقّعين!

ظل أولئك في المعتقل جنباً إلى جنب مع رفاقهم طوال السنوات الطويلة القادمة، يُجلدون في كل لحظة بشعور مضنٍ بالتخاذل راح رفاقهم يؤججونه في كل موقف وحديث وحركة، يُجلدون بحقيقة أنهم قدّموا كل ما يمكنهم من تنازلات دون أن تبادلهم السلطة بأي مكسب كان.

بعد أقل من سنة ستتزوج ضحى الشيخ. ستصبح خلال أشهر الزوجة الثانية لرجل من أغنى تجار الأقمشة في حلب. تعرّف الأخير إليها حين أتى إلى شركة النسيج حيث تعمل. خلبت لبّه تلك الموظفة الشابة المائرة بالإثارة وهي تتدلّل من وراء مكتبها الخشبي الصغير. جلس قبالتها مأخوذاً بابتسامتها البديعة، بجسدها البض المكتنز، وبذلك السحر الذي يتوهج به المكان بوجودها.

في الزيارة الثانية، بعد أيام قليلة فحسب، طالعته ضحى بضحكة متواطئة ومتدللة كذلك. طلب يدها على الفور. كانت توقّع له أمر الشراء حين سألها أن تتزوجه. ردة فعلها الوحيدة كانت ابتسامة متغلغلة دون أن ترفع عينيها عن الورقة.

لكن ضحى الشيخ لم تتردد البتة.. وتم الزواج في الشهر الذي يليه.

طلاقها أولاً، من ثم زواجها المفاجئ، جعلا مياسة تكفّ عن التواصل مع ضحى، أخرجتها نهائياً من حياتها إثر قرار حاسم وكأنها اقتطعت جزءاً من جسدها ورمته من النافذة.

ـ هناك شيء لازم نحكي عنه؟

بادرتها عنات من جديد فهزّت ميّاسة رأسها.

ـ بعد الزيارة إذاً؟

هزّت رأسها من جديد. كانت تشعر بأن روحها تتدافع عند بوابة حلقها، وتجاهد للخروج. لمَ كان عليها أن تجتاف كل ما يحدث؟ تبقى محتفظة بابتسامة مرسومة على وجهها في كل مكان! كانت ميّاسة ترتعب من فكرة أن يقرأ الآخر ما في دواخلها. تلك الهالة من الغموض الذي يلفّها تبثّ فيها الأمان، فيما يترك الوضوح الأخريات عرضة لكل صنوف المزاودات والثرثرات.

الوضوح يعني التعرّي.

التعرّي يطوّقها بعار قد يدفعها إلى الموت! لا أحد ينبغي أن يعرف بماذا تفكر.. حتى عنات. لا أحد ينبغي أن يعرف بما يحدث. لكنها تشعر بأنها بالون كتيم سينفجر يوماً تحت ضغط ما بداخله. الوحيدة التي عرفت شيئاً جوانياً عنها كانت ضحى. واليوم محتها نهائياً من حياتها! كان يجب عليها فعل ذلك لتظل مقتنعة بأنها على الضفة الآمنة، بأن اعتدادها بنفسها لم تشبْه شائبة، وبأنها تحتقر بشدة ما قامت به ضحى. حتى أنها طردت توأمها الوجداني من أوقاتها وقلبها وعقلها تماماً.

بوابة السجن الرئيسية تقترب.

راحت النسوة يحضرن أوراق السماح بالزيارة ليعرضنها على عناصر الأمن المنتظرين عند البوابة. أما عنات، ككل شهر، فقد كان عليها أن تحضّر هوية ميسون أبو عطا، شقيقة جواد، وورقة الزيارة باسم الأخيرة أيضاً. فالزيارات ممنوعة لغير الأقارب من الدرجة الأولى.

صورة ميسون الغائمة لا تشبهها البتة. كانت تشبه أخاها للغاية! العينان البنيتان ذاتهما، الشفاه الممتلئة والحنطة التي تتمدد على البشرة النقية. وذاك النحول الشديد الذي يجعل عظام الوجنتين والفكّ نافرة واضحة. الفرق أن خصلات ميسون الطويلة الكثيفة تتبعثر على الدوام حول وجهها وعلى ظهرها مظهرة إياها كحورية خارجة من البحر.

ميسون تلك كانت أشبه بحورية سحرية سقطت فجأة في حضن عنات.

ـ مش مهمّ إذا زرته أنا أو لا.. هو يريدك أنت مش أنا!

وتضحك ميسون ساترة فمها بكفها.

ـ الأهم لا تدعي أحداً من أهلي يراك.. على كل لا أظن أنهم سيزورونه قبل الأسبوع القادم.. ولا تنسي.. سلّمي لي عليه.

تقبّلها ميسون ضاحكة، وتهرول إلى داخل المدينة الجامعية قبل أن يغلق الباب. تلوّح لها مودعة، وتكمل هرولتها تاركة خصلاتها الغامقة تتقافز على ظهرها.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، مرّت عينا العنصر المراقب على

الأوراق بآلية معتادة، ثم انطلق السيرفيس من جديد منعطفاً إلى الطريق الصاعدة باتجاه السجن الكبير.

مرّوا بالبوابة الثانية دون أسئلة!

أمام البوابة الثالثة كان عليهن جميعاً أن يترجلن حاملات حقائب الطعام والمؤن والأكياس التي جلبنها كي يتم تفتيشها، بدقّة مثيرة للأعصاب، قبل إدخالها إلى المعتقلين. فيما ركن السائق السيرفيس خارج البوابة بانتظار نهاية الزيارة كي يعود بالزائرات إلى دمشق.

التفتيش الاعتيادي ككل زيارة.

كان على أم أسامة أن تفتح قدر اللوبية كي يقحم عنصر التفتيش عصاه في قلب الطعام. إنه عنصر فتي، تلوح على محيّاه براءة تسم العناصر الجدد، أما صوته فقد كان يشي بقليل من التردد وهو يطلب منها أن تدلق قدر الكبة بلبن في قدر آخر على مهل كي يظهر إن كان السائل نظيفاً أو لا. لكنه حين همّ بتكسير الكبب أمسكت أم أسامة بيده مترجية ألا يفعل لأنها سفحت ساعات وهي تكبكبها. تردد العنصر قليلاً وهو يرمق ابنها الذي راحت الشياطين تقفز من عينيه، ثم تركها متبرماً إلى امرأة ثانية.

كان على عنات أيضاً أن تفلش أغراضها: أكياس الفواكه، طنجرة البيرق، وصحن الزلابية وفطائر المحمرة، أطايب كثيرة ظلت وجميلة تعدّانها ليومين. حتى إن أبا حيان ساعدهما بتقشير البطاطا وتقطيع الفاصولياء. كان عليها كذلك أن تقلّب صفحات الروايات التي قدمت بها صفحة صفحة أمام العنصر.

ليس بعيداً كان ثمة عنصر يتفحّص فخذة الخاروف، التي أتت بها

أم محمود من العيد، كي يتأكد ألا شيء دسّ في أحد جوانبها أو بين طياتها.

ساعة ونصف حتى انتهت حملة التفتيش.

حملت كل منهن أغراضها لتصعد التلة المنحدرة باتجاه البوابة الأخيرة في مبنى السجن. كخيط نمل بَدون، تحمل كل نملة منهن حبة قمح تفوقها حجماً. الأطفال يتقافزون حول أمهاتهم سعداء بلقاء أضحى على بعد أمتار لا غير.

...

في العودة تغير جوّ السيرفيس برمته.

سكتت المسجلة. السائق الذي كان مستفزاً بجنون في الذهاب بدا هادئاً تماماً. كل اللواتي كنّ يثرثرن في المجيء أمسين واجمات. بعض الأطفال كانوا يبكون أو نياماً.

كل واحدة من راكبات السيرفيس كانت تتخبط في أفكارها.

على الرغم من أني كنت موعودة بزيارة خاصة اليوم، أي في غرفة مغلقة ولمدة نصف ساعة، باعتباري كنت أنتحل هوية ميسون، إلا أن خللاً ما حال دون الزيارة الخاصة! لا أعرف حقيقة ما الذي جرى!

كان والدي قد اقتنع أخيراً بأن يتحدث مع قريبه، ذاك الذي يعمل في الجمارك. العميد الجمركي كان سيكلّم الضابط بدوره، وحينها يستطيع أن يحصل على زيارة خاصة في السجن.

كل تلك الترتيبات ذهبت عبثاً!

هيّأت نفسي لتلك الزيارة. ارتديت الجاكيت التي يحبها جواد، جاكيت أشبه بفيلد عسكري يليق بملازم أول في الجيش. وضعت العقد الخشبي الذي صنعه لي أيضاً، كان ملوناً وبحبات كبيرة، وفي نهايته تدلّى اسمي المشغول من الخرز المتراصّ. دلقت نصف زجاجة العطر على شعري ورقبتي. كنت آمل أن أحيطه بذراعي، ولو لثوان، لكن الأمر لم يتحقق. لم أستطع أن أشتمّ ولو نسمة من رائحته. كان مقدراً عليّ أن أشتمها في أحلامي فقط، أو في اللحظات التي تتملكني فيها الشهوة حتى أبدأ باستفزاز لذتي، بإيقاظ أجزائي بأصابعي، وأنا أتنسم رائحته من ذاكرتي.

ككل مرة لم أستطع أن ألمس حتى يديك، جسدك يتقطع إلى مربعات صغيرة وراء الشبك المضاعف الذي يفصل جداريه كوريدور يتحرك فيه السجان جيئة وذهاباً. كان وجهك أشبه بقطع Puzzle، أحسّها مبعثرة مجتزأة وعليّ وحدي أن أركّبها وأنا أستحضرك فيما أنت بعيد دوماً.

صاح جواد أنه بعث إليّ بلوحة. هذا يعني أنه دسّ فيها رسالة بطريقة ما. هززت رأسي:

ـ قطع الكاتو اليوم من صنع يدي، أتمنى أن تعجبك.. وضعتها في طبق الكرتون.

... ـ

كنت أخاف ألا يخطر ببال جواد أني دسست رسالة من ميسون في طبق الكرتون. حاولت أن أزيد الشرح علّه يفطن للأمر، لكن حركة من وجهه وعينيه أسكتتني. كأنه فهم ما أريد أن أقوله! كان عليه أن ينزع قشرة الكرتون كي يرى الرسالة مدسوسة داخل طبقاته المتراصّة.

وأردته أن يقرأ الروايات التي جلبتها له: النخلة والجيران لغائب طعمة فرمان، والمعلم ومارغريتا لبولغاغوف. على إحدى الصفحات بعثت له برسالة، وضعت نقطة سوداء صغيرة تحت كل حرف أردته، كما جرت العادة، وكان عليه أن يلمّ بعثرة الحروف فحسب ثم يقرأ.

رسالتي قصيرة جداً، تبدأ بالألف ثم بالحاء والباء والكاف، ثم الألف والشين والتاء والهاء والياء والكاف. سيستاء من قصرها، سيستاء كثيراً أعرف ذلك، لكني لم أستطع أن أنقّط غيرها، ثمة شيء له مرارة العلقم وقف وقتها في حلقي.

كم هيأت نفسي لكثير من الكلام في هذه الزيارة الخاصة غير المتحققة. خصوصاً أني لن أستطيع زيارته في الشهر القادم. لا يعقل أن أحرم ميسون من الزيارة شهرياً.

الصياح والضجة هما كل ما كان محيطاً بنا.

أم أسامة تجهش، فيما اغرورقت عينا زوجها من وراء جدار الشبك. ميّاسة تقهقه بهيستيرية، وقد بدت أشبه بمجنونة في فيلم مبتذل. العائلات كلها تصيح من جهتي على الشبك، فيما بقية المعتقلين يصيحون من الجهة المقابلة.

صياح.. صياح

صياح منعني من سماع أية كلمة مفهومة خلال حديثنا الذي لم يستمر إلا ثلث ساعة لا غير، راح عناصر الأمن في نهايتها يدفرون المعتقلين ليعيدوهم إلى المهاجع إيذاناً بانتهاء اللقاء.

ربما كان اتكاء جميلة على إفريز الشباك، وجوارحها تندلق إلى الخارج، هو سبب رجوعها إلى كل تلك الأوقات الغابرة.

كانت تنتظر عنات كي تصل.

في وقت ما، منذ ذاكرة بعيدة، كانت تتكئ على شباك المطبخ أيضاً، لكن في بيت أهلها في اللاذقية.

لم تكن قد بلغت الثالثة عشرة يومئذ. تراقب الفتيات قريناتها وهنّ يتقافزن فوق الخطوط المرسومة بالطباشير البيض فوق إسفلت الشارع. تحسّ قلبها يتقافز معهن، يتنقل على الخطوط الطباشيرية، ويزعق لاهثاً.

انقضت أربعون يوماً منذ خرجت لتلعب في الحارة آخر مرة. حينئذ لم يكن قد مرّ وقت طويل على نزول والدها من القرية إلى المدينة،

أشهر قليلة فحسب. أدّى هذا الانتقال، وبعد محاولاتها المتواصلة، إلى موافقته على إكمالها دروس الكتّاب، التي بدأتها في القرية، بالذهاب إلى المدرسة.

ها هي اليوم تستمتع بالمريلة السوداء، التي تزنّر جسدها راسمة إياه بحدود متزنة، وبمجموعة الكتب التي تضمّها إلى صدرها. تتهادى في الشوارع المدينية المفضية إلى مدرسة الفتيات في آخر حي الشيخ ضاهر المتصل مع شارع مار تقلا.

قطعة الأرض الصغيرة، التي سبق أن حصل عليها والدها إثر الإصلاح الزراعي في ١٩٥٨، عادت إلى سالم آغا من جديد، ذاك الإقطاعي الذي طالما عمل والدها لديه. خصوصاً أن حكومة الدواليبي صادقت، قبل أشهر قليلة، على المرسوم الذي قضى بإدخال تعديلات على قانون الإصلاح الزراعي، وشرع الإقطاعيون إثر ذلك ينتزعون الأراضي التي سبق أن حاز عليها الفلاحون.

ما كان من والدها حينذاك إلا أن هجر القرية والتجأ إلى اللاذقية.

وهي تتكئ على إفريز الشباك، تراقب رفيقاتها حاسدة، كان الشيوخ في الداخل يعدّون العدة للمباشرة بذكرى أربعين أختها سنية. يختلون في غرفة المعيشة حيث أعدّت أمها جلسة مرتجلة وطاولة خشبية نظيفة هجعت سكين الذبح عليها منتظرة انتهاء صلاتهم كي يذبح القربان إيذاناً ببدء طقوس الأربعين.

الخروف، الذي ربط بجانب باب المطبخ، يصمّ المكان بثغائه الخائف.

لماذا يلاحقني شبحك الآن يا سنية؟!

لا أذكرك إلا كحلم! أخت تكبرني بسبع سنوات لا غير. توفيت وقت انقلبت الحافلة، التي تقلهم من الرقة إلى اللاذقية، عند أحد المفارق. انقلبت الحافلة فحسب.

لم يمت أحد من ركاب الحافلة إلا هي! كأن جسدها الأثيري الرقيق لم يكن قادراً على تحمّل أي تعب إضافي، حتى لو كان انقلاب حافلة. كانت سنية حاملاً في شهرها الخامس.

الصغير مات أيضاً في أحشائها.

لم يقدّر لي أن أرى ابنك يوماً يا سنية. تكفيني ابنتك صباح. لو تعرفين أنك لم تكوني سوى وبال عليّ وعلى حياتي برمتها.

لكن لمَ تحاصرينني الآن؟!!

كانت الاضطرابات، وسنة ١٩٦٢ في بداياتها، تعمّ اللاذقية كما معظم المدن السورية الأخرى. مظاهرات تطالب بإعادة الحكومة المدنية التي طوّح بها الانقلاب العسكري. متظاهرون يطالبون كذلك بالعودة إلى الوحدة السورية المصرية!

الأصوات تصلها بعيدة مبهمة وهي تقف على شباك المطبخ، لا تعرف إلى متى ستنتظر حتى يسمحوا لها بالخروج إلى الحارة، وباللعب، ومن ثم العودة إلى المدرسة. حينها لم تكن تعرف السبب الكامن وراء سعار الشارع اليومي.

جموع الرجال والنساء تهتف وقبضاتهم عالية مضمومة. زعيق بعيد وزوج سنية حسن يبكي منذ أربعين يوماً وحتى اللحظة، حتى أنه لم يشارك في أي حدث من الأحداث السياسية الحامية هذه الأيام، هو

المتحمس دوماً للسوريين وللقومية السورية. المذياع ينقل أخبار القلاقل، وحسن في الغرفة يبكي، أو يشرد، أو ينام ساعات متواصلة يبدو أن لا نهاية لها وهو غارق في دنيا أخرى.

أستغرب دوماً، كلما أدخلت إليه كأساً من الشاي أو قصعة الحساء، كيف هامت سنية الفاتنة بحب هذا الشاب النحيل الأسمر، بشفته القبيحة كشفة أرنب، الذي يبكي كامرأة ثكلى.

دعوا مقلتي تبكي لفقد حبيبها(٢٤)

حفظت قصيدته أنا التي أعجز عن حفظ تاريخ مولدي.

بمن لو رأته القاطعات أكفّها

لما رضيت إلا بقطع قلوبها

حفظتها وهو ينشجها أمام والدي ووالدتي. كان يمرغ وجهه بالشرشف الذي غدا غارقاً بالبلل، يشهق بصوت كالجعير، ويضرب رأسه بالعارضة المعدنية.

يومذاك خرج والدي متجهماً يطوّح برأسه، فيما دخلت أمي في نوبة بكاء صامت وهي تستر فمها بطرف منديل رأسها الأبيض.

لماذا أحببتِه؟! لماذا أدخلتِه عنوة إلى حياتنا؟

حين كان الشيوخ يصلّون على جثمان سنية الشاب، حول حفرة القبر، كانت النساء كالعادة خلف الرجال ينزوين مجللات بالسواد

---

(٢٤) قصيدة لديك الجن الحمصي.

ومناديل الرأس البيضاء، مرغمات على الاكتفاء بالنشيج المكبوت تحت السنديانة القريبة، لأن سماوية استرسال صلاة الشيوخ لا ينبغي أن يقلقها صراخ النسوة، حسبما كان يهدد رجال العائلة، ستصل إلى مسامع الخالق حينها مشوشة غير صافية.

الجميع خضعوا لتلك الاعتبارات إلا حسن. كان دوماً خارج كل تلك الاعتبارات: نصفه العلوي في الحفرة، ونصفه الآخر ملقى على الأرض، ينشج صائحاً مناجياً حبيبته التي توفيت وهي لم تبلغ عامها التاسع عشر بعد.

كنت أراقبه من وراء الجموع.

شزرات الرجال وهمس النسوة من تحت السنديانة تؤيد شيئاً واحداً: هذا المسمى حسن لم يخلق فعلاً لعائلة مشايخ. مسكين والده الشيخ، ابنه البكر لا يملك شيئاً من وجاهة العائلة المقدسة ولا من هيبتها! مستعد لأن يعفّر ثيابه بالتراب من أجل امرأة تُدلّى إلى حفرة قبرها.

حين بدأ الشيخ الأكبر يتلو أدعيته صرخ حسن:

يا قبر فاطمة[٢٥]..

زجره والدي الواقف قربه رامقاً الجمع بارتباك.

لكن حسن صار يصرخ بصوت أعلى: يا قبر سنية الذي ما مثله قبر بطيبة طاب فيه مبيتا...

---

(٢٥) قصيدة لديك الجن الحمصي.

أمسكه ثلاثة رجال، وشحطوه بعيداً عن القبر. بعضهم راح يهمس بأن هذا الشاب مجنون ولن يتأخر حتى يلحق بزوجته. كان يصرخ ماداً يديه إليكِ، والأرض الترابية تخطّ مكان قدميه المتشنجتين درباً طينية لزجة.

أحسدك أحياناً سنية! رغم أن عظامك تحولت الآن إلى رماد! أن يعشقك رجل كما عشقك هو أمر لا يحصل مع الكثيرات. إنه يحبك حتى اللحظة.. تصدقين؟! ببساطة لم يكن زوجك يريد أن يصبح شيخاً. ترك ذاك المجد لأبيه وأخيه الأصغر ليشبعا به، ثم غادر القرية نهائياً، وذهب ليعلّم الصغار اللغة العربية في الرقة. لم يحمل معه من إرث العائلة إلا لقبه: أبا حيان. وحقيقة لا أعرف سبب هذه التسمية، كرهتها دوماً، ولم أنادِهِ بها ولا مرة.

لسنوات طويلة حاول والدي إقناع نفسه بأنه طيش شباب، وسرعان ما يعود الصهر إلى رشده. أمل طويلاً أن الحلم الأثيري، الذي كان يداعب خياله، سيتحقق، ويعود حسن شيخاً جليلاً استكمالاً لمصير السلالة المباركة.

لكن حسن لم يكن يريد إلا أن يصبح معلماً، يكتب الشعر، ويعشق سنية حتى آخر يوم في حياته. هذا ما كان يردده أمام والدي الذي يستغفر ربه من وقاحة هذا الجيل اللامتناهية.

تعرفين، اليوم لا أتذكر منك إلا شيئاً واحداً!! شيئاً ظل محفوراً فيّ على الرغم من أني لم أكن قد بلغت السابعة بعد، على أبعد تقدير، حين ركبتِ على فرس بيضاء، ورحلتِ مع حسن في ليلة صيفية مقمرة والزغاريد ترافقكما:

عينان خضراوان بلون الفستق تجللهما رموش سوداء فاحمة كالليل.

ما عدا ذلك فأنت مجرد شبح! سافرتِ إلى الرقة حيث كان حسن يدرّس طلاب الصف الخامس الابتدائي الشعر العربي، ولم تأتي إلى البيت إلا مرتين أو ثلاث مرات طوال سنوات زواجك الخمس.

وهي تراقب المارين في الزقاق منتظرة عنات، كانت جميلة العلي تستعيد ذاك الصباح البعيد من يوم جمعة ما.

كان بعيداً بعيداً كغيمة مارقة.

لا تعرف حقاً إن كانت تفاصيله حقيقية أو يوشّيها كابوس مرّ عليها ذات ليلة، أو ربما حلم حفر في مكان ما من ذاكرتها. صياح صبايا الحارة يتناهى إلى مسمعها وهي في المطبخ تقشّر البيض المسلوق، تغسل قطفات البقدونس البلدي كي يتناول كل ذاك العدد المهول من الضيوف فطورهم الصباحي للبدء بطقوس الأربعين.

كانوا أشبه بقبيلة تحطّ رحالها في الصالون، فيما قلبها هناك يتقافز مع الصبايا الصائحات في الحارة.

ـ يا مو.. بدي إلعب مع رفيقاتي بالحارة..

ـ ...

تعبير وجه الأم من تحت منديل رأسها الأبيض كان ينبئ بزفة أخرى ساخطة من طلب جميلة المتكرر. توقعت جميلة أن تسمعها الجمل ذاتها، عن كونها كبرت على اللعب في الحارة، وأن بنات الحارة المسيحيات لا يهمّهن لكن هي.. ما الذي سيقوله أحد أقربائهم إن لمحها تتقافز في الحارة مثل السعادين أو الساقطات!! ثم إنّهن جميعاً يبدون طفلات بأجسادهن النحيلة القصيرة، فيما تبدو جميلة امرأة

صغيرة ونهداها يتقافزان في فستانها القطني كفأرين صغيرين يتلاعبان لم يحدّهما بعد أي ستيان.

ثم إن أربعين أختها لم ينقض بعد.

لكن الأم حملت صينية القش المترعة بصحون اللبن والبيض والشنكليش وكؤوس الشاي، ثم أدارت وجهها إلى جميلة قبل أن تخرج:

ـ طيب.. ما تتأخري.

كم كانت تلك الكلمات القليلة قادرة على خلق دوامة فرح في عظامها! بمشايتها البلاستيكية الزرقاء وفستان البيت الرمادي، ذي الزهور الوردية، خرجت جميلة تهرول من المطبخ مطوّحة بين غرف البيت لاهثة كي تصل الحارة.

في الكوريدور كان ثمة همهمات متعالية تخرج من الغرفة الموصدة! همهمات أثارت رعبها، جعلتها تتسمّر مكانها منصتة وكأنها تستمع إلى غناء الأشباح في منتصف الليل.

انفتح الباب الموصد بشكل مفاجئ.. خرج منه شيخ كبير يرتدي عمامة بيضاء ورداءً طويلاً أبيض، بدا كمارد أسطوري انبثق في وجهها فجأة. صرخت مرتعبة وهمّت بالهرب. لكنه صاح بها كي تقف، وطفق يصيح منادياً أهل البيت.

ـ البنت سمعت الصلاة..

ركض الجميع إلى الكوريدور، واجتمعوا أمام باب الغرفة. ترك بعض الشيوخ الغرفة ووقفوا بالباب أيضاً. والدتها أتت وهي تهرول هلعة،

فيما أمسك والدها بتلابيبها وراح يكيل لها الصفعات دون توقف، على وجهها ويديها ورأسها، وهي تتلقفها مستسلمة لا تجرؤ على الصراخ أو إصدار أية نأمة. دموعها فقط كانت تسحّ بصمت.

ـ خلص.. حرام! سمعتها بدون قصد، كانت تركض وقت طلعت أنا من الغرفة.. اتركها. سنتدبر الأمر.

انصاع الوالد لأمر الشيخ. ترك جميلة الباكية، ثم همس في أذنها بأنه سيلقنها درساً لن تنساه حالما تنتهي طقوس الأربعين. ومضى بعد أن رمقها شزراً جاعلاً ركبتيها ترتجفان بانتظار العقاب القادم.

إثر ذلك، راحت أمها تبخّرها في المطبخ. رمت حبات البخور في القصعة المعدنية، وطفقت تدور بها حول رأس جميلة، وحين كادت الأخيرة تختنق من السعال، والغمامة البيضاء الكثيفة تلتهم رأسها، أبعدت الأم المبخرة.

ـ ادعي لله ما يخليك طرشة.

وخرجت من المطبخ.

أما الشيوخ فقد أغلقوا الباب عليهم، واستعدوا لإعادة صلواتهم منذ البداية.

كل ما حدث لم يجعل جميلة تنسى رغبتها الملحة. لم تفكر بالصمم الذي يتهددها الأولياء به إن سمعت الصلاة السرية، لم تهتم إن كانت كل عاهات الأرض ستستوطنها، كانت تفكر باللعب على الخطوط الطباشيرية لا غير.

كفكفت دموعها، رشقت وجهها بالماء، ثم اندفعت إلى الحارة من

فورها. استقبلت قبلات رفيقاتها بلهفة وبدأت القفز فيما جديلتها الشقراء الطويلة أشد حماسةً منها وهي تتطوح فرحة على ظهرها.

لم يطل الوقت.. نادتها أمها من شباك المطبخ. كان هناك شيء غريب في عينيها لم تفهمه جميلة!! وعلى باب المطبخ تلقفتها قائلة إن الكبار اتفقوا، وإن الله خلقها لمصيرها السعيد، وإنها ستصبح اليوم زوجة ابن مشايخ شاب.

ـ يمكن اليوم عم يشتغل معلم!! لكن الله رح يهديه بكره وبيحطّ عقله براسه ويروح ليتسلّم المشيخة عن أبيه..

ـ مين؟!!

كانت جميلة ذاهلة.

ـ حسن.

همست الأم مترددة جذلة وهي تربّت على كتف صغيرتها، فيما ظلال دمعة أحستها جميلة تجوس في عينيها الواسعتين السوداوين.

ـ عمي حسن!!!

ـ حسن يا مو حسن.. لا تقولي عمي.

ـ بس.. يا مو أنا..

ـ بعرف حبيبتي.. ثم صباح ابنة أختك المرحومة ما لازم تربيها امرأة غريبة.. أنت خالتها ورح تكوني مثل أمها بالضبط.

ـ صباح ابنتي؟!!.. يا مو أنا..

ـ يا مو أي امرأة أب رح تكون قاسية عليها. أنت مثل أمها.. الله يرحمها.. يا الله حبيبتي، الكبار قرروا ونحن علينا أن نطيع.

ـ يا مو...

لم تزد الأم ولا كلمة، ولم تستمع لأية كلمة. استعجلت جميلة كي ترفع الفطور، وذهبت لتكفكف دموعها في الغرفة، دموع الفرح والأسى، كان شعورها مختلطاً وغريباً ذلك اليوم.

يومذاك غامت الدنيا في وجه جميلة.. تتزوج!! هذا يعني أن لا ذهاب إلى المدرسة بعد اليوم، أن لا لعب في الحارة، وكل ما سبق وحلمت به سيدفن في بيت غريب في الرقة مع رجل مقرف لديه شفة أرنب ويبكي على الدوام.. يا للمصيبة.

لكن مراسم الفرح كان ينبغي أن تنتهي بسرعة، ذلك أن حسن بات مهدداً بفقدان وظيفته إن هو تغيب عن المدرسة بعد. لذا رتبوا احتفالاً بسيطاً حضره الشيخ والأسرة فحسب. لبست جميلة فيه ستياناً جديداً أبيض بزنار من الدانتيلا، للمرة الأولى ترتدي الستيان. كان يضغط على صدرها ويوشك أن يخنقها. فوقه ألبستها أمها فستاناً ورديا كان لسنية يوماً ما، ووضعت لأول مرة في حياتها صباغاً أحمر اللون على شفتيها، وكانتا رقيقتين للغاية.

منذ الصباح استسلمت لدعكات الليفة الخشنة على ظهرها الذي راحت والدتها تقشّره صامتة.

لمحت يومئذ قطرات على وجنتيها، ظنتهما من بخار الحمام، ولم يندّ عن الأم همسة، كما أن جميلة لم تسألها أي سؤال.

وماذا ستسألها؟!

ماذا يعني أن تتزوج حسن؟ وكيف تتزوج المرأة؟!

هل الأمر مؤلم أم لا؟! وما الذي عليها فعله؟!

حين راحت الأم تجفّف جسد ابنتها، سألتها الأخيرة سؤالاً واحداً فحسب خطر فجأة ببالها:

ـ يا مو.. الرقة متل اللاذقية؟

ـ ...

لم تجب الأم.

حين كانت تلبسها ثيابها الداخلية البيضاء، وتمشّط شعرها الأشقر الطويل، قالت إنها تريدها مطيعة لزوجها وألا ترفض له طلباً، وألا تعمل على إذلال أهلها بتصرفات طائشة، وأن تحبّ بيتها كي يكون والداها فخورين بها.

ذاك المساء دخل حسن إلى غرفة النوم.

كانت جميلة تنتظره على حافة السرير حيث قالوا لها أن تنتظر قدومه.

يشبه عمي حسن إياه.

فكرت جميلة وهي تراقب شفة الأرنب التي بدت أكثر وضوحاً وهو يزمّ فمه، فيما عيناه مغرورقتان بالدموع.

جلس بجانبها، ضربات قلبها تصل إلى مسامعها واضحة، والسرير

ينتفض تحتها. أمسك بيدها ناظراً في عينيها، كانت عيناه متورمتين من البكاء المتواصل طوال السهرة. قبّلها على جبينها الحار، وكانت رائحة التبغ تعجّ من حوله. ربّت على كتفها كما كان يفعل دوماً في زياراته القليلة مع سنية، ثم استلقى على السرير ساحباً كيس التبغ من جيب بنطاله، لفّ سيجارة نحيلة، مجّها حتى آخرها، وبعد دقائق غطّ في نوم عميق.

في تلك الليلة لم يغمض لجميلة جفن. انسلت صباح، ذات الأعوام الأربعة، إلى سريرها لتغفو باطمئنان بين أبيها وخالتها. تلك الليلة أيقنت جميلة أن هذا الرجل لن يكون يوماً ذاك الفارس الذي تمنته، سيظل مهما حصل عمي حسن ليس إلا. وهذي الطفلة لن تكون في يوم ما ابنتها. إنها بعيدة بعيدة، عيناها المنسوختان عن عيني أمها تبحلقان فيها بتحدٍّ وتشفٍّ. عينان خضراوان بلون الزيتون ومكحّلتان بكثافة رموشهما السوداء، كأنها تقول لها أنا لم أغب، أنا سنية وما زلت هنا ولن تأخذي رجلي يوماً. صباح تلك، بدت لجميلة في ذاك الصباح أشبه بشيطان قفز فجأة من جرّة قديمة مدفونة إلى وسط سريرها.

لمَ تتذكر كل ذلك الآن؟

تأخرت عنات. كان عليها أن تعود من الزيارة منذ زمن وتطمئنها! تأخرت عنات تاركة الذاكرة تسحب أمها إلى مناطقها المظلمة والرطبة التي تفوح منها روائح العفن والرطوبة.

أيام عشرة مرّت على الزواج قبل أن يقبّل حسن شفاه جميلة. كانت قبلة خاطفة لم تتكرر، أحسّت إثرها بغثيان مفاجئ على الرغم من أنها لم تتحسس تفاصيل شفتيه ولا ذاقت لعابه.

بعد أسابيع طويلة تمدد حسن فوق مساحاتها طالباً منها برقة أن تفرج ما بين ساقيها.

كان عمي حسن يطلب وعليها التنفيذ.

حاول يومها جاهداً أن يجعل جسد جميلة، الندي غير الناضج، يتحول من قطعة خشب متيبسة إلى جسد متوفز حيّ تحت ملمس أصابعه. لكن محاولاته كانت عبثاً! أصابعه تجافي جلدها، وقد بدا واضحاً أن جميلة لن تكون حبيبته سنية يوماً. لن يستطيع إشعالها بجنون المتعة على الرغم من عينيها اللتين تنظران إليه من الغيب.

بلل عضوه بلعابه غير مرة حتى استطاع أن يلج معبرها الجاف والضيق منزلقاً بصعوبة، حاول أن يتناسى تأوهات ألمها التي راحت تزداد احتجاجاً جاعلة إياه يهمد بعد أن افترعها بثوان دون أن يبلغ اللذة.

بعد ستة أشهر ستفاجأ جميلة ببقع دماء على كيلوتها الأبيض. لثوانٍ اعتقدت أنها كالدماء التي سالت أول مرة ولجها حسن، لكن الألم كاد يمزق أسفل بطنها، بينما بقيت الدماء تسيل طوال اليوم مضمخة قطعة قماش مقصوصة من منشفة عتيقة كانت قد دستها في سروالها الداخلي القطني.

كانت تنزف دون أن تعرف السبب!

كانت تتألم دون أن تعرف ما الذي ينبغي فعله سوى البكاء حتى عاد حسن من المدرسة ورآها في المطبخ على هذه الحال.

ـ ألم تقل لك أمك؟

ـ عن ماذا؟

ـ هذه يسمونها الدورة الشهرية جميلة.. لا تخافي ستأتيك كل شهر تقريباً حتى تصبحي فوق الأربعين.. لا تخافي.

ـ ...!!!

وضمّ رأسها الذي راح ينتفض ناشقاً دموعه.

كانت جميلة ممتنّة ليد عمي حسن وهي في أمسّ الحاجة إليها. لم تكن تدري أن حسن يعاتب نفسه في تلك اللحظة بشدّة وصمت: كان عليه أن يعرف حين تزوج جميلة أنها لم تكن قد بلغت بعد.

لمَ تتذكر الآن كل ذلك؟ لمَ؟

تأخرت عنات.. تأخرت كثيراً!.

عنات يا حبيبتي:

بعد أن وصلتني رسالتك الملتهبة[٢٦] اضطررت إلى القيام بشيء طالما كنت أكرهه: أن أرصّ ورق الشاي المستعمل سابقاً والمجفف، ألفه بورق سجائر وأدخنه.

لم يبق لدينا تبغ.. آخر حفنة تقاسمناها منذ أيام، ولم تكفِ إلا لثلاث سجائر رفيعة. أصاب واحدنا مجّة أو مجّتين بأحسن حال.

---

(٢٦) بعثت عنات إسماعيل الرسالة في شمعة مصنوعة على هيئة قلب أرجواني. فيما استطاع جواد أبو عطا أن يبعث الرسالة إلى الخارج في لوحة حرق عليها صورة عنات وهي ترتدي قبعة قشية وتضحك.

الجيد في الأمر عزيزتي أنه ما زال لدينا ورق سجائر. لو لم يبق لكنا قد اضطررنا إلى تدخين الشاي في ورق الجرائد. كثيراً ما فعل الرفاق ذلك. رائحة تبغ الشاي لا تشبه رائحة التبغ أبداً. رائحة أشبه بحرق الزبالة في حاويات القمامة. تصدقين أني اشتقت لهذه الرائحة المقززة!!

بعد أن انتهيت من رسالتك رميت نفسي بينهم، ورحت أعبّ من السجائر المفترضة وأعب حتى كدت أختنق.

(...)

أشتاقك يا حياتي...

الشهر الماضي نقلوني لمدة أسبوعين من مهجع الرفاق إلى مهجع سجناء بعث العراق في الطابق الأسفل. كان عقاباً قاسياً، كأني انتقلت من زمن إلى آخر. لكن الرفاق في الأعلى عملوا على نقل كل شيء إليّ عبر السلّم. والسلم حبيبتي حبل ثخين يدلّونه من المهجع الفوقاني إلى التحتاني، عن طريق النوافذ العلوية في المهجع، وعبره ينقلون كل ما يخطر ببالك، من النبيذ المصنّع في السجن إلى القهوة الساخنة، إلى الكتب، إلى رسالة يومية ممنهجة فيها كل ما يحدث في الأعلى بالتفاصيل المملة ليظل المنفي، مثلي أنا، على تواصل دائم مع رفاقه.

بعثوا إليّ أيضاً كتاباً ترجم حديثاً لإيزابيل أللينديي، اسمه: باولا.. إنه اسم ابنتها حبيبتي. كتاب مؤثر أتمنى لو تستطيعين قراءته، فقد قضيت معظم وقتي في (المنفى السفلي) وأنا أقرأه.

في الأعلى توجد مكتبة ضخمة في الممر الفاصل بين المهاجع. مكتبة

مفهرسة ومنظمة. لولاها لكان المعتقل أقسى بكثير مما هو عليه الآن. أشعر بأني أخرج من بين هذي الجدران الرطبة المميتة حين أمسك بأحد تلك الكتب.

تعرفين.. للكلمات قوة سحرية يا حبيبتي.

(...)

حبيبتي: أتخيلك وأنت تضعين الآن في يدك اليمنى الرائعة المحبس الذي صنعته. أنا أضعه أيضاً لكن في يدي اليسرى؛ أقرب إلى قلبي يعني. هذا المحبس حبيبتي صنعته من مقطع في عظمة، ظللت أكثر من شهر أحفره لأستطيع أن أشكّل حرفينا عليه. شهر كامل وأنا أتخيل إصبعك الفاتن مطوقاً بخاتم طالما لمسته وعصرته بين أصابعي وكأني أعتصرك أنت بينها.

الأقراط أيضاً أريدك أن تلبسيها. ظللت طويلاً أتخيل، وأنا أحفرهما، كيف سيتكئان على عنقك المغوي، ويقبلانه مقتربين ومبتعدين عنه كعاشق. ربما يستطيعان أن ينوبا عني بقبلهما.

في زيارتك الماضية أحسست وجهك مختلفاً عنات، كان متعباً، ويداك ترتجفان من وراء الشبك. كما أنك لم تتحدثي إليّ إلا بكلمات قليلة، والأشهر الثلاثة الماضية انقطعت عن الزيارة! ما الذي يحصل معك حبيبتي؟!

لم تكتبي لي منذ فترة!!

أحسّ بأن الحياة خارجاً تأخذك يوماً عن يوم. أكاد أجن وأنا أتخيل أن الحياة تمضي دون أن تكوني فيها. وأجن حين أتخيّل العكس؛

يعني أن تكوني بقلب الحياة، وتبتعدي عني شيئاً فشيئاً، أنا المثبّت في الزمن، البعيد الذي ينأى يوماً عن يوم، كأنه فأر تجارب جمّد في أنبوب اختبار عملاق وقد راح الجليد يخرّب دماغه وروحه وخلاياه.

عنات يا روحي اكتبي لي أرجوك.. دعيني أتخلص من وساوسي ومن جنوني.

اكتبي لي كل يوم.. كل ساعة.. ولا تدعيني أتمزق في أفكاري التي تذهب بي أبعد فأبعد.. أحبك عنات..

أحبك

أحبك

...

سجن صيدنايا

١٩٩٦

أخيراً نامت ديانا.

تنفست ميّاسة الصعداء وهي ترمي بنفسها على الأريكة.

كانت محطة تلفزيونية أردنية تعرض برنامجاً عن مشكلة المياه الإقليمية بين الدول الثلاث: سورية وتركيا وإسرائيل، وسنة ١٩٩٣ ابتدأت بالمشاكل.

ميّاسة ابتدأت حديثاً ما لم تسمع منه عنات شيئاً. كانت حواسها كلها معلّقة بفم ذاك الخبير الأردني وقد راح يفلسف أبعاد المشكلة التي وصفها بالخطيرة للغاية.

ـ عنات.. عنات ألا تسمعينني؟.

ـ لحظة!

يبدو أن ميّاسة أسقط في يدها، فذهبت لتعدّ شيئاً ما في المطبخ.

منذ وصولها راحت ميّاسة تبحث عن مكان للوحة الجديدة، كانت بحجم الكفّ نقشت عليها بالحرق صورة لديانا وهي تطوّق عنق والدتها.

ـ صنعها واحد من رفاق إياد جوّا.. وأهداها إليّ.

همست ميّاسة بعد أن أخرجت الرسالة الصغيرة الملفوفة بكيس نايلون والمحشورة بين طبقتي الخشب المتلاصقتين بشكل بالغ الدقة. كان عليها أن تغيّر من ترتيب الصور على الحائط الضيق كي يتّسع للوحة الجديدة: حصان عبد لكي، صورة لغيفارا وهو يدخن سيجاره، رسم لناجي العلي، وصورة فوتوغرافية بالأسود والأبيض لماو تسي تونغ وهو يهزّ إصبعه عالياً.

حائط يساري بامتياز. كل مدة تضاف إليه لوحة أو صورة، فمنذ أيام وصلتها هدية، كانت بالنسبة إليها أغلى من الماس، تمثال صغير من الغرانيت الكحلي لماركس، وضعته من فورها على التلفزيون.

لم يتأخر البرنامج. كان على عنات أن تلحق برفيقتها إلى المطبخ. هناك وجدت ميّاسة تقطّع البندورة وهي تكفكف دموعها.

ـ شو في ميّاسة؟

اقتربت من ورائها، احتضنت جذعها النحيل الملفوف بروب نوم قطني بلون أحمر حائل، أضلاعها الناتئة كانت تميد تحت كفي عنات. للحظة شعرت بالذنب حين لم تستمع لها قبل قليل. وأجهشت ميّاسة في بكاء أشدّ كأنها تنتظر لمسة.

كانت تريد أن تقول لها أفتقد ضحى.. أفتقدها حدّ الجنون! ولديّ رغبة أن أرمي بكل قراراتي ورائي، ألحق بها إلى حلب، أرتمي بين ذراعيها الحنونين وأرتجف ملاصقة لقلبها. أفتقدها.. أفتقدها.

لكنها بدلاً من ذلك همست لعنات: تعبت.. تعبت.

تعبت! أعتقد أنها ستكون قد قدّت من صخر لو لم تتعب. بالطبع تعبتِ، هذا أمر مفروغ منه.

ـ إلى متى سأنتظر عنات.. إلى متى؟!؟

ـ ...

كان جسد ميّاسة يرتجف بكليته بين ذراعيّ وقد فاض بما راكم. ربما كانت رؤية إياد اليوم من وراء الشباك هي التي فجّرت كل شيء.

ـ وما الجديد اليوم؟ كل شهر ترينه بالطريقة نفسها!

ـ تعبت.. تعبت.. لم أعد أستطيع أن أتحمّل.. واشتقت له.. اشتقت له كثيراً.

...

حين اعتقل إياد الشالاتي كانت ميّاسة حاملاً في شهرها السادس. اليوم بلغت ديانا العاشرة. أكثر من عشر سنوات مرّت، قضت ميّاسة منها ثلاثاً في زنزانة مشتركة في أحد أقبية فرع الأمن.

أنا أكبر عنات، أكبر وحدي.. ديانا تكبر أعباؤها وأنا وحدي دون رجل. أعمل كدابة، وأعود ليلاً لأرتمي في فراشي وحدي. وأنا.. لا

شيء تبقّى إلا الانتظار، ولا أعرف إلى متى! والله لو أعرف أني سأنتظر عشرين سنة لبدا الأمر أهون، ستكون هناك نهاية للنفق. لكن على هذه الشاكلة الموضوع عبثي.. عبثي عنات.

ـ ...

ـ انظري.. انظري عنات.. وجهي كله شعر.. أشعر بأني صرت أشبه برجل عمره خمسون سنة، لا امرأة دخلت ثلاثينياتها منذ فترة وجيزة!!

كان عليّ أن أسألها سؤالاً، انتظرت الفرصة لطرحه منذ زمن.

ـ طيب.. ألا تفكرين برجل ثانٍ إذاً؟

كنت أريد الجواب من أجلي أنا في البداية. سؤال راح ينهشني منذ فترة. لم لا يكون هناك رجل آخر؟!

إنها تذوي يوماً عن يوم. موت بطيء يعرّش على جنبات أوقاتها. هل تستطيع امرأة مثلها أن تقضي العمر دون يدين تدوّران لياليها؟! دون قلب تلقي فيه بقايا روحها؟! أو تلقي فيه كل طزاجتها ودهشتها وغوايتها.

ـ لا أقدر.

ـ لماذا؟ لأن الآخرين سيعهّرونك؟

ـ ممكن.. ولأني أحبه أيضاً. ثم أين المبادئ؟ كل ما بقينا سنوات ننادي به نقتله بلحظة من أجل ليلة جنس؟!! هذه خيانة عنات. سأكون خائنة وقتها!

ـ لكن للجسد حاجات.. نحن نقتل أرواحنا بهذه الطريقة!!

ـ ألبيها وحدي.

ـ يعني بالعادة السرّية؟ لا ترتبكي من سؤالي.. لنسمِّ الأشياء بمسمياتها. ألا تشعرين بأنّك صرت أشدّ وحدة وإهمالاً بعدها؟ ألا تكرهين جسدك أكثر فأكثر؟

ـ ...

لم تجبني ميّاسة، لكني كنت أعرف الجواب. أفكر أحياناً هل كانت بينلوب حرّة حين انتظرت أوليس عشرين سنة وهي تحوك الصوف وتكرّه؟ هل كان ثمة سيوف مسلّطة عليها من كل صوب؟! أم أن سيوفها كانت تخرج من داخلها؟! أفكر دون أن أصل إلى جواب شافٍ!!

لا أعرف إن كنّا نستطيع غداً أن ننبش أنوثتنا أو أن نؤججها من جديد بعد سنوات من دفنها. لا بد أن يكون التراب المحيط وقتها قد وسمها بعفنه البارد. الحياة برمتها مؤجلة إلى حين يخرج. وعندما يخرج كم من الزمن سنحتاج لنبش جذوة من تحت الرماد؟ هذا إذا كان هناك جذوة باقية!!

نبرت ميّاسة فجأة: ثم إنه محروم مثلي.. نحن نشبه بعضنا تماماً.

ـ أبداً لا تشبهان بعضكما. أنت وسط الحياة التي تناديك بملء صوتها، وهو هناك لا يصطدم إلا بأجساد الرجال، ولا يسمع إلا أصواتهم وأصوات السجانة.. ليس هناك أي مجال للمقارنة أبداً!!

ـ ...

لم تجبني ميّاسة بشكل جليّ. كان السؤال حقاً ينهشني: إلى متى سأنتظر أنا؟ بعد كل تلك السنوات لا أعرف إن كان جواد سيعود الرجل نفسه! أم إن كنت ما زلت أحبه بالطريقة ذاتها؟!! حتى وجهه لا أعرفه إلا بعيداً مقسماً إلى مربعات وأصابعه مغروزة في فراغات الشبك.

كم غيّرتني وغيّرتك الأيام المتعاقبة؟!

كنت أريد أن أسرّ لميّاسة بكل ذلك، أن أصرخ: ميّاسة ساعديني. ساعديني يا صديقتي.

لكنني أحسست بأنّ شيئاً يقف في حلقي يمنع الكلام من الخروج لينتأ بدلاً منه سيل صامت أخرس من الدموع لا غير.

...

في مساء خريفي أطلق سراح ميّاسة الشيخ فجأة.

صاح السجان باسمها وباسم اثنتين من رفيقاتها معها. حينها حاولت في الدقائق القليلة الباقية لها في المهجع أن تبدّل بيجامتها القطنية المتهدلة، وتبحث عن ثيابها التي أتت بها: بنطال جينز رمادي مموّه وبلوزة قطنية خضراء.

كان البنطال فضفاضاً لا يكاد يعلق بحقويها، والبلوزة أشبه بكيس خيش بالٍ.

عناق المعتقلات وتوصياتهن، دموعهن، دعاؤهن، صاحبها حتى خرجت من ظلام الأقبية إلى النور. هناك، أمام باب الفرع، راحت عيناها تدمعان. للنور سياط نارية تلعق وجهها ونسائم تشرين في الخارج لاسعة.

عندما وصلت إلى بيت أمها وقعت الأخيرة على الصوفا من المفاجأة، ثم راحت في نوبة مفاجئة من البكاء الهيستيري وهي تدفن رأسها في قبة بلوزة ميّاسة.

وتلك الصغيرة التي تكاد تبلغ الثامنة، من هي؟

كانت ديانا تراقب الوالجة إلى الصالون بعيني غزال مذهول. ملعون والد هذا الزمان القذر يا حبيبتي.. ديانا يا حبيبتي لم أعرفك! كنت أعتقد أني سأعرفك من بين مئات الأطفال!

يا إلهي لتلك الرائحة التي كانت تنبعث من ديانا وأنا أدفن رأسي بين رقبتها وكتفها الصغيرة. يا إلهي كم حلمت بها طويلاً.. خصلات شعرها الكستنائية المقصوصة تداعب وجهي الجائع لها حدّ الجنون. يا إلهي يا ديانا!

ثلاث سنوات لم تلمح ميّاسة ابنتها ولا مرة واحدة. كانت الصبية قد كبرت بشكل مفاجئ. إنها تشبه والدها كثيراً. ترتدي قلادة من الخرز، تنتهي بسمكة صغيرة ذهبية اللون، كانت أمها قد صنعتها لها في الداخل.

في ذلك اليوم لم تبارح ديانا حضن أمها ولا في الأيام الآتية. رافقتها إلى كل مكان، اندسّت إلى جانبها في الفراش، استحمّت معها، حتى أنها كانت تنتظرها عند باب المرحاض ريثما تنتهي من قضاء حاجتها. كان رهاب الفراق قد امتلك الصغيرة بشراسة.

أعادت على أمها قراءة رسائلها مرات ومرات، ولم تأبه بنشيج ميّاسة الذي صار يضجّ بالبيت، ولا بصراخ الجدة المؤنّب كي تكفّ عن تعذيب أمها بهذه الطريقة الوحشية.

ارتدت أمامها كل الفساتين والكنزات الصوفية التي حاكتها ميّاسة لصغيرتها في فترة سجنها. كلها ضيّقة الآن! وقد احتفظت بها الجدة معطّرة بكمشات الصابون المبروش في رفّ من رفوف الخزانة.

اليوم تمر هذي المشاهد على ذاكرة ميّاسة مضببة، نائسة، ونائية، كأنها صور من الغيب. كم مرّ على ذلك اليوم؟! عمر.. مرّ عمر.

في ذلك المساء قدمت ضحى لتراها. لمحتها متسمرة عند الباب والدموع تغسل وجنتيها اللتين بدتا أكثر امتلاءً وحمرة.

تشبه زوجة تاجر حلبي بامتياز. حجابها الأبيض الناصع، والمطرز على حوافه بخيط ذهبي، يزيدها بهرجة. والجلباب البني المحمر يخفي استدارات جسدها.

ارتمت ضحى في حضن مياسة، وراحت تغسلها بالدموع والقبل. كانت تتهدّج بالكلمات، تشهق مرتجفة بحبها، بحجم الفقد الذي راح يعرّش في داخلها، وبالفراغ الذي يتمدد يوماً بعد يوم في غياب مياسة حتى ليكاد يحتلّ جسدها بكامله.

لم تستطع مياسة أن تقاوم رغبتها المجنونة باحتضان ضحى بالمقابل، بتنسّم رائحتها الحبيبة القريبة، وبلثمها مرات ومرات. استمر الأمر لدقائق، لدقائق فحسب، أحسّت ضحى خلالها بأنّ بوابة الجنة فُتحت لها، وبأن مياسة عادت لتكون أختها الأثيرة متناسية موقفها القديم كاسرة حالة الجفاء والقطيعة..

دقائق.. وعاد الصوت الداخلي يعنّف مياسة، يجعلها تبتعد نفورة من بين ذراعي ضحى، تكفكف دموعها، وتتغلّف بعازلها ذاته. عادت مياسة إياها التي تستطيع أن تخرج ضحى من حياتها بكل

سهولة إن حادت الأخيرة عن مبادئ لا يكون الإنسان إنساناً بدونها.

راحت ضحى تجهش بأن ما تفعله مياسة حرام. وأنها تحبها بجنون.. والله تحبها.

ـ حرام الذي عملته أنت.. تركت زوجك مرمياً في السجن محطّماً مكسور القلب؟!

ـ مياسة أنا لا أشبهك، لم لا تقتنعين بهذه الحقيقة؟ لا أستطيع أن أبقى سنوات أنتظر رجلاً تزوجته ثلاثة أشهر.. لا أستطيع.

ـ لكنك أحببته!

ـ ولم أعد أحبه.. ليست جريمة!

ـ ...

بالنسبة لمياسة كانت هذه هي الجريمة بعينها.

الحب ليس شيئاً مادياً لينتهي، الحب اتحاد روحين لا ينفصلان.. بل لا يمكن أن ينفصلا. ما قيمة حبنا وزواجنا إذا كنا سنتخلى عنه في أول أزمة؟!

لكن الحب ينتهي مثله مثل أي شيء آخر. حاولت ضحى أن تتحدث من بين دموعها. حتى الروح يا حبيبتي يأتي يوم وتنتهي من عالمنا.. عالمنا يا حبيبتي عالم زائل.. كل شيء زائل.. زائل.

حاولت أن تمسك بيد مياسة علّها بذلك توصل جزءاً من تلك الروح قبل أن تزول. قالت إنهما أختان حتى لو اختلفتا.. لتكن

مياسة متباينة عنها، تغضب، تشتمها، تضربها، لتفعل ما تشاء! لكن لا تخرجها من حياتها هكذا!

ـ ...

ـ مياسة حبيبتي أنا أشتاقك. أريدك إلى جانبي مثلما كنا قبلاً.. تتذكرين؟!! كنا أقوى امرأتين في العالم لأننا إلى جانب بعضنا.. أنا تائهة بدونك مياسة..

ـ ...

ـ انظري حبيبتي كم نحن مختلفتان! أنا محجبة متدينة وأنت معتقلة شيوعية، ومع ذلك أنا أحبك وأحترمك كما أنت.. وفخورة بك أيضاً! مياسة يا روحي تعالي نعود كما كنا.

وجه مياسة يستحيل قاسياً جامداً. ضحى يزداد بكاؤها وصراخها. تركت مياسة الصالون دون أن تلتفت إلى أمها وديانا الواقفتين بالباب تنشجان. أقفلت باب غرفتها عليها إيذاناً بقطيعة جديدة أشد هولاً.. هناك في الغرفة احتضنت المخدة وبكت وحدها، بكت بصمت وحرقة كما لم تفعل يوماً.

أما ضحى فقد غادرت البيت دون عودة.

...

بعد إطلاق سراحي بثماني سنوات خرج زوجي إياد الشالاتي في ١٨ نيسان سنة ١٩٩٨. تاريخ لا يمكن نسيانه أبداً!

كان الهاتف يرنّ في الساعة السابعة صباحاً. استيقظتُ كالمجنونة.

الاتصال الصباحي كان يعني بالنسبة إليّ شيئاً واحداً: خبر فاجعة ما. بادرني الصوت الخشن، الذي لم أعرف صوت من كان حتى اللحظة، بأنّ إياد سيخرج اليوم مع خمسة من رفاقه! لم أجد نفسي إلا وأنا أرمي السماعة، وأبدأ نوبة من الصراخ المحموم.

من بداية الحارة المغلقة في شارع الأمين حتى مدخل البيت حمله أهل الحارة ورفاقه على أكتافهم. كان إياد يرتدي قميصاً ضيقاً بلون أصفر فاقع موشّى بوريقات خضراء من موضة الثمانينيات. القميص نفسه الذي اعتقل به من أمام البرلمان. بدا شكله غريباً فيه كأنه روح عتيقة استحضرت من حياة أخرى.

كنت أفكر أني سأغمره بالثياب الجديدة غداً.

يا إلهي كم اشتقت إليه!

سأغمره بالثياب وبحبي وحناني وأوقاتي.. سأغمره بي. سأعيد تأجيج كل ما دفنته لسنوات، سأكون قادرة على هذا وسأثبت ذلك لعنات. أشعر بأني قادرة على أن أكون أحرّ امرأة في العالم، أكثرهن شبقاً وشهوة.. أشعر بذلك.

شارع طويل طويل من شوارع دمشق العتيقة. الزغاريد تتصاعد من كل الأبواب، والجارات يرششن الرز وحبوب السكاكر من على الشرفات والأسطحة.

الله الله يا مفرّج المصايب

ويردّ الجمع: الله الله يا مفرّج المصايب.

كنت أنتظر نبيّي القادم على باب البناية. أرتدي الطقم الذي خُطته

بنفسي قبل مدة: تنورة وجاكيت من البروكار النيلي. أحسّ بأن ذاك الطقم يجعلني أبدو أشبه بمعلمة صارمة في مدرسة داخلية. لكني بكل الأحوال لم أكن أملك ثياباً أكثر أناقة لمثل هذه المناسبة.

كنت أحسّ لقلبي وجيباً يصمّ الحارة رغم كل ضجيجها. أحاول أن أردع ساقيّ عن الهرولة بين أجساد الرجال التي تهتف. أن أزجر روحي كي تبقى قانعة بالبقاء ضمن حدود جسدي. ديانا كانت تطوّق كتفي، وتراقب ذاك الأب الغريب القادم إليها من الغيب!

عريس الزين يتهنّى.

ويرد الجمع: يشرط علينا ويتمنى...

كان إياد يبدو لنا ضاحكاً محيياً الجميع كأنه عريس ليلة دخلته ماداً كلتا يديه للأكفّ التي تتلقّفه بالسلام.

لكن عبارات الفرح والترحيب المقتربة منّا راحت تتحوّل فجأة؛ بعد أن قطع الرجال نصف الحارة صاروا يهتفون بعبارات غاضبة، يطالبون بالتمرّد وإسقاط النظام، يلقون الشتائم بأصوات تضحي أعلى وأجش! انقلب سيل الأجساد، الذي كان يقصد باب البيت، إلى الاتجاه المعاكس وهم لا يزالون يحملون إياد الذي حاول التملّص عبثاً من بين أيديهم.

خلال هنيهات تحوّلت حفلة الاستقبال العذبة إلى مظاهرة مجنونة. لكن قبل أن يصل السيل أول الحارة، وينسفح في شوارع المدينة العريضة، كان العشرات من قوات مكافحة الشغب والعساكر المسلحين يطوّقون المكان كأنهم نبعوا من الأرض!

يومئذ اعتقل معظم شبان الحارة. لكن إياد استطاع التملّص والهرولة باتجاهنا أنا وديانا، وكنا لا نزال ننتظره على باب البناية. أذكر أني بكيت بصمت ووجل، واهتزاز جسد ديانا، الملاصق لي، جعلني أخمّن أنها كانت تبكي أيضاً.

جنون الهرج والصراخ عمّ الحارة بأسرها. لكني استطعت أن أقرأ همس شفاهه، كانتا متشققتين شاحبتين كأنهما لمومياء لا لحبيبي. كان يقول لي: اشتقتلك كتير. وأنا كمان، أجبته وأنا أدفن رأسي بصدره، وأضغطه إليّ. لقميصه عطن السجانة وممرات الزنازين، ولعرقه رائحة الألم وفرشات المهاجع العفنة.

ثمة شيء تغيّر!.. بالتأكيد ثمة شيء تغيّر. كنت أحسّ ذلك بروحي.

قالوا: مشت، فالحقل، من ولهٍ

متلبّك، والقمح يكتنز

...

لسبب ما كانت قصيدة أدونيس تتهادى أكثر غواية مع موسيقى مارسيل خليفة! الكورال يصدح في أرجاء المكان مالئاً حناياه بمسحة من الجلال. لسبب ما أيضاً كانت نظرات جميلة العلي، المطلّة من وراء زجاج صورتها، غريبة اليوم.

لمَ يبدو أن (الهيدبى والوخد والرجز) مخلوقة للحديث عن تفاصيل جميلة؟!

تومي فيلتفت الغروب لها

من لهفة ويتغتغ العنز

ويعيد الكورال.. ويعيد. لسبب ما أيضاً كانت جميلة تلحّ على ذاكرة ابنتها منذ الصباح دون أن ترضى الابتعاد. ربما كان التعب، الذي راح يحمل جسد عنات إلى برزخه، هو المحرّض على الأمر كله. ربما وحده الذي أجبرها على التفكير بالموت وقد راح يتمدد على مساحات يومها بطوله. الموت كان المسيطر على كل لحظاتها منذ الصباح حتى اللحظة!

هل كان ضرورياً أن يبرق في ذهنها مذكّراً إياها دوماً؟! مرّ على الأمر أكثر من سنة ونصف، وقبلها سنة كاملة منذ استطاع مرض السرطان التهام معظم رئة جميلة اليمنى وجزءاً من رئتها اليسرى كذلك. لم يمهلها أكثر من سنة، ولو بعض الأشهر القليلة بعدها. كان مصراً، كما بدا، على أن يجعل الأمر يبدو أكثر تراجيدية ليفصل بين قبضه لروحها وإطلاق سراح جواد أبو عطا ثلاثة أشهر لا غير.

لم تستطع الأم أن ترى ابنتها بثياب العرس اللؤلؤية. ذاك الحلم الذي رافقها طوال حياتها، وجعلها تسفح ساعات مديدة في شكّ القطع اللمّاعة على قماش فستان الزفاف من الشيفون الأبيض.

ذاك الفستان الذي أعدّته جميلة لوحيدتها غدا تحفة فنية حقيقية. صيّرت النجوم المتكاثفة على صدره تخفّ عند ذيله. فيما صنّعت حمالتي الكتفين من اللؤلؤ الكبير المتراصّ. لم يقدّر لجميلة كذلك أن تلمح النجوم في عيني عنات، هي التي كانت تحمّل ابنتها في كل زيارة أصناف الطعام لجواد ورفاقه. أيام تسفح في إعداد الطعام لغريب لم ترَ ملامحه إلا في الصور، لغريب لم تكن راضية عن وجوده في حياة ابنتها، بانتظار رؤية تلك النجوم فحسب. رحلت

قبل ذلك بهنيهة!

وجفونها وتر

وأغنية صيفية!

ويعيد الكورال من جديد: وأغنية صيفية.. ترالالالالا

في الشهور الأخيرة من حياتها لم تكن جميلة تتنقل إلا بإشارب ملوّن، على الأرجح، ومربوط إلى الوراء. تترك خصلات شعرها القليلة المتبقية لتزنّر جبهتها ووجنتيها. ذاك الإشارب المعقود إلى الخلف أعاد عنات إلى وقت بعيد، لم تستطع أن تقبض عليه رغم محاولاتها المضنية للتذكّر! حتى أتت ليلة لاقتها جميلة في أول الحارة وعنات عائدة من عملها. كانت الأم تحمل مجموعة من أكياس النايلون، وحقيبة قماشية عتيقة تتدلّى من كتفها. في تلك اللحظة تذكرت عنات بماذا يذكرها إشارب أمها! هطلت التفاصيل على رأسها كسيل مزمجر محمّل بكل القذارات المتراكمة في الطريق.

يشبه إشارب سهى الفاروسي! تلك الصغيرة التي كانت تجاورها في المقعد الدراسي. متى كان ذلك؟ في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي ربما! كانت تحمل حقيبة قماشية حائلة اللون أيضاً ومتّسخة، تعلّقها على كتفها، وتعقد على الدوام إشارباً أبيض اللون إلى الخلف.

تلك البنت كانت مصابة بمرض جلدي يسمى الثعلبة. مرض يجعل شعر الرأس يتساقط خصلة إثر خصلة حتى يقرع المرء تماماً. حالما تذكرت عنات سهى الفاروسي هجمت الرائحة على ذاكرتها بوحشية. رائحة دواء قوية كانت تنتشر من تحت إشارب جارتها

المنكبّة على الدفتر والمشغولة دائماً بكتابة شيء ما. مزيج متعفن من نشادر نفّاذ ويود مكثّف مع القليل من رائحة بيض فاسد.

ذلك أنه كان على سهى، كما شرحت لعنات مراراً، أن تدهن المرهم الكفيل بحرق الثعلبة كل يوم في الصباح وقبل النوم. ذاك الدواء كان كفيلاً بحرق كل شيء على ما يبدو إلا تلك الثعلبة اللعينة، وقد انتهى العام الدراسي دون أن تنبت شعرة واحدة جديدة على رأس سهى الفاروسي الأقرع.

إثر عدة نوبات من الغثيان، وبعد أن تقيأت عنات ذات صباح كل ما في جوفها على المقعد وعلى ظهر التلميذة أمامها، استجابت المعلمة مرغمة لتوسلاتها، ونقلتها من جانب الرفيقة المثعلبة إلى آخر مقعد في الصف حيث قضت الأشهر الباقية من العام الدراسي.

عقدة الذنب المميتة لم تبارحها طوال العام. بل كانت تتجدد كلما لمحت سهى الفاروسي بإشاربها المعقود إلى الخلف ونظراتها المعاتبة.

العلاج الكيماوي، الذي استمر لأشهر، جعل جسد جميلة يتنفّخ بشدة، وكذلك وجهها أيضاً. لكن الأخير غدا أكثر جمالاً وإشراقاً. هناك أحد ما، لم تعد تذكر من هو، أسدى يوماً نصيحة متبجحة لعنات، أو بالأحرى أحسّتها في غاية التبجح والقسوة. كان يقول إن عليها ألا ترى أمها في أيامها الأخيرة، لتتركها إلى ممرضات العناية المشددة، سيتكفلن بها بالتأكيد. ذلك أن الصورة التي ستبقى ملتصقة بوحشية في ذاكرتها، حسب تعبيره، هي الصورة الأخيرة فحسب. يعني الصورة الشنيعة لوالدتها وهي تحتضر.

ربما كان محقّاً على الرغم من قساوة جملته. اليوم وأنا أحاول أن أتذكر طيف جميلة البهي لا يطالعني إلا مشهد جثة حيّة، مشوّهة

ومتنفخة، تجاهد لتتنفس من أنبوب الأوكسجين على سرير العناية المشددة. وسطها مزنّر بحفاضات المسنين، فيما رائحتها النتنة تجعل الممرضات القادمات لتغيير الحفاضة يشددن الكمامات على أنوفهن مكشّرات.

حتى الكولونيا، التي كنت أمسح جسدها العرق بها، مُنعت عنها في الأيام الأخيرة فقد باتت تشكل قروحاً غير قابلة للشفاء على الجلد الرقيق كغشاء.

ذاك الجسد، المرتبط في ذهني بالطيب والعطور، تُرك مرتعاً لصنوف الروائح الكريهة. كانت جميلة الفخورة والمعتدة مرمية على سرير العناية المشددة كأية قذارة ينتظرون التخلص منها.

...

راح الكومبيوتر يعيد الأغنية من جديد. الموسيقى التي تبدو من عزف الملائكة يضيق باتساعها المكان.

للمرة الأخيرة تسللت عنات إليها؛ غافلت الحارس الذي يقف كمارد مانعاً الزوار من الولوج إلى القسم المحظور. كان ثمة مجموعة من الممرضات يحاولن قلب جثة رجل عجوز عملاق من السرير إلى النقالة، وامرأة تنوح خارج باب غرفته مغطّية وجهها بيديها.

همست جميلة لابنتها بصوتها الخفيض، الذي أضحى أبحّ، بأن تخرجها خارج هذه الجحيم. رفعت حجرة الأوكسجين عن فمها لتترجاها:

ـ روحي تتعذب هنا.. أريد أن أموت وأنا ملكة في بيتي وبدون هذا العلاج الفظيع. أرجوك حبيبتي.. لا أريد أن أعيش ولا لحظة واحدة زيادة هنا.

كانت عينا جميلة مخضلتين، ووجهها الشاحب يقطر استعطافاً. أعادت عنات الأوكسجين إليها، قبلتها وهمّت بالمغادرة. كانت قد قررت إخراجها على الفور مهما كانت النتيجة.

أوقفتها جميلة بضغطة على زندها طالبة منها أن تفتح درج الطاولة المتحركة بجانب السرير. كانت ثمة تفاحة حمراء ندية في الدرج. همست جميلة بأنها احتفظت بها لعنات كي تأكلها فمنظرها الشهّي يليق بفم صغيرتها فحسب.

تركت عنات الدرج مفتوحاً وهرولت خارجة، كانت دموعها تتسابق وقد قمعت طويلاً في الداخل، ثم راحت تجهش بصوت عال في الكوريدور وتقسم أن تخرج أمها مهما كلّف الأمر.

بقيت جميلة تنتظر مراقبة باب الغرفة من سريرها. كونترول المراقبة في الردهة الخارجية أمام عينيها، الممرضة خلفه منهمكة في حياكة كبّة ضخمة من الصوف الزهري اللون. فجأة غطّى المشهد شبح يقترب ببطء، الجو كان يتضبب وجميلة تلمح من بين نظراتها الزائغة صبية تحاذي سريرها، وتقف فوق رأسها. كانت صباح شفيفة كأنها صورة من فيلم ينعكس على الهواء.

أتت الفرصة كي تستعطفها جميلة للمرة الأخيرة، أن تترجاها كي تسامحها. راحت تنشج وهي تحاول أن تشرح لصباح أنها لم تكن تقصد جعلها تتجرع سمّ الفئران، وأنها بقيت طوال حياتها ترزح تحت تلك اليد المتشنجة التي تضغط على رقبتها كل ليلة ولا ترضى

فكاكاً حتى تجعلها تكاد تلفظ أنفاسها.

قالت جميلة أخيراً إنها مقتنعة بكون كل ما يحدث معها إنما يحدث لأن روح صباح هاجرت وهي حانقة عليها.

ـ صباح، سامحيني يا حبيبتي.. والله لو كنت أعرف أنك ستنتحرين لما تقاتلت معك ذاك الصباح.. الله يخليك سامحيني يا حبيبتي..

ابتسمت صباح في وجه جميلة للمرة الأولى. لمست أناملها الأثيرية جبين المريضة العرِق، ثم مسّدت بحنو على الإشارب المبلل جاعلة إياه ينزلق كاشفاً عن رأس أقرع بخصلات شعر متفرقة ومشعّثة.

تنهدت جميلة مبتسمة مسترخية.

حين عادت عنات بعد أقل من ساعة، دافعة الكرسي المتحرك كي تخرج أمها من المستشفى، كانت مجموعة الممرضات، قابضات الأرواح، يدفرن جسد جميلة الهامد إلى النقالة مفرغات السرير لمريض آخر. الإشارب الملون انسحب عن رأسها، الدرج ما زال مفتوحاً، والممرضات يتنهدن برضا لانتهائهن من كابوس مضت أسابيع وهو يقلق راحتهن في قسم العناية المشددة.

الذاكرة! ذاك الصديق الخوّان اللئيم لا يستطيع أن يحفظ لك في جعبته إلا صوراً قد تسفح عمرك بأكمله لتنساها! يلقيها في وجهك دفعة واحدة، هكذا ببساطة عند أول شجار معه.

ما زلت أسأل نفسي إلى اليوم: بمَ كانت تفكر أمي لحظة موتها؟! وحيدة كانت بانتظار أن أخرجها. ربما كان المشهد الأخير الذي

حملته ذاكرة روحها هو وجه إحدى أولئك الممرضات. كم يذبحني شعوري بالذنب تجاهها. كان عليّ أن أتصرّف بطريقة مغايرة، أفكر بذلك في كل لحظة. أفكر أيضاً بأن انهياري يومذاك منعني من أخذ التفاحة، كنت أودّ الاحتفاظ بها. لكن مشهد جميلة على النقالة المتوجهة إلى براد الموتى أنساني نفسي.

السكين التي تحزّ قلبي بتشفٍّ حتى اللحظة، أنها ماتت وحيدة، وحيدة في ذاك المكان الجحيمي.

فجأة صمت الكورال الصادح معيداً عنات إلى المكان الحقيقي من جديد. وعت لتجد نفسها ممسكة برواية لأنطونيو تابوكي وما زالت عند الصفحة الواحدة والثلاثين منذ ساعات.

كان حسن قد أخرج السي دي فجأة من سواقته دون استئذان، وعاد إلى الصالون من فوره. اتكأ على الصوفا ليدخّن مكملاً متابعته لمشاهد الموت في العراق على إحدى القنوات الفضائية.

رائحة الدخان المختلط بالنعنع وصلت محببة لعنات، ممتزجة بابتسامة طالعتها حالما خرجت من غرفتها. اقتربت منه ثم التصقت به لترمي نفسها في حضنه. سارع حسن إلى احتضانها ومداعبة شعرها المشعّث. كان ثمة مشهد لمجموعة من الجثث المكدّسة المتفحمة والمرمية في الشارع. رجته عنات أن يقفل التلفاز، فلم تعد تستطيع تحمّل كل هذا الخراب حولها وهي تحسّه يهاجمها من كل صوب.

أطفأه من فوره، وظل يحتضنها صامتاً طوال الساعة التي لم ينقطع فيها نشيجها ولا لحظة.

فوق الصوفا كانت ثمة صورة كبيرة، بحجم نصف الحائط تقريباً،

لسنية العلي. صورة قديمة حائلة اللون، لم يستطع الإطار الخشبي العريض، والزجاج الذي يسترها، أن يحمياها من عبث الزمن.

أربعون سنة مرّت، ليست بقليلة!

تلك الصورة جاهدت جميلة، طوال سنوات، لإزاحتها من الصالون دون أن تستطيع. كانت تبدو جزءاً من جدران البيت، إن أبعدت ينهار البيت معها، وحسن يرفض رفضاً باتاً أن يزيحها مقدار أنملة عن وسط الحائط.

عينا سنية تشعّان ببريق غريب من خلف الزجاج، بريق يجعلها تكاد تنفذ إلى قلب حياتهم، ويجعل مزاج جميلة ينقلب كلما دخلت الصالون ولمحت صورة أختها هناك في مكانها الأزلي.

بعد عشر سنوات من زواج حسن وجميلة، أضيفت صورة أخرى بجانب صورة سنية. كانت أصغر بقليل، وعليها شريط أسود عريض. إنها صورة صباح.

ـ بابا.. اليوم تذكرت صباح!

ـ ...

ـ لا أعرف لمَ تهجم عليّ كل ذكرياتي المؤلمة في هذه الأيام!

لم يجب والدي. أحسست بأن حركته على شعري صارت متوترة قليلاً. ربما كان يتذكر الأمر!! كان يوماً شتوياً من سنة ١٩٧٢، أكاد أحسّ الآن بوخزات ذاك البرد على جلدي وأنا أقفل عائدة إلى البيت إثر يوم دراسي طويل.

كان ثمة شيء غريب أثار قلقي! باب البيت الخارجي مفتوح على

غير العادة، الصالون مليء برجال ونساء مجلّلات بالأسود، أمي على الأريكة بوجه مزرقّ وعينين متورمتين، فيما يدفن والدي رأسه بين كفيه ناشجاً بصوت عال وفجائعي.

لم يخطر ببالي أن يكون الأمر متعلقاً بصباح! وقفت متسمّرة أراقب مشهد البيت الكارثي.

فيما بعد علمت أن صباح، التي بلغت الرابعة عشرة قبل أيام، قد أفرغت في جوفها، بعد أن أغلقت عليها باب الحمام، كامل الكيس المليء بحبات سمّ الفئران الذي جلبه والدي قبل مدة.

لم يكتشف أحد الأمر إلا بعد ساعات حين دخلت جميلة الحمام كي تنظّفه. رأت ساق صباح، حين شقّت الباب، مرفوعة على المقعد الخشبي الواطئ، أما بقية جسدها المتخشّب فكان يستند إلى جدار الحمام الرطب. أطرافها متشنّجة وتفاصيلها تنبئ بالألم الذي عانت منه قبل الموت.

عيناها الجاحظتان، المفتوحتان على سعتهما، تتسمران بالضبط على جميلة!

صباحاً، كان صراخ أمي وصباح يصمّ أذني وأنا أبتعد في طريقي إلى المدرسة. ظلّ الصياح يرافقني حتى نهاية الحارة العليا من دمر البلد حتى وصلت إلى الطريق العام الذاهب إلى الهامة. أعتقد أن أهل الحارة اعتادوا سماع هذا الموشّح اليومي كل صباح وظهر ومساء. جميلة وصباح تتصايحان، تتشاتمان، وتتبادلان الإهانات المقذعة دائماً كأنهما من الزعران.

لم أتوقع البتة أن تكون هذه نتيجة الحرب اليومية المعتادة!!

يومذاك لمحت، للمرة الأخيرة، عيني صباح المفتوحتين من التابوت الخشبي المعروض وسط الصالون، والنسوة السوداوات يتحلّقن حوله نائحات. كان بياض عينيها قد تمدد مقلصاً لون قزحيتها الأخضر، ولونها شاحب كما لم يكن يوماً. لكن سرعان ما عملت كفّ مستعجلة على إسدال جفنيها وتغطية وجهها ورأسها بشرشف سميك أبيض.

سائل كالنار نبع فجأة داخلي حارقاً جهازي الهضمي بالكامل، محولاً إياه إلى كتلة ملتهبة، لأعاني بقية حياتي من التهاب حاد في المعدة.

همس النسوة يعلو وهنّ يرمقن أمي بحقد. أحاديثهن، التي ابتدأت خافتة، صارت مع انتهاء أيام العزاء الخمسة عالية غير خجلة. معظم المعزّيات كن يتّهمن أمي بدفع مراهقة كصباح للانتحار.

فور انتهاء أيام العزاء دهمت والدي نوبة قلبية مفاجئة. كان يهمّ بنزع الوتد المغروز في الأرض الذي يحمل ساري خيمة العزاء. كانت المرة الأولى التي يعاني فيها أبو حيان من مشكلة قلبية. النوبة تلك كانت خفيفة، لحسن الحظ، ونجا منها، لكنه لم ينج من عمر كامل سيقضيه وهو مريض بقلبه، لا ينتقل إلا وثلّة من الأدوية تملأ جيوبه.

دفنت عنات رأسها في حجر والدها. كان قماش الروب الناعم يدغدغ خدها وقد راح كلف الحمل يشوبه منذ فترة قريبة. أصابع حسن على شعرها تبعث شيئاً من الطمأنينة والدفء في يومها الذي بدا مقيتاً للغاية. راحت آلام الدوالي في ساقيها تزنّ بإلحاح، وتخزها بقسوة.

على الرغم من ذلك قفزت رغبة ما إلى داخلها.

في الأشهر الأولى للحمل كان ثمة شيء يحجب جسدها، الذي راح يختمر بجنينه، عن رغبتها أو شهوتها الماضية. منذ فترة قريبة عادت تلك الشهوة عنيفة ملحاحة. صارت تحسّ بأنها في أمس الحاجة إلى جسد رجلها، جسد رجلها بالضبط، وليس أي جسد آخر. رائحته تلحّ عليها حالما توسد رأسها المخدة. حينها تذكرت أن أشهر الحمل الأولى مضت دون أن تفكر بأن لها جسداً أنثوياً يفور بالرغبة! اليوم تشتهي مضاجعة جواد كما لم تشتهها يوماً. تكاد تشعر بأعضائها تعوي طالبة، ودمها يفور متهيئاً للذة مفقودة.

البارحة مدت سبابتها إلى الداخل؛ تلمّست لزوجة الندى داخل الشفرين كما كانت تفعل قديماً، ثم راحت تداعب الرطوبة الفائرة على برعمها. لكن جنينها تحرك لوهلة! فسحبت يدها بسرعة دون أن تعي.

لم يخبرها أحد قبلاً أن الحبلى تكون مثقلة بالحاجة إلى الآخر أكثر مما تكون مثقلة بحملها.

لكنها بعد لحظات غطّت في حجر والدها في نوم عميق.

أما حسن فقد كان يغالب دمعة انتظرت نوم عنات كي تتدحرج بحرية. تبعتها أخريات وأخريات...

في الفترة الأخيرة راح حسن يناجي سنية ألا تأتيه بعد.

حدث ذلك في الفراش البارحة؛ كان يقبض على خصرها الأثيري، ويداعب وجنتها الشاحبة البضّة. سنية لا تزال صبية في التاسعة عشرة، لم تغيّرها كل تلك السنوات الهاربة وراءهما. تأتي أحياناً وهي ترتدي ثوبها المشجر، الذي كانت ترتديه في الحافلة الطائرة على طريق حلب اللاذقية وهما قادمان من الرقة.

ككل يوم، أتت حالما أوى إلى السرير. خلعت ثوبها الحريري الشفيف، رمته وراءها ليختفي في الهواء، ثم اندسّت تحت اللحاف بكامل عريها لتستسلم ضاحكة إلى مداعبات كفيه وهي تخترقها.

أجابت حين قال لها أسيانَ ألا تأتي بعد:

ـ مثل كل مرة تقول لي ألا آتي.. ثم تترجاني لأرجع!.

لصوتها صدى سحري يهمس في داخل رأسه كأنه آتٍ من الغيب. صمت حسن وهو يحتضن رأسها على المخدة ويغفو.

الآن، وعنات تتكئ على حضنه، كان يقول لسنية أن تذهب. همست له بأنها ستزعل حقاً إن كررها ثانية، ولن تتعامل مع طلبه باعتباره دلال محبين. ثم جلست متدللة قربه على الصوفا وشفافيتها تتماهى مع جلستها الزرقاء.

طوال السنوات التي مضت، كان حسن يتمزق شوقاً، يحاول عبثاً أن يقبض على جسدها الأثيري! الأمر كان يزيده شوقاً على شوق. صوتها المغوي يتصادى في ذاكرته، يقيد نيران الشهوة دون سبيل إلى إطفائها، وهي لا ترضى أن تترك جسد الشبح الذي لا تتبدى إلا به.

كان يحسّ بأن الحياة لم تنصفه يوماً! بأنه كان مغبوناً على الدوام دون أن يعرف السبب! حزيناً دون أن يعرف السبب أيضاً!

هذه الصبية التي تتكئ على حضنه هي كل ما تبقى له. وذاك الملاك الذي تحمله في أحشائها؛ الكنز الثمين القادم. وتلك القصائد التي تحمله بعيداً عن قتامة العيش وعقمه، وقد بات يحسّ به يعقّم روحه أيضاً، يجبرها أن تشيخ، على الرغم من رفضه المقيم لتلك الحال المقيتة التي تسمى شيخوخة.

الكتابة، وقت تتحوّل إلى مجرد خلاص فردي، حلّ سحري لانهيار كل ما قد يسمى الخلاص الجماعي، وسيلة كي لا يقتنع بأنه بات على هامش الفاعلية، على هامش الحياة، وليس ثمة من شيء يؤثر فيه أو يتأثر به!

المشيخة!

ربما كانت وسيلة للانخراط في مؤسسة دينية ما تشعره بفاعليته. أما وأنه لم يفعلها فلربما كان انخراطه في الحزب السوري القومي وسيلة للدخول في مؤسسة سياسية فاعلة نوعاً ما.

ولم يدخلها كذلك!

حتى ملمس الطباشير على أصابعه الذي كان يثير فيه غبار الفاعلية، مختلطاً بالدهشة التي تمطرها وجوه طلابه وعيونهم المبحلقة برغبة في المعرفة، حرم منه منذ سنوات طويلة وقت سُرّح من عمله وهو لم يبلغ الخمسين!

منذ ذلك اليوم وحتى اللحظة وهو يفكر بسيناريو مغاير!

ماذا لو لم يصفع ذاك المدير؟ ماذا لو لم ترنّ تلك الصفعة في أرجاء الكوريدور الذي يغصّ بالمدرسين والطلاب؟! ربما كان سيستمر في تدريس طلابه عشر سنوات أخرى. عشر سنوات كاملة من الفعل في عقول أجيال غضّة أشبه بتكوين أشكال مبتكرة جديدة من الطين المبهم.

أشبه بالكتابة على ورق أبيض. أشبه بالكتابة!!.. نعم.

حين يفكر حسن بالسيناريو الآخر يشعر بالفخر لأنه لم يحدث. كان مدير المدرسة يصرخ في وجهه أن ينزل إلى الباحة ويبدأ بالرقص أسوة ببقية المعلمين والطلاب في ذكرى تجديد انتخاب الرئيس.

ـ لن أرقص مثل القرود على طبولكم.

... ـ

لكن المدير الذي بهت من إجابة حسن، كأنه يشبّهه بالقرد، ما كان منه إلا أن راح يكيل له الشتائم وهو يتلّفت يمنة ويسرة لئلا يكون أحد قد استمع إلى المشادّة. لم يكن يقبل البتة بإزاحته عن منصبه الأثير في إدارة مدرسة مهمة ومؤثرة كمدرسة البنين. ثم أخيراً، ودرءاً للشبهات التي راحت تحوم حولهما، وصف حسن بالعميل والخائن لوطنه!

كل الشتائم التي قذفها المدير في وجهه لم تعنِ لحسن شيئاً إلا التهمة الأخيرة! لم يجد نفسه إلا وهو يهوي بكفّه على خدّ المدير المحمرّ انفعالاً، يراقب ارتطامها المدوّي ومن ثم الشرر الذي راح يتطاير من عيني الأخير.

كانت الصفعة الأولى والأخيرة التي يوجهها حسن لكائن منذ ولادته وحتى اليوم.

ـ الخونة أمثالك.. لأنهم لا يقودون الوطن إلا ليشبه حلبة سيرك مليئة بالمهرجين.

ما زال يذكر الجملة بحذافيرها: يجعلون الوطن أشبه بحلبة سيرك. حتى إنه ابتدأ إحدى قصائده بها، على الرغم من أنها تبدو خفيفة بسيطة تجاه جمله الشعرية الأخرى المفعمة بالقوة والتراكيب اللغوية المعقدة.

استمر التحقيق أياماً طويلة في فرع الأمن السياسي. ثم رمي حسن في زنزانة تحت الأرض متقرح القدمين بعد حفلة فلق عظيمة. دام الاعتقال ستة أشهر قبل الإفراج عنه ليخرج مفصولاً من الخدمة.

ماذا لو.. ليس لها الآن أي معنى. الكتابة وحدها تخلّصه من فراغه! الكتابة والحب الذي ما فارقه يوماً!

الكتابة والحب والتلفاز.

يا لهذا التلفاز! عينه الساهرة على الدنيا. نافذة سحرية تهبه كل ما يتمناه! إنه النعمة الإلهية بعينها هذا التلفاز العجيب. على الرغم من كل المآسي التي يمكن أن ينقلها لك، أو ينقلك إليها، كأنك تعيشها بلحظتها.

طأطأ حسن ضاغطاً عموده الفقري، حتى آلمه، كي يطبع قبلة طويلة على شعر عنات المستغرقة تماماً في نوم آمن.

ناوليني الكأس في الصبح[٢٧]

ثم غني لي على قدحي

وأديري شمس وجهك لي

فضياء الشمس لم يلح

وابتسم لسنية، التي كانت لا تزال تتكئ بجانبه، غامزاً لها بشبق، مشيراً إلى عنات التي تستر وسطه وقد راح عضوه يتوفز.

واشغلي كفّيك في وتر

لا تمديها إلى السبح

ثم احتضن الشبح الذي يتدلل بجانبه هامساً في أذنه: أحبك.

---

(٢٧) مطلع قصيدة للشاعر الملقب بالشاب الظريف.

وجه ناعم القسمات دون شعر عدا شعر الحاجبين المرسوم بدقة كأنهما حاجبان مزججان لامرأة. جسد فارع طويل يلتحف قميصاً حريرياً أبيض ناصعاً وبنطالاً من الجوخ الأسود.

هناك لفحة أنثوية تتقاطر من قسمات هذا الشاب، جمال خاص في بشرته اللامعة المشدودة طغى على كآبة غرفة المقابلات في السفارة حالما ولجها ليقف قبالة جوناثان غرين وعنات إسماعيل.

اسمه محمد عوّاد من ولاية النيل الأزرق جنوب السودان، أول القادمين إلى مقابلات اللجوء هذا اليوم.

سجنته قوات الأمن السوداني في الشمال أكثر من عشرة أعوام. ضربوه بأعقاب البنادق على ظهره، وحرم كبقية السجناء من النوم لأيام عديدة متتالية. كان كلما حاول النوم أيقظوه بعقب البندقية،

بشدّ شعره، أو بإغراقه بالماء.

كسروا أكثر من مرة زجاجة وأجبروني على الجلوس عليها.. كان الألم لا يطاق، وظلّت الدماء أياماً تنز من ورائي. ولا تكاد الجروح تندمل حتى يعيدوا الكرة معي.

ـ واغ.. اغتصبوني..

ـ ...

اغتصبوني.. مرات ومرات. كان رئيسهم يجبرني على أن أتعرى كاملاً، وأجثو على الأرض كالدابة ليضاجعني بوحشية أمام جميع رجاله. كانوا يقهقهون، يحاصرونني بكلماتهم البذيئة، يمسّدون جسدي ويدسّون أيديهم في طياته مطلقين عليّ أوصاف النساء. يجبرونني على التمايل والرقص والتلفظ بكلمات فاحشة بصوت ناعم. أحياناً كانوا يقسرونني على التباح، أو النهيق، وهم يدكّون مؤخرتي فيما الدماء تسيل على فخذي، تتبقع على الأرض مع برازي.. لم يكفّوا، ورئيسهم يجعلهم يعاودون اغتصابي واحداً تلو الآخر. حتى أنهم...

ـ حتى أنهم.. حتى أنهم...

ـ ...

وكظم محمد عواد كازاً على أسنانه.

في الجنوب كانت قوات الأمن السودانية تتمتع بحصانة يمنحها لها القانون. حتى أنه في عام ١٩٩٦ صدر قانون النظام، وهو قانون يقضي بجلد وضرب النساء اللواتي يُزعم أنهن لا يرتدين ثياباً محتشمة، أو اللواتي يبقين في الشارع بعد الغروب.

خديجة مثلاً، وهي عمة محمد، سيدة تكاد تبلغ الخمسين ولها مظهر عجوز في أواخر السبعين، ألقي القبض عليها أثناء عودتها من منزل عوني باشا حيث كانت تخدم.

في ذلك اليوم، كان سيّدها يقيم حفل كوكتيل في بيته. وبما أنه كان من أشهر مهربي الأسلحة في جنوب البلاد، فقد جمع الحفل معظم أغنياء المنطقة والنافذين فيها، كما ضمّ مجموعة منتقاة بعناية من ضباط الجيش الحكومي والكثير من ضباط التمرد متنكرين في ملابس مدنية.

كان عوني باشا يحاول أن يرتب من خلال هذا الحفل عدداً من الصفقات بين ضباط الجيش والمتمردين لتبادل الأسلحة.

كانت حفلة مهولة بحق؛ الأمر الذي اضطر خديجة إلى البقاء هناك حتى خروج آخر ضيف من البيت، وبالتالي عادت إلى بيتها متأخرة للغاية. كانت تقول لنفسها، وهي تهرول في الدرب الواصل إلى بيتها آخر البلدة، إنه كان عليها أن تبيت في بيت عوني باشا، كانت ستنام في المطبخ إلى أن ينبلج الفجر، ليس هناك من مشكلة، وقد تنام على التراس الصيفي. كان عليها أن تفعل أي شيء إلا أن تعود وحدها في هذا الليل الغدار.

لحقتها دورية من الشرطة المتصيّدة وهم يصرخون ويتوعدون. لم تستطع خديجة، بخطواتها التعبة البطيئة، أن تفلت منهم. وألقى ثلاثة رجال من الشرطة القبض عليها بمنتهى البساطة.

ضُربت العمة في الشارع.

لم تفلح صرخاتها المستغيثة ولا جسدها الهرم في حمايتها من

عصيّهم! ظلوا يكيلون لها الضربات المتلاحقة حتى توقف قلبها الضعيف عن الخفقان، وماتت في مكانها.

ثم تركت جثة خديجة في الشارع حتى وجدت أول الصبح تتناهشها الطيور البرية.

إثر تلك الحادثة نزحت عائلتي بكاملها إلى مخيمات إثيوبيا. هربنا من بطش رجال البشير، ومن بطش متمردي الجنوب. هربنا من الملاريا والإيدز اللذين حصدا المئات والمئات، من القنابل والقصف المتواصل الذي دمّر قرى كاملة ومخيمات للمدنيين ومدارس ومستشفيات. هربنا من الموت المتجسد في كل شيء حولنا.

زوج عمتي المقتولة سقط مغمياً عليه حين لمح أحد العقبان ينقر عينيها. أما ابنتها عائشة، فقد هامت على وجهها في أرجاء البلدة. كنت أحبها تلك الصبية، وظللت رافضاً للنزوح حتى أعثر عليها. كنت أريد أن نذهب معاً؛ تركت جماعتي المتحلقة حول قبر عمتي وذهبت أفتش عنها.

كان لديها عينان سوداوان براقتان، شفتان مثيرتان ومؤخرة أفريقية مكتنزة شهية.. كنت أحبها وأشتهيها.

هناك في إثيوبيا ربما استطعنا أن نكوّن عائلة صغيرة بعيداً عن الويلات التي هنا. كنت أريد أن أقول لها ذلك، لربما طمأنتها كلماتي ودفء يدي التي تربت عليها.

كنت أريد طفلاً منها. هذا ما كنت سأقوله حالما تهدأ معالمها، ويروح الأمان يتغلغل في جسدها الحبيب.

ورأيتها! كانت تطفو على سطح البحيرة الكبيرة.

لم أر وجهها! لكن ثوبها الملون العريض كان يتهادى على موجات الماء الهادئ وبقعة واسعة من الدم القاني ترسم دائرة ممتدة حولها.

وهربت..

هربت من المرأة التي أحبها! كانت أشباح البحيرة تطاردني. لا أعرف كم عدد الأجساد المشوّهة المتكئة على قعرها. ربما مرت أيام قبل أن تنزل عائشة لتنضم إليها.

هربت!!

من مدينة كرمك الحدودية في ولاية النيل الأزرق إلى مخيم بونجا للاجئين فى إثيوبيا. ثلاثة أيام من السير وسط الأمطار المجنونة، إذ لم يكن موسم الجفاف قد ابتدأ بعد. كنت أمشي في مقدمة الموكب، أسبقه بخطوات، أهرب من كل شيء.. أهرب.. أهرب.

سكان قريتَيْ جندي وشالي خرجوا معنا أيضاً. إنها القافلة الثامنة التي تهاجر في هذا الشهر، شهر مايو، شهر ملعون.

يصيح جيلفاس، الشاب النحيل من مكتب المفوضية العليا للاجئين في كرمك، أن علينا ألا نيأس، فالمخيمات الآمنة بانتظارنا. كان يصيح بنا والأمطار تجعل صوته يأتي بعيداً كأنه يصرخ في خضم بحر عاتٍ.

معظم المهاجرين حملوا معهم قطعاً من أثاث أكواخهم وبيوتهم. ولم أكن أعرف لماذا؟ كنت أمشي عارياً إلا من ثيابي، التي غدت كالأسمال، ومن مشاهد مقيتة مرعبة راحت تقفز فجأة إلى رأسي،

تحاصرني كلما خضت عميقاً باتجاه الحدود الإثيوبية. والتماعة ثوب عائشة، الذي يتهادى على موج البحيرة/ المقبرة، لا يفارقني حتى أكاد أجن.

كانت المفوضية قد زودتنا ببعض المواد الغذائية ومواد أخرى: أغطية بلاستيكية، أوعية وحصائر، أدوات منزلية، وشباك للبعوض الذي كان وحشياً خلال مسيرتنا الطويلة. كنا بحاجة إلى الأغطية البلاستيكية، على وجه الخصوص، فهطول الأمطار الذي لا يتوقف سيجبرنا على استخدامها لتغطية الأرفف المعدة من أعشاب التوكول التي سنقيم بها حالما نصل إلى مخيمنا الآمن.

٣٠٠ ألف سوداني هاجروا حتى اليوم وأنا منهم. متى سنعود؟! لا أعرف!! هل ستنتظرني عائشة كي أدفنها كما يليق بحبيبتي؟! هذا إذا استطعت أن أنشلها من قعر البحيرة، وإذا استطعت التعرف إلى معالمها التي سيكون الماء قد شوهها بعد فترة ليست بطويلة.

لا أعرف!

لا أعرف شيئاً!

...

أعلى الرأس الأشقر فقط كان يهتزّ بين فخذي عنات، تلمحه من بين رموشها التي تطبق لذة. طرف مؤخرته يبين عارياً وأسفل ظهره مكسو بالشعر الفاتح، فيما عيناه تختلسان النظر إلى تعابير المتعة على وجهها.

هنيهات قليلة وكادت عنات أن تبلغ لذتها، كأن جسدها ثمرة ناضجة تنتظر نقرة خفيفة كي تسقط، والسنوات التي انتظرتها تشتهي في سريرها جواد أبو عطا، وأحياناً أي رجل آخر، جعلتها متلهفة متعجلة. إنها المرة الثانية التي تبلغ الذروة ولا تشعر بالارتواء. إذاً هذا هو طعم الرجل!

يختلف الطعم كثيراً وقت تتذوقه فتاة في أول عشرينياتها، لم تكد تغادر المراهقة، وفتاة راحت تهرول في ثلاثينياتها. يختلف بالفعل كأنه لا يمتّ للأول بصلة، أو كأن جسدي لامرأة أخرى أفاجأ الآن

بأماكن متعته الغريبة، وأصطدم في هذه اللحظة بتمرّده على سيطرتي وتغريده بإبداع متفرّد..

جسد أضحى أكثر معرفة بنفسه!

لكنه يتبدّل، مع كل معرفة يتبدل، أحسّ بالأمر في كل ثانية. راحت العروق الزرقاء تغزو ساقيّ. التجاعيد الدقيقة حول الفم وبين الحاجبين تظهر أكثر جلاء. كفاي تفقدان يوماً عن يوم مظهرهما البض. كيف سيكون الأمر حين سأدخل أربعينياتي؟

فكرت عنات، وهي تتوسد المخدة، أن زماناً مرّ وجسدها يجهل فنون الإيروتيك، لم يعرف إلا شوارعه العريضة المضجرة والمعروفة. اليوم فحسب استمتع بغواية الأزقة الفرعية، بالختلات، وبالمداخل المخبأة هناك حيث يتفتح حراً، واثقاً، ومختبراً كل متعة لم تختبر قبلاً. جسد عارف بطرائقه الخاصة.. الخاصة جداً، والأهم بحقّه في المتعة.

حين كان بيير يعتليها كانت تفكر، من بين شهقاتها وأنّاته، بسنواتها الثلاث والثلاثين، ومتى كانت آخر مرة لمسها رجل، الأمر الذي جعله يتوقف ويسألها إن كان ثمة مشكلة!

كانت قبلة قبل سنوات وراء باب المطبخ في بيت أحد الأصدقاء. لا تذكر اليوم أين ولماذا! تذكر فقط شعورها بذنب جارح تملّك كل أجزائها بعد أن انفصلت الشفاه عن بعضها. راحت تفاصيل الحب مع جواد تحاصرها أينما التفتت، مداعباته، شهقاته، كل حركة منه يجيب عليها سرير تلك الغرفة بأنّة من مفاصله المعدنية.

قبلة بقي منها الطعم المغوي الممتزج بتردد، بإحساس مهين بالخطيئة،

وبلذعة النبيذ الرخيص الذي بدا أقرب إلى الخل منه إلى النبيذ.

في اليوم التالي اتصل بها الرجل. كان كهلاً يقارب الخمسين، لوجهه سحنة الكوالا، ولديه شعر كتاج مكلل بالفضة، وشاربان كثّان رماديا اللون، وسحر خاص في قدرته على الكلام لساعات طويلة ومتصلة دون أن يجعل مستمعه ينبس بكلمة.

كان سعيد مبارك يتكلم عن كل شيء ودون أي سبب، من أنواع النبيذ الفرنسي، الذي ذاقه في كهوف التخمير في تولوز عند زيارته لفرنسا التي لم تستغرق أكثر من عشرة أيام، إلى معلوماته الطبية الدقيقة والموثوقة، كما كان يصفها، عن العمر الحقيقي لابتداء ذاكرة الطفل بالتشكل.

سعيد ذاك كان كائناً شفاهياً بامتياز.

بعد أن احتسيا كأسين من ويسكي بلاك ليبل مع القليل من قطع الثلج دعاها إلى بيته في زقاق جانبي من شارع العابد.

هناك في غرفته الضيقة راح سعيد يدندن أغنية لفاضل عواد وهو يعدّ فنجانين من القهوة.

ـ أنا أحب أغنية «لا خبر».

صاحت عنات بغنج من الصالون، فراح سعيد يغني الأغنية من فوره.

وهما يحتسيان القهوة طفق سعيد يقرأ لها قصائده، كانت عيناه تغرورقان حين يكون المقطع خاصاً ببغداد، مدينته الأم، مدينة الدم والنار، مدينة الملائكة والشياطين، كما كان يطلق عليها. كان يدمع

حين يعرّج أيضاً، في جمل مباشرة حادة، على فكرة المنافي وسنوات التشرد في عواصم أوروبية، مدن غريبة تلبطه على مؤخرته الواحدة تلو الأخرى بعد أن تضاجعه بجلافة.

كان لدى سعيد مبارك، كما أحسّت عنات، مزيج من الأبوة الحنونة وجموح العاشق الشاب؛ تركيبة ساحرة عملت على جعلها تشعر باطمئنان وغواية متداخلين. لكنه حين خلع كنزته الأرجوانية المشجّرة راحت رائحة منفّرة تفوح من القميص الداخلي الأسود. بدا جسده من تحته عجوزاً ومكرنشاً، وكرشه المتهدل منع جسده من الالتصاق الكامل بجسد عنات. لكنها كانت مستثارة حتى الأقاصي ولن يمنعها أي شيء من الاستمرار. حتى رائحة فمه لم تحجم لسانها عن الاشتباك بلسانه في لحظات نشوتها.

تمدّد سعيد بسرعة فوقها، وأولجه مباشرة دون أية مقدمات. بلغت عنات اللذة بسرعة فيما كان هو يجاهد فوقها للبلوغ. انسلت من تحته فجأة، وراحت تلبس ثيابها المرمية على الأرض بجانب السرير.

كانت تفكر أن أية امرأة أخرى وطبيعية لن تحصل على ذرة متعة مع هذا الأخرق، وأنها لو لم تكن لاهثة لرائحة رجل، لما أحسّت بشيء معه. كان منفّراً، ولا يعرف بحال ماذا يعني جسد المرأة!

لكنها لم تقل شيئاً. انطلقت خارجة من الغرفة دون أن تلقي ولو نظرة على الأسئلة المتصاعدة من عيني سعيد الذي بقي عارياً وساكناً على السرير يراقبها وقد راح عضوه المتوفز قبل لحظة يهمد خائباً.

كانت المرة الأخيرة التي تلمح فيها عنات ملامح سعيد مبارك الخاملة.

تلك الليلة فركت جسدها مرات ومرات تحت الدش. رائحة سعيد مبارك لا ترضى أن تفارقها. رائحة تجمع أريج عطر قوي، يليق بعراقي كهل، ورائحة عرق نفاذة وطاغية، وجيفة متعفنة مطمورة في فمه. كانت تشعر بالغثيان، فرائحة لعابه لا تزال ملتصقة بشفتها العليا لا ترضى مفارقتها.

حين انتهت من الحمام سلّمت عنات نفسها لنوبة من النشيج المتوالي، لم تنته منه حتى كانت الصخرة الجاثمة فوق صدرها قد أزيحت.

قضت الأيام التالية وهي تحاول أن تكتب رسالة لجواد في السجن. تكتب صفحة، ثم تمزقها لتبدأ من جديد فتمزق وهكذا. حين انبلج صبح اليوم السادس قررت عنات أخيراً أن عليها التخلص من شبح الذنب الذي يكاد يخنقها، وألا تكتب لجواد شيئاً مما تحسّ به أو من الذي مرّ بها.

في ذلك اليوم نامت بهدوء للمرة الأولى.

شعور الذنب ذاك صار يبدو لها يوماً عن يوم جزءاً من تركيبتها، جزءاً من كيانها لا يكاد ينفصل عنه! ربما كان للأمر علاقة بأيام غابرة! وربما لا.. شعور بارتكاب إثم ما، لا تكاد تلتقط كنهه، يتوالى دوماً. شعور حامض يحرّض سائلاً حارقاً عبر المريء والمعدة التي تنكمش ذنباً، فيما لا تستطيع السيطرة على جسدها المتوتر والمتهيّج حدّ عدم القدرة على الثبات في مكان.

كان الأمر يتكرر حينما تأتي من المدرسة بعلامات ناقصة، أو حين تكسر شيئاً ما في البيت. يتكرر حين تتشاجر مع إحدى رفيقاتها، أو حين تختلف مع والدتها، في العمل وفي الشارع، في كل مكان

وفي أية لحظة قد يشرئب مانعاً إياها من التفكير إلا به.. بالذنب!

الآن يمسّد بيير، الموظف الكندي الشاب، فخذي عنات راطناً بعبارات فرنسية لا تتبينها جيداً. وجهه المستمتع تحت خصلات شعرها النازل إليه جعلها تزداد شبقاً، ولسانه الذي انطلق يداعب لسانها جعلها تصل إلى ذروتها فوقه للمرة الثالثة.

بداية كانت عنات تستمتع بفحش الكلمات الإنكليزية. كل ما كانت تخجل من قوله بالعربية راحت تتدلل به بالإنكليزية وهي بين ذراعي بيير. لسبب ما كانت كلمات الشبق العربية مرتبطة داخلها بالشتائم والعيب والانحطاط. لكن حين راحت حميمية التفاصيل تتصاعد، وروحها المستمتعة تهاجر خارجة من جسدها في فضاء الغرفة، تدفقت العربية فارضة سطوتها، واسترسلت كلمات العشق بكامل فخامتها وغوايتها.

أما بيير فقد كان يلهث بالفرنسية في تلك اللحظات.

ربما كان المرء في لحظات الانتشاء يهمس بلغة روحه فحسب. تلك كانت العربية بالنسبة إلى عنات والفرنسية عند بيير. على الرغم من ذلك كان كل منهما يفهم، بكل خلية من جسده، النأمة التي تندّ عن الآخر.

حين ارتمت بجانبه كانا لا يزالان يلهثان. حاول بيير أن يضمّ صدرها بذراعه، لكنها نفرت مبتعدة تلتقط أنفاسها.

ممارسة الجنس مع بيير تختلف تماماً عن ممارسته مع سعيد مبارك. المقارنة تجعل ما حدث بينها وبين سعيد أشبه بجمع روث الأبقار منه بممارسة الجنس. ذاك التناغم الغريب الذي أحسّته عنات مع بيير

بدا لها مستغرباً. كانا يتقلبان كعصفورين يتداعبان دون أن تفكر، ولو لوهلة، بأي شيء خارجهما، متخلّصة من أي ظلال لخجل دفين رافقها طوال حياتها حتى وهي مع جواد.

بيير ما زال يلتقط أنفاسه رامقاً عنات بودّ.

بما أنها قررت ألا تشعر بالذنب، أن تعيش الحالة بكل أبعادها بلا أية رواسب أخرى، فقد كان هجوعها النهائي مسالماً. وبما أنها اختارت بيير الذي يعمل معها في السفارة ليكون شريكها، فلن يأتي يوم يسرّ فيه لأي كان بما حدث. شاب سيتفهم كل ذلك دون أن يعهّرها، أو يلومها، أو يتعامل مع جسدها كجزيرة مباحة له. ستنتهي الليلة وينتهي الأمر معها.. وقد لا ينتهي.

لم تفكر بالأمر. فكرت فقط بأنها كانت ليلة هائلة، وبأن أمداء المتعة التي وهبها إياها بيير كانت أجمل من أن تندم عليها.

حين نزلت عنات إسماعيل إلى الشارع الواصل بين جادة عدنان المالكي وجسر الرئيس كان جسدها العرق المشبع يتلهف إلى غفوة طويلة يلملم خلالها كل اللذة التي اجتاحته. كانت ترغب بالوصول إلى سريرها كي تنام فقط. سوف تكون المرة الأولى، بعد مدة طويلة، تنام فيها دون أرق، دون أن تلهث بأحلام يقظتها وراء رجل، دون أن تتخيّل مشاهد فاحشة خارجة عن أي تزمت.

كان بيير يعد لمشروع، كان في الحقيقة سبب قدومه إلى هنا وليس عمله في السفارة، وهو القيام ببحث مطوّل عن الأقليات في البلد. الغوص في تقاليد وعادات كل أقلية إثنية كانت أو طائفية، وكذلك تاريخ نشوئها أو مقدمها إلى البلاد.

ـ لكن الأمر ليس سهلاً البتة بيير!

خاطبته عنات بالفصحى التي لم يكن قد أتقنها بعد.

ـ أعرف.

أجاب بيير، ثم أكمل بلهجة مترجية.

ـ But I would like you to help me and introduce me to people who can help me[٢٨].

ـ بالتأكيد.. هناك الكثير من طالبي اللجوء أعمل من أجلهم في السفارة، وهم عموماً من الأقليات في العراق أو تركيا أو الأردن ولبنان.

ـ جيد.. لكني أقول عن الأقليات هنا.

ـ الأمر واحد تقريباً بيير.. الأقليات الموجودة في البلاد المجاورة توجد هنا أيضاً، إنها منطقة واحدة تاريخياً.

ـ جيد أيضاً.

طوال فترة إقامة بيير في دمشق كان مهجوساً بالمشروع. حتى حديثه لم يخرج يوماً عن تقليد ما من تقاليد الأقليات، أو عن حدث تاريخي اكتشفه للتو وأعجب به، أو عن شخص صادفه فأغنى مشروعه.

مع الزمن صار الأمر ممتعاً بالنسبة إليّ، ممتعاً حقاً.

---

(٢٨) لكني أرغب أن تساعديني، وأن تقوديني إلى من يساعدني.

أن تغوص في طرق عيش مغايرة لأناس قد لا تفصلك عنهم كيلومترات أمر ليس باعتيادي. مشروع بيير الذي راح يتطور باطراد، يزداد غنىً وتنوعاً، جعلني أكتشف أني لا أعرف إلا النزر اليسير عن بشر وشعوب يشاركونني المنطقة الملونة التي أقطنها. أعترف بأنّ اكتشافي كان مثيراً للخجل. هناك أناس يعيشون على الخيرات ذاتها، يشربون من المياه ذاتها أيضاً، وهم في النهاية يحملون جنسيتي ربما، أو يتكلمون لغتي، أو ينوءون بعبء تاريخي، وأنا لا أعرف عنهم شيئاً!

ربما كان جميلاً ألا تميّز البشر من انتماءاتهم الطائفية والعرقية والقومية وغيرها، لكن الأجمل أن تعرف تفاصيل تلك الانتماءات وتحترمها وتقبلها كما هي.

سألت بيير يوماً عن بعض التفاصيل التي شاهدها في كانتونات الأرمن، وقد تردد عليها في دمشق وحلب. كان مفاجأً بجهلي الكامل حول وجود تلك الكانتونات، وبجهلي أيضاً بحياة الأرمن وعيشهم في المنطقة!

ـ هل تصدّقين عنات؟ أنهم يعرفون كل شيء عن العرب والإسلام، وأنتم لا تعرفون شيئاً عنهم؟!

ـ إنهم يدرسون هذا في المدارس.. والمدارس كلها عربية بيير.

ـ They practice their rituals in their churches and private Armenian communities only.[٢٩]

---

(٢٩) وهم لا يمارسون شعائرهم إلا في الكنائس والتجمعات الأرمنية الخاصة!

... –

You wonder why do they seclude themselves and – take sides with their minorities?[٣٠].

...

بيير يعتقد أن الانغلاق رد فعل طبيعي على الإقصاء.. ربما، لم أفكر بالأمر قبلاً.

كان قد درس تاريخ الشركس وخصوصيات عيشهم أيضاً. كان يهتف مراراً: منطقتكم غنية للغاية عنات! مليئة بديانات مختلفة وبأعراق مختلفة أيضاً.. إنها هائلة!

في أثناء بحثه عن تاريخ الشركس ذهبت معه إلى رأس العين الحدودية حيث بنى الشيشان مدينتهم إثر هجرتهم من القفقاس أثناء الحكم العثماني. في الأسبوع الذي تلاه صاحبته في جولته إلى تل عمري ومجموعة أخرى من القرى في الطريق بين حمص وسلمية، ثم قفلنا عائدين إلى مرج السلطان قرب دمشق.

طوال تلك الأيام صاحبتنا أنغام عبيدة، عازفة الأوكورديون الشركسية الأردنية، كأنها تكمل خلفية مشهد يعيشه بيير بكل جوارحه. أما خناصر الحلبية فقد قصدها بيير وحده لأني كنت قد كلّفت بترجمة تقرير جديد وضخم للمفوضية العليا لشؤون اللاجئين، ويجب عليّ تسليمه خلال فترة وجيزة.

---

(٣٠) وتتساءلين لمَ ينغلقون على أنفسهم، ويتعصبون لأقلياتهم.

بناء على مخطط المشروع الذي وضعه بيير، كان عليه أن يعمل أيضاً على الآشوريين والأكراد والتركمان كأقليات إثنية، ثم على الإسماعيليين والعلويين والدروز كأقليات طائفية. ولربما، حسب ما كان يأمل، كبر المشروع أكثر، واستطاع الإبحار أعمق في تفاصيل مذهبية وعشائرية أكثر دقة. لكن مشروع بيير تمّ إيقافه فجأة بقرار أمني بُلّغ به عن طريق السفارة، وهُدد إن هو استمر في الأمر أن يُرحّل خلال أيام معدودة إلى بلاده. الأمر بالطبع جعل بيير يكفّ نهائياً عن البحث.

وقت وصلت إلى جسر الرئيس ونزلت لتستقل سيرفيس دمر البلد، كانت عنات تفكر بأن ما حدث لن يعرفه أحد وخاصة جواد. لا تريد جرحه بحال من الأحوال وهو مرمي هناك في السجن. وليس من داع لاختبار رقيّه وممارسته الحضارية! ولا داعي لانتظار تفهمه للأمر. ليس هناك من داع لانتظار ردود فعل الرفاق؛ أيّهم سيستوعب حالتها، وأيّهم سيسمها بالخائنة العاهرة.

الأهم من كل ذلك أنها تحب جواد، تحبه بحق، ولا تريد له أن يخدش. المشكلة أنها، في كل مرة يكون هناك رجل آخر، توقن بهذا الحب أكثر، ولن تدع التفاصيل تخرّب شيئاً بينهما.

وهي تصعد السيرفيس كانت عنات تقرر أنّ هذه العلاقة، إن استمرت أو لم تستمر، ستكون سرّها.. سرها الصغير الخاص.

مرّت مدة على مقابلة عمانويل جمّو.

اليوم في ممر السفارة لحظتُهُ. الحشد كان كبيراً للغاية، أكثر من أي يوم سابق، لكن رجلاً كعمانويل، يكاد يضيء وسط الجموع، لن تستطيع امرأة مثلي أن تمرّ دون ملاحظته.

كان يتكئ على الحائط بجانب لوحة الإعلانات كأنه ينتظر أحدهم وعيناه تلعبان على الرائح والغادي، وشعره الفاحم المضموم إلى الخلف يزيده حسناً على حسن.

ابتسم مومئاً حال رؤيتي.. كأنه كان ينتظرني أنا.

ـ كيفك عمانويل؟

ـ الحمد لله آنسة عنات.. تتذكرين اسمي؟!!

تمنيت أن أقول: وهل مثلك من ينسى! لكني جبنت عن قولها.

ـ آسف لما سببته لك في ذاك اليوم من ضيق.

ـ لا أبداً.. ستتأخر الموافقة على طلبك.. ما زال الوقت مبكراً ليأتي الرد.

ـ أعرف.

وقف مسدلاً يده اليسرى إلى جنبه دون حراك.

ـ جلبت لك هذه.

ومدّ يمناه بمجلّة ملفوفة ملونة. كان ينتظرني إذاً!

وأنا أتلقف المجلة وأفلشها طالعني اسمها الغريب: الكلمة. مجلّة تصدر باللغة الكلدانية في سان دييغو.

ربما بدا الاستغراب على محياي حتى بادر عمانويل بالقول مرتبكاً إنه أرادني أن أتعرف إليهم أكثر.

ـ لكني لا أقرأ الكلدانية!

ـ أترجمها لك.

ـ ...!!

لا أعرف إن كان عمانويل قد لحظ خاتم الزواج في إصبعي. أو إن كان قد انتبه إلى بطني الآخذ بالعلو. لكن فرحة غريبة ومفاجئة اجتاحتني لتجعل جسدي كله يقشعر. مرّ وقت لم أشعر فيه بتودد رجل، رجل ساحر كعمانويل يجعل قلبي ينتفض كعصفور. لم أشعر إلا وأنا أمسّد بطني. يبدو أنه لم ينتبه للحركة، وبدأ حديثاً

غريباً ومقحماً عن أصول اللغة الكلدانية، لغة المسيح الآرامية، وعن أحقيتهم بالتعليم والإعلام الكلداني في ظل حركة تعريب شرسة تطال كل الأقليات الكردية والآشورية وغيرها.

ـ أستغرب آنسة.. هذا العدد الكبير من البشر، وهم بأغلبيتهم غير سوريين، لماذا؟ ألا يوجد سفارات كندية في بقية البلدان؟

كان علي أن أشرح لعمانويل أن السفارة الكندية في الشام هي ثاني أكبر سفارة كندية في العالم، بعد السفارة في الصين، لذلك فمعظم طلبات اللجوء في منطقة الشرق الأوسط وجنوب تركيا وشمال شرق أفريقيا وحتى جنوب إيران تعالج في المرحلة النهائية هنا.

ـ طيب عزيزتي.. هل نستطيع أن نتكلم أكثر؟ في مكان ما مثلاً..

ربما ظهر التردد على محياي من حميمية مفاجئة أبداها عمانويل. لم أجب. شحب لونه، وراحت عيناه تغوصان في أسى شفيف مما جعلني أصيح دون إرادة:

ـ طبعاً.. تعال إلى الكافيتريا.

لدي نصف ساعة قبل أن يبدأ جو بالمقابلات، لذا كنت أستطيع استغلال الوقت في التملّي بسحر رجولي آسر.

جلّ حديث عمانويل كان يتمحور حول القضية الكلدانية!!

لسبب ما كنت أنتظر غير ذلك! ولم يحدثني بشيء آخر. كان يرشف قهوته بيمناه، ويتابع الحديث دون توقف. ظِلّ ابتسامة دائمة يلوح على شفتيه المكتنزتين المثيرتين.

في جزء من الحديث، وقت لـمّحت له بقلّتهم مقابل أكثرية عربية في العراق، احمرّت سحنته البشوشة، وراح الاضطراب يمور بين كلماته.

ـ أنت غلطانة آنستي.. غلطانة.

ـ ...

ـ نحن الكلدان نشكل القسم الأكبر من الآشوريين، مع النساطرة والسريان، نشكل ٣,٥ بالمية من عدد السكان.. والأكراد ٢٠ بالمية غير الأقليات الأخرى. يحق لنا أن ننوجد ونحن حماة الحضارة الأولى.

ـ ...

ـ عددنا بالعراق وحده آنستي ٧٠٠ ألف، وبسورية ٣٥ ألفاً، غير إيران وروسيا وأميركا وأستراليا...

ـ ...

اكتشف عمانويل أني لا أعرف الكثير عن الكلدان، مما جعله يعدني بجلب كاسيت سُجلت عليه حلقات من كلمة الأب عمانويل بوجي في إذاعة صوت الكلدان الأسبوعية.. وطمأنني أنه يلقيها بالعربية.

ـ عمانويل أيضاً!!

ـ والدي عاشق حتى العظم للأب عمانويل، لذلك سمّاني باسمه.

لم أرد أن أبحر أكثر، فالحديث لم يكن يهمّني البتة، وأنا أغدو يوماً

عن يوم أكثر توتراً واستفزازاً كلما راح ملاكي يكبر داخلي. ندمت لأني جعلته يسهب في حديثه بتعليقي التافه. كنت أناظر ساعتي بشكل متسارع وعمانويل قبالتي لا يكفّ عن الحديث.

ربما انتظرت منه مبادرة أخرى، ولربما كنت استجبت لتلك المبادرة بشكل ما. ما لي ولحلقات ذاك الأب الكلداني؟ وتلك المحاضرات المستفيضة عن تاريخ الكلدان؟!

أكره التاريخ.. تاريخ أيٍّ كان! التاريخ قشّة نتعلق بها كي لا نغرق وسط قناعتنا العميقة بأننا مرميون على هامش الحضارة. هذا هو التاريخ باعتقادي.

كانت هذي مشكلتي مع أبي وهو يحاول تلقيني تاريخنا أيضاً، تاريخ أقليتنا الطائفية، وتاريخ السوريين الأوائل في المنطقة. فجأة يصبح كلامه جاداً للغاية، يثخن صوته وهو يدفع إليّ بمخطوطة قديمة يبدو العفن متطايراً من بين أوراقها المصفرة، خشيت أن تترمد بين يديّ عند أول حركة.

ـ مجنون أنت حسن؟! بدك ياها تنمسخ بقرة!!

تصرخ أمي مرتعبة وهي تراه يعطيني تاريخ الطائفة وفيه أوليات الديانة.

هنا فقط اجتاحني فضول القراءة. أخفيت المخطوط عن عينيها، وخرجت تاركة إياها تواصل صراخها مع أبي. ربما كان يتمنى أن أكون رجلاً كي يستطيع تلقيني ما يشاء. أما وأني بنت، فسيقف كل من يعلم بفعلته ضده.. بنت وتتعلم الديانة! يا للعار. إنه يناقض كل أعراف الطائفة واعتقاداتها، وما جاهدت للتمسّك به طوال

مئات من السنين.

ـ الذي لا يعرف تاريخه لا يستطيع أن يمشي أبعد من أنفه!

يصبح أبو حيان فجأة رجلاً آخر. وحين أحاول تذكيره بماضيه الرافض يجيبني:

ـ لا.. التاريخ شي آخر. تاريخنا يعني جذورنا، وبدونها سنطير عند أول هبة هواء!

ـ جذور متعفنة..

أجيبه وأمضي. ثم أتذكر شيئاً فأعود إليه، وأراه يضحك.

ـ قصائد الحب التي تحفظها، والتي تتحفني فيها بكل مناسبة.. القصائد التي أحسّها لا تنتهي، أحلى شيء فيك..

يقهقه أبي فحسب.

ـ وهي وحدها تاريخك، تأكد من هذا!!

لا أحب أن أخوض في هذه النقاشات العقيمة. على كلٍّ، أن أقرأ تاريخ أقلية، مكتوباً بقلمها، أمر سيجعلني أطّلع على آراء أخرى، وربما على دروب مغايرة أجهلها! وقد عملت كتب التاريخ المدرسي على حشو رؤوسنا بالتاريخ الرسمي فحسب، تاريخ المنتصر، تاريخ السلطة التي تغيّب كل ما يمكن أن يعكّر صفو سفرها الأسطوري.

لكني أكره التاريخ على الرغم من ذلك!

أعتقد أن الرواية مثلاً قادرة على حفظ الحقيقة أكثر. هي غير مسوّرة

بالقدسية التي يملكها التاريخ، ولن يتهمني أحد بالتجديف والخيانة إن لم أحفظ مقاطعها عن ظهر قلب ولم أؤمن بأبطالها الأسطوريين. ثم إنها تستطيع أن تؤرخ الأحداث عبر كل الألسنة وبكل الألوان.

لنقل إن الرواية هي الوجه الآخر للعملة، تشبه بشكل ما قصص اللاجئين التي ترد إليّ كل يوم، حيث لا أحد يمتلك الحقيقة وحده فالجميع محقّون، وحيث لا أحد يحتل المتن، لأن النبش والكشف والفضح المرتبط بالهامش هو ديدنها.

ـ أليست ثلاثية إدواردو كاليانو: «ذاكرة النار» هي تاريخ الهنود الحمر الحقيقي؟! وليذهب إلى الجحيم كل التاريخ الرسمي.

تمنيت أن أسأل عمانويل.

أنا أعتقد أن باسترناك مثلاً، وربما أليكسندرا كولينتاي وإيتماتوف، كانوا أشد صدقاً وتعبيراً عن واقع الحياة السوفياتية من كل كتب التاريخ التي كتبها ويكتبها الأقوى والمنتصر دوماً.

ـ ما رأيك أنت؟

رمقني عمانويل بصمت. كنت أحسّ بخيبة الأمل المدفونة في نظراته.

ـ حتى إني لا أستطيع تخيّل الهند إلا من مشاهد وتفاصيل في «إله الأشياء الصغيرة»!

ـ ...

ما زلت حتى اللحظة لا أعرف إن كان مكزون السنجاري قائداً أو صوفياً؟! ولا أريد أن أعرف. على الرغم من أن أبي لا يوفر فرصة

كي يعيد على أسماعي أننا أتينا مع جيوش السنجاري من العراق إلى جبال العلويين في القرن الثالث عشر لنصرة إخواننا بعد أن فتك بهم الأيوبيون والإسماعيليون!

لا أميّز مقولات الإمام علي من شعر ابن الفارض الصوفي! ولا أريد أن أميّز. حتى أسماؤهم حفظتها من كثرة تكرارها على مسامعي.

ليهنأوا بتاريخهم، بختلاته وسراديبه، بهامشه ومتنه، وليتركوا الحاضر لي ولأمثالي. تنتابني أحياناً رغبة بتقبيل يد من يلقي عليّ محاضرة في التاريخ، وأن أتوسّله كي يبعد عفن تاريخه ورطوبته عن حاضري.

لسبب ما كنت أزداد توتراً على الرغم من أنه يفترض بي أن أكون فرحة وذاك الوجه البديع أمامي. فرحة وأنا أتلقف اهتمام رجل، بكل ما للكلمة من معنى، وبكل جوارحي بعد أن كدت أنسى هذا الشعور.. لكن..

ـ أنا آسفة عمانويل، ينبغي أن أذهب.

ـ الآن!!.. هل أقدر أن أراك غداً؟

ـ لا أظن عزيزي.. إلى اللقاء.

ـ بعد غد مثلاً؟

ـ ...!!

ابتعدت بمشية أقرب إلى الركض وكأني أهرب من رجولته الطاغية، أو أهرب من شعوري المتزايد بحاجتي للرجل وبإخفاقي معه أيضاً.

أفكر أحياناً بأني فاشلة بامتياز في علاقاتي مع الرجال. حتى ذاك

الذي انتظرته طوال خمسة عشر عاماً ذهب تاركاً إياي دون أية طاقة على معرفة رجل آخر، دون أية طاقة على خيبات جديدة. أحياناً أتمنى أن يبارحني كي أستطيع أن أحيا بمعزل عنه؛ أن أحب وأعيش أنوثتي دون شعوري المقيت، الذي لم يفارقني يوماً، بالذنب.

لكنه مسكين على أية حال.. مسكين جواد. ليس سهلاً بحال أن يخرج دون عمل مجرداً من حقوقه المدنية، محمّلاً بذاكرة وسمت كل حياته المقبلة، لتتحول الدنيا إلى سجن كبير كبير.

راحت رغبة ملحّة ومفاجئة في حكّ بطنها، الآخذ بالانتفاخ، تسيطر على عنات. ثم لامت نفسها لأنها نسيت دهن بطنها بمرهم الترطيب اليوم. ثم لامت نفسها أكثر لأنها تأخرت عن المقابلات.. تأخرت كثيراً.

ـ التجاعيد تزنّر عينيه، تجعل اتساعهما السابق مجرد حلم بعيد. التجاعيد.. التجاعيد تحاصرني.

ـ لمن هاتان العينان؟ لا أعرفهما.

ـ ذاك البريق الذي كان يربطني بسلاسل فضة إليهما، ما الذي حلّ به وبفضتي؟

ـ إنهما أكثر جفافاً من قطعة خبز متعفنة. لمن هاتان العينان؟.. رائحة بشعة.

ـ الطيّات تتدلى أسفل البطن، تتهدّل، وتجعلني أتهدّل معها. تكاد تصل إلى خصيتيه.

ـ لجلدها ملمس حرشفي غريب!

ـ أين كل تلك الغواية؟

ـ لمن هذا الجسد المسجّى أمامي؟ لمن؟

ـ بارد كليالي الصقيع، هامد كأنه لم يكن يوماً يشعلني بنأمة، ناءٍ كأني لم أخبره يوماً!

ـ ...!!

ـ أين اليدان اللتان حلمت بهما تكوران أنوثتي كما لياليّ؟ يدان تجوسان تفاصيلي، تحملان المتعة إلى كل خباياي.

ـ لمن هاتان اليدان الساذجتان؟ أين امرأتي الشبقة؟! لأنفاسها رائحة غريبة.

ـ شفتاه أشبه بقش يابس. آه لتلك الطراوة القديمة، كم أفتقدها!

ـ لا تكاد كفاي تدوران ثدييها! كتلتان متهدلتان لا تمتان بصلة لصدرها العارم الماضي، ما الذي فعلته السنوات بها؟!

ـ تلك الخرقة المتهدلة بين ساقيه، كيف استبدلوا بها ساريتي المجنونة؟!

ـ أين نار معبرها؟ أين أنت يا تلك النار؟

ـ ما الذي حل بك يا حلمي؟

ـ آه يا إلهي.. أين هي امرأتي؟

ـ آه يا إلهي أرجوك أعد إلي رجلي القديم..

ـ ...!!

ـ لقد بدّلوه.. بالتأكيد بدّلوه.

كانت قد مضت عدة سنوات على خروج إياد الشالاتي من المعتقل حين عثرت ميّاسة الشيخ على هذه الحوارية منشورة في مجلة ما نُزع الغلاف الخارجي عنها.

لوهلة اعتقدت أنها مكتوبة عنها شخصياً. طوتها ودسّتها تحت المخدة. كانت تخطط ليقرأها إياد أيضاً، لربما جعلهما ذلك أكثر قرباً، وربما دفعتهما تلك الورقة كي يفكرا أكثر بكيفية إصلاح الأمور بينهما، أو إنقاذ هذه العلاقة التي راحت تحتضر.

في السنة الأولى كان يستمتع إياد بأن يندسّ في الفراش عارياً تماماً. يجوس جسدها، يدخل كفيه في الطيات والمداخل، يهمس في أذنها بكلمات أشبه بالدعر، ويحكّ عضوه المتوفز بوجهها وصدرها.

نفرت من حركاته، كانت تشعر بجسدها متشنجاً!

منذ اللحظة التي التقيا فيها، في ليلة إطلاق سراحه، وحتى اليوم جسدها متشنّج. ثمة شيء ما يلجمها عن فعل ما يريده. تحسّه أحياناً فاحشاً بطلباته المتهتكة، بحركاته وصوته. لكنه لم يكن قادراً على فهم ذلك، ثمة غلالة من خجل ينبغي أن تبقى موجودة، غلالة ينبغي أن تبقى كي تظل الأنوثة مشوبة بالغموض، كي لا تنكشف خصوصياتها الجالبة للغواية. كان من المفترض أن تصلّب ميّاسة المسافة بين الذكورة والأنوثة كي يبقى التأجج بينهما قائماً.

لم لا نستطيع أن نمارس الحب بشكل عادي. تتمدد فوقي فحسب دون كل ذلك القرف. ينتهي الأمر بسرعة، ولا داعي لأن نبقى الليل كله في ممارستنا. الأمر يضحي منهكاً، قالت.

إياد يرى الأمر مغايراً تماماً!

في السنة الثانية راح يكرر أسئلته المترجية عما إذا كانت قد كفّت عن حبه؟ يعيد حبه المجنون على أسماعها، ويتساءل ما الذي أصابها. فيما هي تشعر به شاذاً في بعض الأوقات، يدفن وجهه بين فخذيها متنسماً الرائحة لاعقاً سوائلها الشحيحة، ويطلب منها فعل المثل! أحياناً يدسّ عضوه بين نهديها الصغيرين، ويطلب منها تقريبهما من بعض كي يستطيع أن يحكه باستمتاع حتى يصل النشوة بوضعيته تلك. ينتفض طويلاً فوقها وهي تحسّ بجسدها يشمئز، وتجاهد كي تبقى صامدة تحته حتى ينتهي. ثم يبدأ بدهن سائله على صدرها مضمّخاً نهديها ورقبتها وكتفيها به. وحين يحاول أن يدس قطرات منه في فمها تشعر بأن حالة من الغثيان اجتاحتها فجأة، وجعلتها تنتتر من تحته راكضة إلى الحمام بعريها.

ذات ليلة اقترح أن يلج فيها من الخلف محاولاً إقناعها بلذة ذلك.

وصل الأمر به إلى فرد كيسه الخاص، الذي كان يخفيه في غياهب الخزانة، وإخراج مجموعة من الأدوات قبالتها. استطاعت أن تميّز عدة أعضاء بلاستيكية، أنشوطات، مراهم، وأشياء أخرى لم تميّزها، فقد قفزت على الفور من الفراش مستفزّة مصعوقة تاركة زوجها وسط أدواته وحطامه.

الأشهر الماضية مرّت كلها دون أن تصل النشوة ولو مرة. وإياد يجاهد عبثاً كي يمتعها بكل أساليبه المبتكرة. ذاك العري المتهتّك الذي يريده يرعبها، يجعلها تنكمش يوماً عن يوم، أجزاؤها تتصلّب، تتكلّس تحت ملمس جسده الحار.

ـ في مشكلة حبيبتي؟

أمسك بكفها، وراح يدعكها بأناة بين كفيه فيما هي تراقب التلفاز.

ـ قولي لي في مشكلة؟

ـ ...

هي حقيقةً لا تعرف.

في بعض اللحظات أوشكت أن تقول كل ما يمور داخلها، ثم تراجعت عن البوح. أن تبوح يعني أن تتعرى جوانيّتها أمامه، تتعرى بكلّيتها، الأمر الذي يجعل الرعب يدبّ في أمانها.

هل الحب هو كل ما تريده؟ تمنت أن تقول.

هل الجنس هو كل ما نستطيع أن نعبّر به عن حبنا؟ همّت أن تسأله.

كان مجرد نطقها يعني أن تفتح جدالاً طويلاً لا طاقة لها على خوضه. حين أيقن إياد أنها تلفّحت بالصمت ككل مرة، وتمترست وراء نظرتها التي تحدّق في الفراغ، ترك كفها وعاد إلى الفراش وحيداً.

في ذلك اليوم لم تعطه ميّاسة تلك الحوارية.

أخرجتها من تحت المخدة، ومزّقتها نتفاً. ثم قررت، في لحظة تجلّ، أن تنزع كل الصور التي ما برحت تطرّز جدران البيت الصغير. كانت هناك لسنوات طويلة، صارت جزءاً من تلك الجدران، جزءاً لا يمكن فصله عنها. لكن لسبب ما كانت تلك الأشكال والألوان الباهتة تذكّرها بكل سني العذاب المنصرمة، وتزيد من كآبتها اليوم. خاصة أن وجودها هناك لم يعد يحرّك شيئاً في روحها. على العكس صار يطعنها ببطء مثلوم.

ولّى ذاك الزمن الذي كانت فيه نظرة لينين، وهو يبتسم من على حائط الكوريدور، تجعلها تتسلّح بقوة لا يمكن النيل منها.

ولّى ذاك الزمان!

صارت تحسّ بأن رجال الجدران يخنقونها كل دقيقة، كأنهم يتحالفون مع حرّ تموز للقضاء عليها. حتى روزا لوكسمبورغ، صديقتها الأثيرة، تحوّلت إلى متشفية، وبهتت ألوانها القرمزية القانية، على الرغم من أن ميّاسة طالما أسرّت لتلك الصورة بما لم تستطع الحديث عنه لغيرها. كانت متأكدة من أن الظلال الحمراء تهتز متجاوبة!

ولّى ذاك الزمان!

نزعت ميّاسة الصور في صباح ما، نزعتها كلها. تكوّمت الملصقات العملاقة أمام باب المطبخ مجعلكة، وصارت الجدران مرقّشة. مكان الصور، التي بقيت سنين طوالاً، كان ثمة أمكنة باهتة حائلة.

حين عاد إياد الشالاتي في الساعة الثالثة صباحاً إلى البيت كان محمّلاً بعبء كبير. أغلال من الذنب تكبّل صدره وتجعله غير قادر على التنفس.

موجة من البكاء راحت تخز عينيه.

فتح الباب وهو يتهيأ ليرتمي عند أقدام مياسة طالباً صفحها. سيمرغ دموعه بساقيها، ويغسل بيديها عاره. لكنه حين رمق الجدران المبرقعة، ثم رمق ميّاسة التي تنتظره منذ أول الليل، نصف نائمة على الصوفا الكبيرة في الصالون، دخل لينام.

حينذاك كانت مياسة لا تزال تنتظره. بعد أشهر لم تعد تنتظره، صارت تنام مبكرة ليأتي هو ويأخذ أغطيته المطوية على طرف السرير، ثم يخرج بهدوء.

لسبب ما انزاحت عقدة الذنب عنه حالما تنسّم رائحة البيت: رائحة عطنة كوّنتها المياه على العفن وقد مسحت بها مياسة غبار الجدران.

الرائحة العفنة تغلّف كل أرجاء المكان وساكنته!

للحظات انمحت من ذاكرته تلك الغرفة وذاك الفندق المهلهل في زقاق جانبي من ساحة المرجة. انمحت من ذاكرته كل تفاصيل الليلة المنصرمة، وعادت بيضاء كما كانت.

قبل ساعات كان يضاجع مومساً تفتح ساقيها على آخرهما،

وصوت تأوهاتها الناشجة يصل حتى الشارع.

لمَ كانت تتأوه؟! هذا ما لم يعرفه، ذلك أن عضوه، ولمدة أربع ساعات كاملة، كان أشبه ببالون مطاطي مثقوب، عتيق مجعلك ومتهدل. لم ينتصب ولو لثانية واحدة.

لطالما حاولت المرأة أن تدعكه بين شفتيها السمراوين المكتنزين، تفركه بين كفيها مراراً وهي تناجيه بألفاظ فاحشة لم يسمعها يوماً، ولم تتخيلها ذاكرته الإيروسيّة! عبثاً عبثاً، ظل ذلك الحيوان الميت مصرّاً على جلب العار له.

كانت المرة الأولى التي يضاجع مومساً فيها. لكن ما فعلته تلك المرأة لم يتخيله إياد الشالاتي يوماً، هو الفخور بتخييله الإيروتيكي العالي على العموم. حتى ذاك الكاسيت، الذي قضى هو وأصدقاؤه أياماً بلياليها يستمنون على صوته، لم يثره كما أثارت خياله تلك المتهتكة اليوم. على الرغم من انقضاء سنوات طويلة منذ احتلّ ذاك الكاسيت مساحة الإثارة فيه.

كل تلك الإثارة ذهبت أدراج الرياح.

جعلته يفعل ما يريد. كانت ردة فعلها على طلباته الغريبة ضحكة متدللة، أو صرخة غنجة، أو تنهيدة. وبعد أربع ساعات طويلة راح العرق يتحبب على جبين المسكينة وهي تتراقص في الغرفة، ترفع مؤخرتها وتهزّها، وتستمني أمامه بإصبع من الشمع الأبيض.

بعد أربع ساعات طويلة تركته غاضبة وهو يدخل حالة مؤلمة من الإحباط والذنب. خرجت بعد أن أفرغت كل ما في جيوبه. تركت له خمس ليرات فحسب كي يعود إلى البيت بالسيرفيس.

لم يرض إياد تلك الليلة أن يعيد طلاء الجدران.

ترجّته مياسة طويلاً، وانقضت الساعات الباقية من الليل في محاولات فاشلة لإقناعه. كان الأمر تافهاً بالنسبة إليه، ثم من قال لها أن تنزع الصور؟!

إذاً، كان أمامها حلّان لا ثالث لهما، وهي اختارت الأسهل.

بعد أيام كانت ميّاسة قد ألصقت صورتين كبيرتين على الحائط سترت بهما مكان البقع المصفرّة: واحدة لإيشيزوكا مؤسس المايكروبيوتك، وهو يرتدي طقم سموكن أسود، والثانية لخليفته جورج أوساوا وهو يضحك، وقد كتب تحتها: المعلم الأول.

نظرتا الاثنين، على الرغم من تباينهما، راحتا تبعثان طمأنينة ما في أوقات ميّاسة، تملآن فراغاً راح يعشش في روحها.

أمّنا الأرض.. عمتنا النخلة!

هل كنت أحتاج إلى كل هذا الزمن كي أعود إليكما؟..

أمّنا الأرض.. عمتنا النخلة.

هل احتجت إلى كل هذا الزمن كي أؤمن بأني جزء من هذا الكون الذي حولي؟ جزء من السماء والأرض والشجرة. أؤثر بهما كما تؤثر بي. أنا جزء لا يمكن فصله عما حوله، صديقة لها. وجودي يحدّد وجودها، وذهابي يعني خللاً ما.

كيف احتجت إلى كل هذا الزمن كي أجد نفسي، كي أعود إلى نفسي؟! كيف؟!!

آه يا أمي الأرض.. يا عمتي النخلة!!

تستيقظ ميّاسة صباحاً وهي تحسّ برغبة عارمة في لقاء الاثنين في الصالون: إيشيزوكا وأوساوا.

يكون إياد نائماً. جسده الهامد على الصوفا جسد غريب وبعيد. باتت تسأل نفسها، يوماً بعد يوم، كيف يستطيع ذلك الجسد أن يجعلها تنفر بهذه الطريقة؟! ألا يحرّك فيها شيئاً إلا التقزز!

تلقي تحية الصباح على الملصقين، تتجه إلى المطبخ محاولة أن تثير أكبر ضجة تستطيعها علّ ذاك النائم يستيقظ، ويترك المنزل كعادته فور استيقاظه ليدعها تحلّق حرة في مملكتها.

هو أيضاً كان يبني مملكته خارجاً. وربما كان جزءاً لا يتجزأ من القضية برمتها أن يشاهدها، تلك المرأة السمراء التي اسمها لمى الحاج.

التقاها قبل مدة في سهرة عند أحد الأصدقاء.

وقت لمحها، وهي تشعّ في نهاية طاولة الشراب، لم يستطع أن يزيح عينيه عنها طوال السهرة. وحيداً كان، وهي بدت له وحيدة أيضاً، وضحكتها المحببة ترنّ في أرجاء المكان.

لم يستطع أن يشيح عنها ولو لرفّة، كان يرمقها طوال الوقت، يلتهمها بعينيه، يجوس مساحة وجهها الأسمر وتقاطيعها المنبسطة وعينيها الجميلتين الحادتين حدّ الفجور..

لا يدري حتى الآن ماذا فعلت به تلك العينان؟!

حتى إن أحدهم علّق ساخراً أن عليه إزاحة نظره قليلاً عن المرأة لئلا يصيبها بالعين. قهقهت لمى ضحكتها الرنانة كردٍّ غنجٍ على خجل إياد وإطراقة رأسه.

ـ لا تسمع له.. بصحتك.

ومدّت كأس النبيذ الأبيض لتطرق كأسه التي لم يتبق منها إلا رشفة عرق واحدة. أفرغها في فمه وابتسم كالأبله.

في آخر الليل كان إياد يلاصق لمى في مجلسها.

يشعر بأن جسده كله منجذب إلى جنبه، وأن قشعريرة عميقة سكنت كل أجزائه راح يعزوها إلى كؤوس العرق الخمس التي سكبها في جوفه. كان يلاصقها، يحسّ بحفيف فخذها، يغالب رغبة مجنونة في لمسها، بل لمس كل جزء منها، ابتداءً بوجنتيها، اللتين زاد الشراب من اتقادهما لتغدوا كمخمل عنابي اللون، وليس انتهاء بالجيب الدافئ الذي شكله بنطال الجينز الضيق بين فخذيها وهي تدسّ كفيها فيه كل حين، كأنها تدسّهما في وسطه هو.

كان مستثاراً بجنون حتى أنه اضطر إلى وضع الوسادة فوق بنطاله المنتفخ. هذا الأمر زاد في إرباكه، وخصوصاً حين بدأ رفاقه يتغامزون عليه، وبدأت لمى الحاج حديثاً غريباً بشكل مفاجئ، افتتحته بتوجيه السؤال إليه:

ـ قرأت رهاب التحليق لإيريكا يونغ؟

ـ لا.. ما قرأته!!

ـ تقول فكرة جميلة.

ـ ...!!

ـ تتلخص الفكرة في أنه على الرغم من أن الرجل يملك إضافة جسدية جذابة تسمى الذكر..

وأشارت لمى ضاحكة إلى حضن إياد ليتضاحك الرجال حولها.

ـ فالمرأة لديها حقل عجيب صالح لأي طقس، فلا العاصفة تعرقل خصبه ولا المطر ولا ظلام الليل.. إنه دائماً هناك..

ـ ...

ـ تخيّل مثلاً منظر جسد أنثوي وإلى جانبه عضو نائم؟

ـ ...

ـ الأمر مثير للسخرية فعلاً!! ما رأيكم؟

كان إياد يستمع فاغراً فاه. لسبب ما تذكر ليلة العار تلك في غرفة المرجة. لسبب ما أيضاً لم تجعله الذكرى يهمد، كان عضوه يكاد ينفجر وهو يراقب ساحرته ملاصقة له. هو لا يعرف حقيقة إن كان فاغراً أو لا! لكنه راح يحسّ بجوف فمه يزداد جفافاً، وأن ثمة حجراً قاسياً نزل للتو في معدته، ولمى بجانبه تزداد غواية وجذباً وقرباً.

نهاية السهرة أصرّ إياد الشالاتي على توصيل فاتنته السمراء إلى بيتها في حي الدويلعة.

انعطفا مع انعطافات الأزقة، دخلا في حارة وخرجا من أخرى،

وترنّحا ضاحكين على طول المسافات التي زرعت بالفرح والغموض. أخيراً عند باب حديدي طلي بلون رمادي محايد وقفت. كانت الساعة قد قاربت الثانية فجراً.

ـ ادخل.

قالتها بصوت خفيض. لسبب ما أحسّه إياد موحياً، بل إنه متأكد من أنه سمع كلمة أخرى منها، كلمة جعلته يدخل وراءها كمسرنم.

لم يتبين أي شيء من محتويات الغرفة. كان يحسّ الكون يلفّ به، يدور ويدور، ورائحة أنثاه تسكره، تجعله كذبابة ملحاحة تزنّ عليها. وهناك على سريرها الخشبي المرتب ابتدأ الطقس الذي طالما حلم إياد به. طقس وثني للذّة دون أية قيود.

تلك الليلة كثّفت كل ما سبق وحلم به إياد الشالاتي طوال سنوات طِوال في المعتقل. ليال وهو يشكّل سيناريوات لليلة مشابهة. يركّب حوارات متبادلة توقف شعر الأبدان. يستحضر مشاهد سكس مجنون متهتك. يعيد إلى ذاكرته كل ما سبق وشاهده في أفلام البورنو، كل ما قرأه، أو تلصص عليه في صور التعري. يهيئ لليله الوحيد حلماً يجعله لا يستطيع إخفاء إثارته اللاهثة عن رفيقه المستلقي على الفرشة الملاصقة. يتوجه بعدها إلى المرحاض آخر المهجع ليفرغ لذته بثوان، ثم يعود من جديد إلى فرشته عابراً عشرات الأجساد المستلقية.

على الرغم من تعليقات الرفاق الساخرة، وجملهم اللاذعة التي كانت تصاحبه وهو عائد من ممارسة العادة في المرحاض، إلا أنه لم يكفّ عن عادته الممتعة. كان يخلق في كل يوم حوريته الساحرة

التي تضيء أحلام يقظته، يبني معها قصصاً تجعل من الشيخ التسعيني صبياً في العشرين حين تطرق مسامعه.

في الأيام التي كان إياد ينام فيها دون طقسه الأثير كان يستيقظ وبنطال بيجامته غارق في بلله الذي تسرّب إلى الفرشة ولوّثها برطوبة لها رائحة نفاذة تفغم المهجع كله.

راح إياد الشالاتي يسرّ لشريكته بكل ذلك، يرمي بكل أسراره أمامها غير عابئ بأنه التقاها قبل ساعات ليس إلا، حتى أنه لم يفكر في الأمر! كان يداعب أصابع قدميها بلسانه، يحدثها دون توقف وهما هاجعان بعد جنون الجنس.

أنت تعرف أن الأطباء التاويين اعتبروا ممارسة الجنس جزءاً من النظام الطبيعي للأمور؟ كما أنهم لم يتمتعوا بالجنس ويتلذذوا به فحسب، بل اعتبروه نافعاً ومطيلاً للحياة أيضاً.

همست لمى.

ـ صدقوا.

ـ أنا أعتقد أن الجنس هو التعبير الوحيد عن الحب. وقت يتحول إلى فعل ميكانيكي وممارسة مملّة يكون الحب قد ذهب.. ما رأيك أنت؟

ـ ...

ـ هل لاحظتَ؟ نحن الآن كنا نعشق مثل المجانين.

لم يجب إياد. جذب جذعها إلى صدره وضمّها بقوة، ثم راح

يتنشق رائحة شعرها التي تشبه رائحة الخوخ الناضج.

كان يريد أن يقول لها: علميني يا أشهى معلمة في التاريخ.

لكنه خجل من أن يبدو كتلميذ ساذج. كان يشعر بأنه ابتدأ للتو بتدوين تاريخ لجسده، للتو ابتدأ بتكوين ذاكرة للمتعة، لسطوة الغواية التي انتظرها ولهانَ طوال سنوات طويلة.

كانت معلمته تتمطى متأوهة كاشفة ما تحت إبطيها الصقيلين المنزوعي الشعر. تلك الوضعية كانت كفيلة بإثارته مجدداً لينقض عليها عطشاً، لاعقاً لحمها البض وثنياتها المندّاة، فيما كانت تبادله شوقاً أكبر وأكثر استعاراً.

...

في الصباح فتح إياد باب البيت وولج.

ميّاسة مشغولة بإلصاق مجموعة من الأوراق على باب المطبخ، وعلى طول الكوريدور المفضي إلى الصالون. جداول تفصّل ما عليها أن تأكل وما الذي ينبغي تجنبه بحسب علم المايكروبيوتك. أوراق عليها الخضار المسموح بها، وغير المسموح بها، الحبوب، المتبلات، ومكونات أعشاب البحر المرسومة بعناية. أخيراً، وعلى باب الصالون، جدول يبيّن أمراض الين واليانغ، الذكورة والأنوثة، والكوارث التي تنتج من عدم التعادل بينهما.

رمقت ميّاسة إياد، وعادت إلى عملها بانهماك وصمت.

ـ آسف.. اضطررت أن أنام البارحة عند أصدقائي.

ـ ...

حين لم ترد اتجه إلى الصالون ليصطدم بالورقة الملصقة على بابه.

ـ معقول مياسة؟! هل علي أن أصطدم بأمراض السرطان في كل مرة أدخل فيها إلى الصالون؟

ـ ...

لم ترد ميّاسة أيضاً.

ـ هذا كثير ميّاسة.. كثير.. صار البيت لا يطاق. ما تفعلينه اسمه هوس.. هوس حقيقي!!

ـ ...

ـ الحياة في هذا البيت صارت جحيماً.. جحيماً بكل معنى الكلمة.

ـ لم يجبرك أحد على العيش فيه.

قالتها ببرود، ثم أكملت عملها بانهماك أكبر فيما كان إياد يغادر البيت تاركاً الباب يخبط وراءه مدويّاً.

جزء من رسالة[٣١]:

(...) نسيت أن أخبرك أمراً مهماً حبيبتي، أرغب أن أحكيه لك. البارحة اختلفت أنا وخالد على أولويات السجين. خالد يرى أن الترتيب ينبغي أن يكون على هذه الشاكلة: القضية، فالمرأة، فالحرية. وبأنه مهما حصل ينبغي ألا نتنازل عن قضيتنا التي هي في المقام الأول.

أما أنا فقلت: المرأة أولاً، فالحرية، فالقضية. ولو لم يلجمني خجلي لقلت: المرأة أولاً وثانياً وثالثاً. أي أنت عنات. لو كنت موجودة

(٣١) خرجت هذه الرسالة في صمدية، حفرها جواد أبو عطا من العظم، على هيئة غجرية مدللة، دسّ الرسالة في قاعدتها الخشبية. وكانت عنات قد أدخلت له قبلها رسالة في بطانة إحدى الجاكتات الشتوية التي بعثتها له إلى الداخل.

معي الآن في المهجع فلن آبه بالحرية ولا بالقضية، ليذهبا إلى الجحيم ونبقى أنت وأنا فقط وحدنا.

أشعر بأني أتمزق كل يوم بعيداً عنك عنات، لم أعرف أنك معجونة بأجزائي إلى هذه الدرجة. ألهث عطشاً لك. لكني الآن سأسرّ لك بأني ألهث عطشاً لحريتي أيضاً. يا ألله ما أجمل هذه الكلمة.. حرية!! أن تكوني ممتلكة لكل تفاصيل الأمكنة، حرة بالتنقل والعيش والحب وتذوق الجمال أنى يكن، ممتلكة لكل تفاصيل الوقت. جسدك لا تحدّه المادة، بل يحده الهواء. عنات حبيبتي.. أموت بعيداً عنك، بعيداً عن حياة كاملة ومؤجلة إلى زمن لا أعرفه، ولا أستطيع التكهن به.

أنت أولاً حبيبتي وثانياً وثالثاً، ومن ثم تأتي الدنيا كلها.

لكن الزمن يمرّ هنا كغمامة، غمامة ثقيلة ضبابية كثيفة وكتيمة اللون، أشعر بأني مجبر على الدوران فيها وهي تغلّفني. والزمن المتغير خارجاً، المتبدل والديناميكي، الفاعل بمعنى ما، يقابله هنا زمن ثابت واقف. أنا هنا خارج الفاعلية حبيبتي، مجبر على التجمّد في زمن ستاتيكي لا يتطور، كمن وضع في كبسولات التجمد وبعث إلى الفضاء. بالمقابل أدفع الضرائب التي عليّ: شعري غدا أبيض في معظمه، وأحسّ بعبء سنواتي الاثنتين والأربعين على جسدي الذي ينوء بها. السنوات تمر على روحي وجسدي كما تمر عليك خارجاً، بل إنها أثقل وأكثر جفاء.

البعض هنا يعدّون السنوات المتراكمة لا غير، يشطبونها من الروزنامة، يرفضون بحال من الأحوال أن يعتبروها من ضمن أعمارهم، يرفضون التعايش معها، والتعايش مع ما قُسروا عليه، أي

السجن. ربما كان هذا نوعاً من الاحتجاج.. ربما. لكني أشعر بأني مجبر على التعايش وإلا خسرت هذا من عمري. أحاول اعتبار هذا الزمن/ تحت الأرضي فسحة لإعادة تدوين حياتي، أو مجرد محاولات لتطويع ستاتيكية زمن سجني، وجعله ديناميكياً نوعاً ما. ربما بالقراءة أو بالكتابة أو بتعلم اللغات أو... بالحلم. الحلم يملأ فراغات روحي.. الحلم بحياة قادمة أبنيها وردية ندية تشبهك!!

اختلفنا أنا وخالد أيضاً في ما ينبغي فعله مع الحبيبة أو الزوجة. هذا الجزء بالذات أريد أن أحدثك عنه، أرغب أن نتناقش به حقيقة. خالد قال يجب أن نجعل القرار لها في البقاء أو الذهاب، يعني في الانتظار أو الحرية، وهي تتعرض كل يوم لاختبار بين وفائها لرجل غائب وقوة الحياة ورغبات جسدها الأنثوي..

تعرفين حبيبتي أقتنع بالمسألة وأخاف. أرتعب حين أفكر أو أتخيل أنك ستذهبين، على الرغم من أني أعرف كم هو أمر حقير ومهين أن تكوني، ومنذ إحدى عشرة سنة وإلى اليوم، بانتظار رجل بعيد، مجرد سراب يحيل حياتك إلى وهم.. وهم فحسب.

الانتظار!! أعرف كم تكرهين هذه الكلمة، وأعرف أن ما باليد حيلة، وأعرف أيضاً أني أحبك حدّ العبادة.

(...)

حبيبك

سجن صيدنايا

١٩٩٨

كيف سأنسى يوماً ذلك الوجه؟!! لونه البنفسجي يشي بانقضاء أيام طويلة على حاله.

كيف سأنسى وجه رقيّة الحبيب؟ رائحتها تملأ المكان، تدوّخني، تقتلني. كتلة حجرية مزرقة كانت. يداها متشنجتان. ساقاها قطعتا خشب عتيق.. وما زال غطاء رأسها الأسود يحيط برقبتها الممتلئة.

كانت أختي.. لا ليست أختي!

لا تشبهها!! جسد رقية لين ممتلئ، وهذه جسدها قطعة طوب. عينا رقية دافئتان حنونتان، وهذه لها عينا مومس، وقحتان، مبحلقتان في الفراغ.

رقية يا رقية!! يا حبيبتي..

كان مقبض الخزانة الفوقاني يهتزّ في الفراغ وقد قُطع تحت ثقل جسدها. لا أعرف ما الذي جعلها تقترف فعلتها هذه؟!

رقية رقية.. يا عمري!! ما الذي صنعته؟!

انتظرت يوم سفر زوجها وولديها، وفي المساء ربطت وشاحها الحريري الأسود بمقبض الخزانة العليا وشنقت نفسها.

اكتشفوها بعد أربعة أيام واتصلوا بي. رقية أختي الوحيدة، ولكنني لم أعرف أن حزنها سيقودها للانتحار. رقية مؤمنة ولن تقدم على عمل شنيع كهذا.. رقية مؤمنة!!

ـ محاولات الانتحار تصل إلى ١٦ حالة شهرياً في الرياض وحدها.

قالت لي الدكتورة المشرفة على معاينة الحالة، ثم غطّت قطعة الحجر البنفسجية بالشرشف الأبيض.

شدّي حيلك. قالت لي بصوت محايد وخرجت.

تركتني في المشرحة وحدي. لا ليس وحدي! عشرات الأرواح كانت تتطاير حولي، الأصوات، الصرخات، الأحاديث التي توغل في الصدى.. ورقية.

جثمانها الجميل لم يُصلَّ عليه. لم أستطع أن أغسلها، لحقتني النساء إلى الغرفة وأنا أهم بمسح جسدها بالمسك، صرخن عليّ أن غسيل المنتحر حرام.

لكنها رقية!! ورقية مؤمنة. لكن سعادات كانت ابنتها الوحيدة. لن

تفهمن الأمر.. لن تفهمنه!! ضمة سعادات الرقيقة السمراء شيء لا يمكن الاستغناء عنه البتة. ما طعم الحياة دون رائحة سعادات؟! رائحة تفوح من عباءتها السوداء وحقيبتها المدرسية الجلدية ذات اللون الخمري!! ما طعم الدنيا من دونها! من دون ثرثراتها، من دون صخبها، ومن دون قبلاتها وفتنتها! لن تفهمن ذلك!

كانت رقية تنتظرها كل بعد الظهر. يقلّها السائق إلى البيت، وتركض إلى أمها في الطابق الثاني.

أمها الزوجة الثانية.

في ذلك اليوم لم ترجع سعادات. كانت ضرّة رقية تصرخ من الطابق السفلي، وهكذا وصلها خبر احتراق المدرسة والفتيات فيها. في ذلك اليوم كانت الشرطة الدينية، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد منعت الفتيات من مغادرة المدرسة. اشتبكوا مع قوات الهلال الأحمر، ولم يفتحوا الأبواب.

احترقت الفتيات أمام أنظار الشرطة. خمس عشرة فتاة احترقن، ولم يُسمح لهن بالخروج لأنهن لم يكن يضعن الحجاب!! ولم يُسمح لرجال الهلال بلمسهن، فلمس النساء هنا في المملكة حرام. ماتت خمس عشرة فتاة في المدرسة المحترقة، وتشوهت العشرات منهن. وسعادات كانت من الخمس عشرة.

فتحت رقية باب البيت، واندفعت كالممسوسة إلى الشارع. لم تفكر ماذا ستفعل؟!

لمَ أتخيل شعرها الطويل الفاحم طائراً للمرة الأولى في الريح؟! الشمس تعكس بضّ جسدها من تحت الثوب المنزلي المكشوف.

هجم عليها رجلان من المطاوعة، وراحا يصرخان. لكنها لم تسمع. كانت تحاول الركض إلى وجهة ما، وربما إلى المدرسة أو... كان من الممكن أن تسجن رقية، لكنها لم تسجن. كانت أشبه بمجنونة منها بامرأة ساقطة تغوي الرجال في عزّ الظهيرة. هذا ما قالته لي حين رأيتها، ثم ضحكت. كانت بالفعل أشبه بممسوسة منها بأم مفجوعة.

لكن زوج رقية رفض رفع دعوى قضائية على رجال المطاوعة أسوة بمعظم الأسر المنكوبة. قال إن ما فعلته الشرطة كان لحماية الدين والأخلاق، وإنه يحمد الله لأن ابنته ماتت مستورة ولم تنج وتظهر مكشوفة منتهكة أمام الكاميرات.

لكن سعادات احترقت. وجهها الأسمر الناعم تحول إلى كتلة متفحمة بلا ملامح!!

اليوم أنا أحيا بدون رقية، وبدون سعادات أيضاً.

لأمي أصول سورية، تزوجها والدي في إحدى رحلاته إلى الشام. كان يستأجر البيت المجاور لبيت جدي في أول الطريق الصاعد إلى حارة الشيخ محيي الدين بن عربي. رآها تمدّ رأسها الصغير لتتناول أكياس الخضار من يد صبي البقال. أعجبته فخطبها، وتزوجها بعد شهرين.

دفع ثمنها ثم عاد إلى السعودية.

أنا لا أعرف أحداً من بيت جدي لأمي. لم نزر سورية ولا مرة. وحين بلغت الرابعة عشرة زوّجني أبي من ابن عمي.

كنت أقول لأمي حين تسألني عن الزواج إني لا أشعر بشيء حين يلجني.. اللهم إلا بألم فظيع في معبري، وحرقة مقيمة حين يقذف داخلي بعد دقائق من الممارسة. لا أشعر بشيء يا أمي.. هل هذا هو الزواج؟!

ـ وش تسولفي حبيبتي؟ أكيد رح يكون هيشي.. إنت مملحة.

ـ مملحة؟!

يومها فقط عرفت ما الذي حصل لي في أشهري الأولى، وربما في أيامي الأولى. أمي لم تعد تذكر التاريخ. قالت لي، وصوتها الهازئ على الهاتف يصعقني، إنها أمسكت بحفنة من الملح الصخري ولقّمت فرجي بها، ثم راحت تفرك حبيباته القاسية ببظري الصغير، تفركها بقوة.

بقيت أكثر من عشرة أيام أنزّ من الأسفل سائلاً من الصديد والقيح والدم. بعد أسبوعين تحولت المنطقة من اللون الزهري إلى البني الداكن. عندئذ فحسب كان قد تموّت كل حسّ في أسفلي.

في ذلك اليوم بقيت ذاهلة. حين عاد مهاود من العمل كان غاضباً جداً، فقد صادف اليوم عيد العشاق، والحكومة السعودية أصدرت أمراً بعدم الاحتفال بالعيد. اللجنة الدائمة للإفتاء، التي يرأسها مفتي السعودية، رأت أن الفالانتاين عيد مبتدع، عيد نصراني وثني، والأعياد في الإسلام هي الفطر والأضحى لا غير!

مهاود يملك متجراً، بل متاجر، لبيع الورد. وكل ما خطط له لتصريف المئات، بل الآلاف، من الورود الجورية الحمراء في الفالانتاين بأضعاف ثمنها باء بالفشل.

لا أذكر لماذا بدأ بضربي! لا أذكر البداية. لكنه أمسك بشعري وراح يجوجحني في الهواء. كان يكيل لي الضربات أمام طفليّ، يشتمني، يشتم الساعة التي تزوج عمه بأمي، والساعة التي قرر فيها أن يقضي الصيف في دمشق. يركلني، يشحطني، ويوالي قذف بصقاته عليّ. ثم ضرب وجهي بالحائط. أحسست بأن روحي خرجت من فتحتي أنفي، وانبثق الدم ملوثاً ثيابي والمكان. حينها فحسب تركني هامدة على الأرض.

أنفي اليوم مكسور. لم يقبل مهاود أن أخضع لأية عملية تجميلية. ما زال أنفي مائلاً وأكبر مما كان بمرتين. واليوم صار عمر قيس أربعة عشر عاماً، وعمْر أخيه عمَر اثني عشر عاماً. أحسّ بأنهما نسخة مصغرة عن مهاود. ربما لم أستطع أن أبعث فيهما أي شيء مني، وربما كان الأمر أكبر مني بكثير. إنهم رجال في الشارع، والمدرسة، وعند الأسرة، وفي بيوت الأصدقاء. وأنا هنا سجينة بيتي منذ ولادتي وحتى اليوم. لا أستطيع الهرب أو طلب النجدة، لربما أوقفوني في الشارع وضربوني. كان عليّ أن أتحمل الضرب بصمت لأن صرخاتي ستكون كفيلة بإشعال الشماتة في أذن كل من يسمعني.

رحت أقضي الوقت الأطول وحدي. قيس وعمر في المدرسة، ثم في نادي الفروسية، أو مقاهي الإنترنيت، أو في جولة ذكورية مع أبيهما وعمهما. أقضي معظم النهار والجزء الأكبر من الليل وحدي، هذا ما جعلني أتعرف إليه! كان اسمه كريم، كريم مردم بيك. اسم لن أستطيع محوه من قلبي ما حييت.

تعرفت إليه أثناء إحدى جولاتي الطويلة في التشاتينغ. كان دمشقياً يسكن في السعودية. من دمشق مدينتي الحلم! لا أدري لم كانت حلماً بالنسبة إليّ! كنت أتخيل خالاتي وجدي كملائكة منزلين من

السماء، وشوارع دمشق نيرة وأرصفتها نقية مشمسة. كريم كان يعمل مع إحدى جمعيات حقوق الإنسان. لا أعرف بالضبط ما الذي كان يفعله، وما هي الجمعية التي ينتمي إليها!! لكنها، حسب ما أخبرني، إحدى المنظمات السورية المعارضة التي تعمل بشكل سري.

بعد ثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً وخمس ساعات من بداية أول محادثة لنا على التشاتينغ أخبرني كريم أنه سيعمل على تهريبي من السعودية.

لم يكن طفلاي بحاجتي. أصبحا رجلين سعوديين بامتياز. مهاود لم يكن بحاجة إليّ كذلك. كان يشتم جسدي البارد، ويشبّه معاشرتي بنيك جثة متفحمة.

لم يكن أحد بحاجة إليّ. لو كان هناك لبقيت. إنها واجباتي على أية حال، واجباتي كامرأة في هذا الكون. أليس كذلك؟!

لم يكن لدي جواز سفر. ولم يكن ثمة أي مبرر لإصدار جواز سفر لي. كيف سأبرر الأمر لمهاود؟ ثم إني امرأة سعودية لن أستطيع السفر بأية حال دون موافقة خطية من زوجي أو ولي أمري!! ودون مرافقة كذلك. كانت معضلة حقيقية. كيف سأهرب إذاً؟!

ذات صباح دقت على باب بيتي امرأة سوداء بكاملها. دخلت البيت فجأة، أماطت النقاب عن وجهها، وحدثتني بلكنة شامية محببة.

كانت رنيم. فتاة ثلاثينية بوجه مشرق ضاحك، جسد صغير، وانطلاقة تشبه سرحان المها في السهوب. لها رائحة أهل الشام،

وصوت كريم الذي سمعته من الهيدفون وهو يمطرني بالحب على التشاتينغ. في ما بعد اكتشفت أنها أخته!

حملت رنيم إليّ في ذلك اليوم جواز مروري إلى الخلاص؛ ورقة بعثي إلى الحياة. كانت تصطحب معها أملاً بالعيش، أملاً حمله كل سنتيمتر من جواز السفر المزيف الذي جلبته لي.

وهربت!!

واليوم أنا هنا! بعيدة عن كل ما كان. بعيدة كأني من زمن آخر، أو كأن حياتي تلك كانت مجرد كابوس طويلٍ طويلٍ استيقظت فجأة منه. استيقظت منه وأنا أدخل ثلاثينياتي.

أراقب إحدى المحطات الفضائية في بهو السفارة الكندية بدمشق. لا أتلفح كالعادة بعباءتي السوداء، أرتدي طقماً من الجوخ الرمادي بأكمام طويلة، ووشاحاً أبيض أستر به رأسي. في الفترة الأولى لسكني هنا لم أكن أستطيع المشي في الشوارع وحدي. كنت أشحط أغلالاً ثقيلة تقيّد قدميّ وتثقل سيري، أشعر بأن جسدي بكامله مقحم علي، مقحم على الحياة بأكملها. رنيم تجاهد كي تقنعني بالسير كبقية النساء من حولي، وليس كجمل صحراوي بحدبة. تجاهد كي تقنعني بأنّ الكون مليء بالأجساد النسائية التي تعيش، تضحك، تتحرك، تتنفس، تتكلم، وتشغل حيزاً من الفراغ، وليس ثمة من مشكلة.

أغلالي تضيق على رسغي، وتشدّني بقسوة إلى الأرض.

تبثّ المحطة الآن صور مظاهرة في العاصمة السعودية! كأن الأمر قصديّ ومخطط له! هل يحاول القدر أن يكبّلني بقيود أخرى،

بالحنين، بعقدة ذنب الأمومة، بالواجب، بالأخلاق التي انتهكتها وهربت؟

الشرطة تفرّق المتظاهرين بأعقاب البنادق والهراوات، وأنا أراقب جموع البشر تمرّ أمام بيتي. ألصق عيني بالشاشة علّي ألمح قيس أو عمر، ولو بالصدفة يمران من هناك!

الصورة تغيم، ذلك أن دموعي احتشدت مسدلة ستارة مشوشة أمام ناظري. يا الله كم اشتقت إليهما! حبيبي يا قيس.. حياتي يا عمر..

كانت ذكرى افتتاح مؤتمر لحقوق الإنسان نظّمته جمعية الهلال الأحمر السعودية. يبدو أن حركة الإصلاح الإسلامية، وهي جماعة معارضة سياسية، هي التي دعت إلى هذه المظاهرة.

قيس.. عمر.. يا عيوني.

هل يحنّان إليّ؟ أم مَحَواني من ذاكرتهما كما مَحَواني من أوقاتهما قبلاً؟

ممثلة هيومن رايتس ووتش تقول: إن اعتقال السلطات السعودية للمئات من المتظاهرين المسالمين، واستمرارها في حرمان المواطنين من حقهم في حرية التعبير والتجمع يظهر أن عدم جدية وعود المملكة بالإصلاح السياسي.

ممثل الحكومة يصيح من مكتبه أمام الكاميرا: إنها اتهامات مغرضة لثلة يريدون بلبلة الأمن في البلاد.

وأنا أراقب كأني في زمن آخر وحياة أخرى.. يا إلهي!!

اعتقل ٢٧١ شخصاً في ذلك اليوم، ثم أطلق سراحهم بعد أيام. وأعلنت الحكومة أن ٨٣ من المعتقلين سوف يُقدَّمون للمحاكمة، من بينهم ثلاث نساء.

في ما بعد اكتشفت أن كريم كان من ضمن الذين قدّموا إلى المحاكمة. اعتقلوه وهو يقود المظاهرة منفعلاً صائحاً غاضباً وشجاعاً.

بعد دقائق سيأتي دوري لأقوم بمقابلتي المنتظرة. سأدخل مكتب المدير الكندي لأعرض عليه حياتي: سأفرشها أمامه كما كنت أفرش كل يوم شراشف الأسرّة. سأستميت لأجعله يتأثر بقصتي كما كنت أستميت لأرقق قلب مهاود الغاضب علي.

سأ... عليهم أن يقبلوا طلبي للجوء..

عليهم أن يقبلوا وإلا...

كانت تحاول قراءة شيء ما على إحدى الأوراق المعلقة وهي مستلقية على السرير. تحاول أن تتذكر طريقة تهريبها من الداخل.

يا إلهي كيف مرّ كل ذلك الوقت! تشعر أحياناً بأنه حلم ليس إلا.. جواد الآن هنا وليس هنا!

تعرف! حين كنتَ هناك، وكنت أراك مرة في كل شهر أو شهرين، ومن وراء الشبك، كنت أكثر سعادة، أكثر سعادة بكثير! ربما لأني كنت أنتظر حباً سيأتي، أهيّئ له حياتي وأوقاتي كي يعود، وحينها كنت سألقي أمامه كل سنيّ الهاربة، ألقي أمامه كل وعود الفرح، وشبابي الذي رشح مني بانتظاره. كنت أمنّي نفسي بالكثير..

وخرجت. لكنك متعب أكثر مني جواد! ماذا سألقي أمامك؟ قل لي..

كل تلك السنوات عملت على صبغ الأوراق والرسائل المعلقة بلون أصفر حائل، وراح بعضها يتهاوى: رسم بورتريه لعنات كان جواد قد حفره على قطعة خشبية بيضاوية الشكل. صورة للشيخ إمام رسمها أحد رفاقه. فيما بقيت صورة جميلة العلي فوقهم محافظة على رونقها القديم في إطار ذهبي متكلّف.

ـ جميلة كانت هذه الجميلة..

هتف جواد أبو عطا بتعليقه المعتاد كلما لمح الصورة وهو يلج الغرفة. فيما جميلة لا تزال هناك، تنظر إليهما بعينين خضراوين مبطنتين وفم مزموم ووجه ملائكي أبيض.

نظرة مليئة بالاعتداد الذي ما فارقها يوماً.

ـ هل يعقل أن يكون الشيء الذي نعشقه سبباً لنهايتنا؟!

تسأل عنات غامزة إلى أمر مبطن. يصمت جواد محاولاً عدم خوض نقاش قد يتحوّل إلى مشاجرة.

ـ لم تجبني!.. هل من المعقول أن يتحول هاجسنا إلى مقتل؟

ـ ممكن!

ـ أقصد أمي.. كل ذاك الفخر والكبرياء كان سبباً لنهايتها. أعتقد أنها لم تستطع أن تتحمّل فكرة عجزها، أو أن يكون هناك من يخدمها.. أفكر أحياناً أنها ماتت بقرار! الأطباء قالوا إنهم سيطروا على السرطان وإنها ستعيش وقتاً أطول.. لكنها ماتت بعد أشهر.

ـ ...

لمَ ينجح أي شيء تقوله عنات في تذكيره بالسنوات الخمس عشرة

التي انتظرته فيها؟ لمَ تستطيع أية كلمة أن تجعل ريحاً تمور داخله؟ ريحاً تفتح عليه بوابات لا يستطيع إغلاقها على الرغم من رغبته بذلك.

كان جواد يصيح: لقد مللت.. مللت.. إلى متى؟

ـ من ماذا؟!!

ـ مللت من تذكيرك الدائم بالذي عملته من أجلي.. يا ستي والله فضلك على رأسي. انتظرتِني خمس عشرة سنة.. طوال طوال والله بعرف. لكن ما ذنبي. أنا ما ذنبي؟ هل تظنّين أنني كنت سعيداً في السجن؟!!!

ـ جواد ما بك؟ أنا لا أذكّرك، الأمر صار بالنسبة إليك مثل الهاجس. أنا أتحدث عن أمي!

لكن جواد لم يصمت، صار يصيح كالمسوس أن عنات منذ إطلاق سراحه إلى الآن، وقد مرّ ما يقرب السنة على ذلك، لا تملّ في كل مناسبة عامة أو خاصة، وحدهما كانا أو محاطين بالعشرات، من توجيه الغمزات والتعليقات، مبطنة وواضحة، عن انتظارها له وتضحياتها الكبيرة..

يكفي عنات، أنا أموت.. أموت. تقتلينني بعقدة الذنب. أنا مكبّل عنات مكبّل.. ألا ترين؟

حين علا الصراخ أتى أبو حيان مهرولاً من الصالون.

ـ رجعتم للحديث عن السفر؟

يسأل متردداً وهو ينقّل نظراته رامقاً وجه عنات المحتقن المقلوب على

السرير ووجه جواد الذي يدور في الغرفة غاضباً.

ـ لا بابا.. ليس عن السفر. لا تشغل بالك.

يهمّ الوالد بالخروج، وقد أحسّ أن تدخله غير لائق.

ـ طيب.. طولوا بالكم يا ولاد.. كل شيء يُحلّ بالتفاهم. كل شيء..

يرمي الجملة متأتئاً ويخرج. في تلك اللحظة كان جواد يشعر بأن رحابة الغرفة تأخذ بتلابيبه محاولة خنقه، وضياء المكان يستحيل قتامة مخيفة.

وماذا بعد؟ في النهاية ليس ذنب عنات أيضاً!

خرج من الغرفة محاولاً أن يزيح كاهلها عن صدره، ثم ترك البيت وهو يشعر برغبة ملحّة بالبكاء.

في المعتقل كان الأمر أفضل! الأمل كان يجعلني أحيا بقوة معنوية هائلة، بأن ذاك اليوم سيأتي لا محالة وأخرج، وحينها يا إلهي ماذا سأفعل!.. وحينها ماذا؟ ماذا فعلت الآن؟ لا شيء..

كان موعد المنتدى قد اقترب. المنتدى السياسي الثقافي المعارض الذي أنشئ منذ شهور قليلة. يستطيع إذاً أن يقصد المكان سيراً علّه يخفف قليلاً من توتره. كان يشعر بأنّ اشتراكه بذلك المنتدى يشعره بشيء من الفاعلية بعد أن أجهضت أحلامه بفاعلية أخرى، والبلاد تمور منذ مدة بنشاطات مماثلة.

انعطافة الربوة في الشارع العريض الصاعد من ساحة الأمويين باتجاه قدسيا خففت من ضغط مشاعره، كثافة الأوراق والأشجار التي

تزيّنها جعلته أفضل حالاً، ذاك الهواء المنعش القادم من الجبل يتواطأ معه ويهبه فسحة أفضل للتفكير.

يبدو لي أحياناً أني نسيت أشياء كثيرة!

قبل أشهر قليلة، وقت ذهبنا لنسجّل زواجنا في المحكمة، كنت أحسّ نفسي كالمعتوه. كم خططت طوال الستوات المنصرمة لتلك اللحظة، كم تخيلت ما سأفعله وقت نتزوج. ربما كنت سأحملك من باب المحكمة حتى غرفة القاضي الذي يسجّل الزواج. تخيّلت حين أعلن إسلامي، وفقاً للقانون، أني سأعلنه لك! تسليمي لك لأنك أنت ديانتي ومعتقدي، وكل ما آمنت وأؤمن به.

كنت سأقول هذا الشيء للقاضي الذي تخيلته مقطباً ومغتاظاً من حبنا. وكم كنت سأستمتع بشزراته المنبهرة الغاضبة وبضحكتك الساخرة المستفزة!

كنت تلبسين ثوباً أبيض طرّزته جميلة بيديها. يا إلهي كم بدوت فاتنة فيه! كنت تشبهين حورية سماوية تتلألأ في ليل سكران.

ولم أقل لك شيئاً!

حين خرجت من الغرفة وأنت ترتدينه تعلّقت عيناك بشفتيّ بانتظار كلمة مني، ولم أقلها!! أحسست بأنّ عينيك غصّتا بالدموع، وانكسر الفرح الذي كان يشعّ من وجهك. لكنك لم تفصحي! حتى أبو حيان تسمّر مندهشاً من تصرفي، لكنه استعجلنا للذهاب فحسب قبل أن تغلق المحكمة أبوابها.

لم يحضر زواجنا إلا أختي ميسون. ربما سبّب لي الأمر نوعاً من

الأسى! على الرغم من أني كنت واثقاً من مقاطعة أهلي إن تزوجتك، أو تزوجت أية فتاة أخرى من خارج الطائفة. ربما كنت أرغب أن أتملّى وجه أمي وهي تبكي فرحة بزفافي، أو أرى والدك يحتضن والدي!

لا أعرف ما الذي يحدث لي!

في السجن رتبت كثيراً من الكلمات لأقولها لأبي حيان. كنت سأسرّ له بحبي، وربما بإعجابي بشبابه الدائم، وذاك المخزون الهائل من الطاقة على الحب، ولربما همست له متواطئاً بأن يعيرني بعضاً من هذه الطاقة. يمرّ أبو حيان اليوم في الصالون، يمسّد شعري بحنو، ويربّت على كتفي متحبباً في كل مرة.

يا بديع الدل والغنج[٣٢]

لك سلطان على المهج

لا أجد نفسي إلا وأنا أرمقه بحيادية أستغربها. يكمل أبياته ملوحاً بكفه كأنه يلقيها على منبر. أستعذبه، أستلطفه، أحب روحه التواقة السابحة في زمن آخر، أحبه، لكن...

إن بيتاً أنت ساكنه

غير محتاج إلى السرج

أكاد أن أسأله: وبماذا أضيء بيتك يا عجوزي؟! لكنه يجيب على

---

(٣٢) قصيدة للحلاج.

جفائي بتربيتة ناعمة، ويمضي.

مللت الاستدعاءات الأمنية! مللت الذهاب إلى فرع الأمن والعودة منه. مللت التهديدات والأسئلة والأجوبة. أحسّ بالضعف يمتلكني، وهاجس العودة إلى الأسر من جديد يجعلني أشبه بأرنب مذعور. ليس سهلاً أن ينفق عليك الآخرون طوال خمسة عشر عاماً، وحين تخرج يكونون مجبرين على الإنفاق عليك أيضاً!!

تعبت من كل ذلك، تعبت...

مشروع دمر يتمدد أمام عينيه شاسعاً متكئاً على الجبل. أضحى مقر المنتدى قريباً من هنا، وعليه أن يتمتّع بالوقت الباقي وهو يتمشى إليه. ثمة نسمات طازجة قادمة إليه كنسمات ضيعة بكر لا تزال ملوثات الحضارة بعيدة عنها.

لكم تكرر المشهد في السنة المنصرمة! يختلفان، يتصايحان، ثم يخرج أحدهما من الغرفة.

لمَ أغيظها حقاً؟ ربما لأني متعب، أو لأني أحاول درء اتهاماتها قبل توجيهها إلي، أو لأني لا أجد الحل. تقول لي باكية: إلى متى ينبغي أن أنتظر كي يأتيني رجلي الذي أرتاح على صدره؟! عمري كله! وإلى متى سأنتظر كي أكون أماً؟ سأبلغ السابعة والثلاثين قريباً. جواد، ألا ينبغي أن نفكر بطفل؟

ـ أبداً.. أبداً.. طفل في هذه الظروف السيئة؟! هذه جريمة لن أسامح نفسي عليها!

ـ ...

انتهى حوارنا ذاك اليوم بانتحاب لم أر عنات منخرطة فيه كما كانت ذاك اليوم. كانت لدي رغبه هائلة في أن أجلس بجانبها، وأبدأ بالبكاء مثلها. أن أحتضنها، وأهمس في أذنها: حبيبتي أنا متعب أكثر منك. لكني لم أقل لها شيئاً! شيء غريب كان يبعدني عنها. لم نعد مثلما كنا أبداً. كانت عنات مهجوسة بمجيء طفل. يبدو لي أحياناً أن غرائزها كلها تكثّفت في غريزة واحدة اختصرتها بكل كينونتها.

تركتها وخرجت، أو أني كنت سأموت من فوري بسكتة قلبية.

عنات أنا متعب حبيبتي، متعب أكثر منك.

من بعيد لاحت البناية التي ينعقد المنتدى فيها عادة. جمهرة من البشر أمامها! كان هناك شيء غير طبيعي.

هرول على طول الطريق الصاعد إليها كي يصل متقطع الأنفاس لاهثاً، فيما كانت مجموعة من رجال الشرطة يشحطون آخر المعتصمين في الداخل، ويغلقون الباب إيذاناً بإغلاق المنتدى.

إلى إحدى سيارات الشرطة اقتيد ثلاثة من المشاركين في المنتدى، بينهم أحد أصدقاء جواد، على الرغم من الصياح والزعيق الذي رافقهم حتى اختفت السيارات عن الأنظار.

إذاً، كان المنتدى قد أغلق.

ما الذي يبكيكِ بالضبط؟

تخرجين من عيادة الدكتور تشرقين بدموعك! تبكين لأن رئتك كادت تتآكل كاملاً؟! أم لأن صدرك لن يعود كما كان ملعباً للخيّال؟! قد لا يتغير إن أجريت العملية وربما تغير.. لكن ربما تبدل مظهر نهديك المثيرين ولم يعودا يتصدران قدومك كسهل فسيح خصب؟! على كل حال لن يكون الأمر أسوأ من كل ما حصل منذ ولادتك وحتى اليوم! وماذا في ذلك؟

توقفي عن البكاء. أين قوتك الخيالية التي جعلتك مسيطرة على كل الأمور قبلاً؟ أين هي؟! توقفي عن البكاء. الدكتور قال هناك أمل كبير في نجاح العملية.. توقفي عن البكاء.

سلسلة الشرور لا تزال تتوالى عليك، سلسلة تنبأ بها مسعود خادم

المزار يوماً ما. كان عليك أن تحرقي علبة الشرور تلك قاطعة الطريق على المصائب المحدقة بك في كل دقيقة. لكنك عجزت عن ذلك، إذاً تحمّلي النتائج.

على كل حال لن يكون الأمر أسوأ من كل ما حصل!

تزوجت وأنت لم تبلغي الثالثة عشرة بعد. حين ولجك زوج أختك حسن، الذي صار بين يوم وليلة زوجك، شعرت بأن هناك شيئاً تمزق داخلك، ليس طريقك الأنثوي فحسب، بل شيء آخر جعلك تصرخين شاقّة الليل بألمك ليبقى نزف روحك ومهبلك أربعة أيام بحالها.

الذي حصل بعدها لم يكن أفضل.. تذكّري.

استؤصلت رحمك وأنت لم تبلغي السادسة عشرة، كانت ممزقة تماماً. ولأن الاستئصال كان الحل الوحيد، لئلا تتقطر آخر قطرة من دمك في نزف ما بعد الولادة، لم تستطيعي أن تنجبي إلا ابنة واحدة تنضاف إلى تلك البليّة التي كانت عندك، ابنة سنية.. صباح.

هل كانت الليالي الآتية أحسن حالاً؟ لا، بالتأكيد لا.

كيف ستكون أحسن؟ وأنت منذ أكثر من عشرين سنة تنامين على سرير غرفة النوم، فيما ينام حسن في الغرفة المجاورة!

ذاك الشعور الذي راح يمسك بتلابيبك جعلك تنكمشين كلما اقترب بوجهه المبتسم وشفته المقرفة. لم تحبيه يوماً، ألا تستطيعين الاعتراف بذلك؟ بل كرهته كل يوم أكثر فأكثر.

وجسدك؟! كيف كانت مسارب شهواته؟

أمام تلك المرآة الطويلة في نهاية غرفة النوم وقفت، جسدك المتثاقل الغنج يمور كإجاصة ناضجة حدّ السكر. كنت تتذكرين، لحظتئذ، أنك لم تستطيعي السماح لحسن باعتلائك البارحة، صار الأمر يثير قرفك فعلاً. لم تعودي تستطيعين الاستمرار بالتظاهر. شفتاه، وهما تحاولان الاقتراب من وجهك، تزيدان الأمر سوءاً. لكنه اعتاد منذ زمن ألا يقربهما من شفتيك، خاصة بعدما ركضت ذات قبلة قديمة إلى الحمام لتفرغي كل ما في جوفك. قديمة للغاية تلك القبلة التي لم تتكرر.

البارحة مدّ كفه ليلاعب فخذيها وما بينهما، ربما كان يحاول إثارتها بطريقة ما. كانت منطقتها جافة، ولفخذيها المتشنجتين ملمس قاس، وباه مليئة بالأشواك وبرائحة جيفة متفسخة، على الرغم من أن مدة طويلة طويلة مضت منذ أن اقترب منها آخر مرة، وكانت قبل انتحار صباح بيومين أو ثلاثة، أي منذ سنتين ويزيد. بعدها لم يستطع أن يقترب منها. كانت دواخله تؤكد فكرة واحدة: أن صباح لم تكن لتقدم على خطوة كهذه لو لم تكن تحسّ بأنها مهملة متروكة، وربما يائسة من جوّ البيت الخانق المتخم بالكره والشجارات.

انكفأ حسن على نفسه. كان عليه أخيراً، بعد أن أجّل القرار سنين طويلة، أن يذهب ليأخذ مكان عنات في الغرفة المجاورة، وأن تأتي عنات لتنام مكانه في سرير والدتها، وخصوصاً بعد أن أضحى قلبه عرضة للنوبات.

هناك على سرير عنات سيرتمي بعد أن يمارس العادة في المرحاض. وحين لا يستطيع النوم سيعود إلى المرحاض ليمارسها من جديد، حينئذ فحسب سيختطفه نوم لذيذ لذيذ أشبه بإغماءة.

هل تشعرين اليوم بالندم؟!

لم تحبّي تلك الصغيرة يوماً! كانت تستفزك بوقاحتها، بقدرتها الفائقة على استجرار عطف أبيها ونقمته عليك. اعترفي بذلك.. لم تحبيها يوماً، وهي تحمل عيني أختك سنية، وتلاحقك بنظراتها الساخرة الكارهة والمتآمرة.

كان عليك أن تنتقمي منها، ومن كل ما حدث، وإلا كنت متّ من القهر. لكنها هي التي انتقمت حقيقة ولست أنت. هل تشعرين اليوم بالندم؟!

بات لشعرك بريق سحريّ وأنت تشعرين بعمق نعموته وغواه. بات لنهديك إثارة نفّاذة وأنت تتيقنين من فتنتهما يوماً بعد يوم. تحسّين بالأمر، تؤمنين به، وعيون الرجال مرايا تكشف خبايا أنوثتك: رفاق حسن، الأقرباء، الجيران، حتى عيون بائع الغاز ومصلّح التمديدات الصحية تفضح الأمر. تحسّين بذلك على موقف الباص وفي الشارع، وفي يدي بائع الخضار اللتين ترتجفان وهو يساعدك في انتقاء حبات البندورة.

أنت تتلمّسين غوايتك بكل جوارحك.. عيشيها إذاً. صار لكل شيء في أنوثتك طعم مختلف حين التقيته للمرة الأولى.. قولي، لست نادمة بالتأكيد.

الحائط المشترك بين غرفة نوم جميلة وصالون الجار ينقل إليها دقّاته بعد منتصف الليل؛ ثلاث دقات متتالية وخافتة كأنه يهمس من وراء الجدار بأن تعالي. تغافل ابنتها النائمة بجانبها، وحسن الغافي في الغرفة المجاورة، تقوم من فورها على رؤوس أصابعها شاقّة الليل بلهاثها المشتاق لترتمي في غرفة نوم الجار.

هناك كان للقبلة طعم مغاير، ولعضّة الشفة العلوية جنونها. هناك كان لكفّه أن تداعب ما تريد، أن تدخل وتجوس وتسبر، وتجعل كل شعرة في جسد جميلة تتوفز وتحلّق.

هناك كان للرعشة الأخيرة وجود.

في ذاك السرير، سرير الجار، تكثّفت كل الخيالات التي حلمت جميلة بها منذ أن نادتها أمها، وهي تقفز على خطوط الطباشير في الحارة، وحتى اللحظة. كلها تكثّفت بين جسده الشاب الممتلئ وملاءات سريره الزرقاء المنقّطة. جسده والملاءات لونان يتداخلان ويتماوجان كي يسحبا جميلة إلى دوامة مغوية لا خروج منها، دوامة العشق بالأجساد.

قبل بزوغ الفجر تعود إلى جوار ابنتها بمتعة التعب وخدر الحب ورضا اللذة. تغفو وهي تطوّق الجسد الصغير الدافئ بذراعيها حتى يوقظها سعال حسن في الصباح فتعود إلى سابق عهدها: جميلة المتأففة غير السعيدة، ويعود القرف نفسه ليحيط بأوقات نهارها.

الآن ما الذي يبكيك بالضبط؟!

رحل الجار منذ زمن طويل، غرفة نومه تحولت إلى ورشة للخياطة. آهات الحب التي كنتما تطلقانها صارت آلات الدرز تزعقها عنكما، صامّة ذاكرتك، وهي تصل إليك حتى وأنت في المطبخ.

ها أنت اليوم تدخلين الخمسين. ألهذا تبكين الآن؟ أم لأنك أحسست بأن الشيخوخة تغتالك قبل الأوان؟ أم لشعورك بأن الشرور ستظل تحصد هذه العائلة يوماً بعد يوم حتى تفنيها كلها؟! ما زال جسدك كما كان يصرخ، والمرآة تخبرك أنك ما زلت حتى

اللحظة بكامل غوايتك.

كفكفي دموعك الآن. كفكفيها.. أنت تقتربين من البيت. عنات هناك وزوجك وربما غيرهما، ينتظرونك كي يعرفوا ما الذي سيفعله الدكتور. لا ينبغي لأحد أن يراك تبكين. لم يرك أحد من قبل تبكين فلا تجعليهم يرونك اليوم. أنت جميلة الفخورة الجميلة المعتدة، وما زال أنفك عالياً عالياً، حتى لو أكل السرطان صدرك كاملاً..

لكنه سرطان يا جميلة.. سرطان.

يا لجرأة ذاك الدكتور! ألقى في وجهك الخبر كأنه يلقي عليك تحية الصباح. ولربما انتهت حياتك قريباً، وهذا المرض اللعين يحتلّ جسدك شيئاً فشيئاً.

هيا كفكفي دموعك الآن.

قالت جميلة لنفسها آخر جملة وهي ترمي محرمتها البيضاء المبللة في حاوية القمامة أمام البيت. ابتلعت ريقها محاولة أن ترتّب شعرها المشعث في مرآة صغيرة أخرجتها من حقيبتها، وأن تلطّف من احمرار وجهها المحتقن بشدة.

ابتسمت بتعالٍ، من ثم فتحت قفل الباب.

فاجأها والدها ذلك اليوم.

كانت تحاول أن تترجم ما بقي من التقرير السنوي للاجئين. لكنها راحت تفقد تركيزها بين جملة وأخرى، تشرد طويلاً، ثم تعي إلى نفسها فتعود إلى الترجمة. كان عليها أن تنتهي منذ ساعات، خاصة أنها في إجازة اليوم من أجل التقرير فحسب.

تشعر بالبرد على الرغم من البطانية السميكة والسخانة الكهربائية بجانب السرير، وتفكر بأبيها. لا بد أنه يسرق الآن مشهداً من محطة سيكس لأن التلفاز يصمت كل حين، ثم يعود إلى نشرة الأخبار أو مسلسل تلفزيوني ما. لا بد أنه يحاول التقاط صورة جسد ما في وضعية مثيرة، ثم يعيد القناة من فوره خوف أن تضبطه ابنته متلبساً.

منذ إطلاق سراح جواد وزواجهما صار الأمر أكثر حرية بالنسبة إليه. حالما يغلق باب غرفتهما، إيذاناً ببدء ليلهما الخاص، كان أبو حيان ينعم بليله الخاص أيضاً، الحميمي والحرّ، أمام التلفاز، دون أن يهجس بخروج أحد منهما في أية لحظة.

كان أبو حيان ينعم حقاً بلياليه الخاصة!

أحياناً يتناهى إلى عنات صوت شحذ سكينه التي من المفترض أن تكون مسنونة جيداً وقادرة على فرم أوراق التبغ. أحياناً يزداد تواتر الشحذات ويعلو الصوت، ثم يعود ليتمدد مطيلاً زمن الشحذ.

فاجأني وهو يلج الغرفة متردداً وبيده ورقة ما.

اعتقدت لوهلة أنه آت ليتحفني بقصيدة جديدة، قصيدة من غزله الذي بت أشك أنه لامرأة مفترضة. ذاك الغوى، الذي ينضح من بين سطوره، من الصعب أن يكون متخيّلاً. أو ربما كان يستحضر عشقه القديم لخالتي سنية.. ربما. أفكر أحياناً كيف يستطيع رجل تجاوز السبعين أن يكون طازجاً ومفعماً بالعشق أكثر مني.

ـ مرحباً أبو حيان.. قصيدة جديدة؟

ـ ...

صمت أبو حيان متردداً وهو يمدّ الورقة. كانت رسالة من بلد أجنبي ما! لم أدقق في الطابع البريدي حتى كان والدي يخبرني أنها رسالة أتته منذ أقل من أسبوع، وينبغي أن يريني إياها لأن الأمر خطير للغاية.

ـ خطير؟ ما الأمر بابا؟ لقد أخفتني!!

ـ خالتك سنية الله يرحمها.

ـ الله يرحمها.. ما بها؟!

ـ رجعت.

ـ ...!!

لوهلة أحسّت عنات أنه يهلوس، أو ربما سمعته وسط فوضى وهذيانات أفكارها ليس إلا.

ـ كيف؟

ـ أقول سنية رجعت.

ـ ...!!

ـ تقمّصتها صبية من إسبانيا.

ـ إسبانيا!!

اجتاحتها نوبة عارمة من الضحك. راحت تضجّ بضحكاتها وتمسح دموعها المتدفقة، فيما نظرة العتب تزداد ألماً على وجه والدها. بدا كتلميذ تسخر منه المعلمة أمام رفاقه.

انتظرها حتى هدأت، ثم أكمل حديثه، لكنه بدا أكثر حزماً.

ـ التقمص.. تعرفين أنه حقيقة لا لبس فيها!

ـ حقيقة؟! بابا أرجوك.

ـ هذا شأنك لا تقتنعي، أما أنا فأؤمن بالمسألة كاملاً. سنية تقمّصت، وهي الآن امرأة في الواحدة والأربعين من عمرها، ومن إسبانيا، وبعثت لي هذه الرسالة..

ـ ...

ـ إذا لم يكن الموضوع حقيقياً فكيف كانت ستعرفني، وتعرف عنواني؟ خالتك رجعت، ولن أتركها تذهب من جديد.

كان أبو حيان غاضباً بشدة. إنه العشق القديم، الذي جاهد لدفنه طوال سنوات عمره مجبراً، عاد الآن دون أي استئذان. كل خلية من جسده تناديه ألا يتأخر فحبيبته عادت.

حاولت عنات أن تفتح معه حواراً من جديد.

ـ طيب.. من هي هذه الصبية؟

ـ إيزابيل، تدرّس الأدب العربي بجامعة غرناطة.

ـ ...

وخرج أبو حيان باتراً ما كانت عنات تتأتئ به.

في غرفته كانت سنية تتمدد متماهية مع السرير. للمرة الأخيرة قال لطيفها أن يغادر، فهي قادمة بكل جسدها الماجن المغوي، بكل بهائها الذي لم يغب ثانيةً عن حياته. لتغادره الآن كي يستقبلها من جديد كسنية القديمة الحبيبة.

أما عنات، فقد كانت تفكر بغرناطة! حتى هذه اللحظة كان الأمر أشبه بمزحة ثقيلة. لكن تلك المزحة راحت تكتسي اسماً وعملاً ومدينة تسكنها.. غرناطة!!

كان عليها إقناعه بوسيلة ما، أو على الأقل إثارة بعض الأسئلة في دماغه، أو ربما افتراضات مغايرة لقناعته علّه يفكّر بالأمر ولو قليلاً. لكن جهودها ستذهب عبثاً كما بدا واضحاً قبل قليل. إذاً عليها،

كما يبدو، أن تفكر أكثر بما ستفعله، وبشكل جدّي، لأن حسن حزم أمره تماماً. سنية قادمة.. وانتهى الأمر.

كانت تنقصني هذه المصيبة. همست لنفسها.

اليوم سيسافر بيير أيضاً بعد أن انتهى عقد عمله في البلد. يجب عليها أن تذهب لتوديعه قبل السفر. لكن جواد دخل الغرفة فجأة وعلى طرف السرير جلس قلقاً. حين اقتربت عنات منه وغمرته كانت ضربات قلبه متسارعة، وثمة شيء في أنفاسه المتلاحقة ينبئ بالخراب.

ـ حبيبتي.. سأسافر بعد أسبوع إلى تركيا.

ـ تركيا..؟

ـ لم أخبرك.. من عدة أشهر قدرت أن أتصل بسامر في باريس، سامر كان رفيقنا منذ زمن، هرب في الثمانينيات إلى أوروبا، ولم يرجع منذ ذلك اليوم. لا أعرف إن كنت تعرفين أنه مسؤول بشكل ما عن عمل منظمة العفو الدولية في الشرق الأوسط.. وسورية بالتحديد.

ـ ...؟

ـ وجاءت الموافقة على ذهابي لمقابلة اللجنة التي ستبعثها المنظمة للبحث في شأن الأشخاص الذين يقدمون.. طلبات اللجوء عزيزتي.

ـ اللجوء؟!!!

ـ اللجوء عنات.. نعم..

ـ ومنع السفر؟! ليس لديك جواز سفر جواد. نسيت؟

ـ لم أنسَ بالتأكيد.. وعدني صديق بتدبير المسألة.

ـ ...!!

ـ أجّلت الحديث عن الموضوع إلى أن أتأكد.. الآن يجب أن نناقشه معاً بشكل جديّ.. اللجوء هو الحل الوحيد لنا. تعرفين كم كنت أفكر بالسفر في الفترة الأخيرة وكان الأمر صعباً.. أنا.. أنا شخصياً لم يعد لدي أية طاقة على الاحتمال عنات.. وأعتقد أن الأمر كذلك بالنسبة إليك.

اللجوء! لم يخطر ببالي يوماً أني سأوضع في مكان أولئك المساكين الذين يقفون أمامي لأترجم لهم قصصهم. الآن سنكون، جواد وأنا، في الموقف ذاته، لكن في مكان آخر. هناك من سيقرر مصيرنا أيضاً. كما أني، على الرغم من كل الصعوبات التي عاناها جواد، لم أتوقع أن يفكر باللجوء، بترك البلد بشكل نهائي. الأمر كان صاعقاً بالنسبة إليّ! ثم كيف سيعيش والدي وحيداً هنا. ليس لديه أحد غيري.

راح جواد يقنعني بأننا نستطيع أن نرتب له سكناً بيننا حالما نستقر هناك، وبأن أبا حيان لن يتردد في الذهاب إلى أي مكان في العالم حين يراني سعيدة.

تعرفين، المهم بالنسبة إليه أن تكوني سعيدة، سيفعل أي شيء ليساهم بذلك..

لا أعلم حقيقة إن كان ردّي لحظتها نكاية، أو مجرد طريقة لإعادة

الاعتبار لنفسي، بعد أن قرّر جواد كل شيء دون إخباري. لا أعلم إلى اليوم إن كنت أريد السفر أو لا! لكنني أجبت من فوري، واضطررت طوال المدة المقبلة إلى التشبث بقراري سواء كنت مقتنعة به أم لا.

ـ ولمَ لا عنات؟

ـ لأني أرفض السفر!

ـ ولمَ لا؟ تعجبك حياة الكلاب التي نعيشها هنا؟

ـ ...

ـ عنات حبيبتي أرجوك، فكّري وسترين أنه الحل الوحيد.. السفر هو الحل الوحيد حبيبتي. ثم إننا سنكون معاً، ووقتها سنعـ...

ـ لن أسافر جواد وانتهى الأمر.

ثم قامت من فورها كي ترتدي ثيابها، كأن شيئاً لم يكن، مدّعية أنها تذكرت حفلة وداع بيير فجأة، وطائرته التي ستنطلق في الفجر. كما أنها كانت فرصة للابتعاد عن الجو المشحون المحيط بها من كل صوب.

في الطريق طفقت كومة من الأفكار تتلاعب بعنات ذات اليمين وذات الشمال. كانت تفكر بسنية المتقمصة، تلك التي قدمت من الغيب مبلبلة حياتها. بمشروع اللجوء المفاجئ الذي أتى به جواد! تفكر كذلك ببيير، بسنوات ممتدة من الصداقة ابتدأت منذ اليوم الذي مارسا فيه الحب لأول مرة في شقّته المطلّة على بساتين الرازي في المزة الشرقية. في ذلك اليوم اكتشفت عنات ماذا يعني أن

يحتفي رجل بجسد امرأة. وماذا يعني أن يتحوّل الجنس إلى طقس وثنيّ للتعبد. لم تكن قد عاشت الأمر حتى مع جواد. مع الزمن صارت تقتنع أن المرأة تكتشف جسدها شيئاً فشيئاً.

كانا صغيرين قبل أن يعتقل جواد، مارسا حبهما بشغف وبجنون لكن دون أن يعيا مخابئ جسديهما، دون فنون الحب المبتكرة، ودون أن يحلّقا في التجريب.

حين التقت وبيير في المرة الثالثة بادرها بإنكليزية لها جرس فرنسي؛ إنه يشتهيها منذ أن غادرت سريره في المرة الأولى. كانا يعدّان طبقاً من اللحمة بالخضار، دعاها بيير لتذوقه من تحت يديه.

It's the special dish in my region, Quibec, in the south east of Canada where the French language is the main tongue.. I'm from & small town near Montereal.[٣٣] –

ـ لكنه خضار مع لحمة بيير.. جدة جدتي كانت تطبخه!

وضحكت ساخرة. أجاب بقبلة عاجلة ومفاجئة ثم همس:

You have a charming smile Annat... I miss you![٣٤] –

لم ينتظرها بيير حتى تنهي كأس المارتيني الذي تتلمظ به. سارع إلى إفراغ كأسه بالكامل بعد أن سمّاه بصحتها وواقفاً على عادة

---

(٣٣) إنه الطبق الخاص بمنطقتي.. الكيبك، في جنوب شرقي كندا، حيث اللغة الفرنسية هي الأساس.. وأنا أصلي من مدينة صغيرة قريبة من مونريال.

(٣٤) لديك ضحكة ساحرة عنات.. أشتاقك!

الشركس. ضمّها بين ساعديه، وراح يمطر عنقها وصدرها بالقبل. كان شارل أزنفور يغرّد بمجموعة من الأغاني الفرنسية القديمة، يمطر المكان برومنسية عاشقة لها رائحة السبعينيات وشفافيتها الرمادية.

بعد انتهائهما من ممارسة حارة ومفعمة أخبرته عنات عن جواد. كانت هذه المرة بين ذراعيه وهو يعبث تحت إبطيها العرقين. سألها بالعربية:

ـ تحبينه؟

ـ جداً.

ـ طيب.. في مشكلة؟ نستطيع أن نستمر في علاقتنا ما دام هو في السجن.

ـ ...

ـ His sentence will not end before years later[٣٥]

لم تجب عنات، ظلت صامتة، لكنها دفنت رأسها بين رقبة بيير وكتفه التي ما زالت حبيبات العرق تنقطها. كانت تسمع صوته بعيداً والصدى يملأ الفراغ من حولها. يهمس بأنه أحبها.. وبأنه مستعد لكل شيء تريده. إن أرادت يمكنهما السفر معاً والاستقرار في كندا، يمكنهما الزواج وإنجاب الأطفال. وأنه يتخيلهم رائعين يشبهونها، لهم بشرتها الرقيقة الوردية وضحكتها الفاتنة، والأهم لهم قلبها الجميل واهتماماتها الإنسانية التي تسحره.

---

(٣٥) وحكمه لن ينقضي قبل سنوات.

... –

Ah.. what do you think my darling? –[٣٦]

And Jawad?.. I can't Pierre –[٣٧]

But I'm sure you love me.. sure. Why are you – waiting Jawad? Is it a duty? Or is it a social pressure?.. what... answer me, Annat[٣٨]

صمتت عنات، كانت تحسّ بأنها تحب هذا الكندي الغريب بشكل ما، تحبّ جنونه واندفاعه، تحبّ حبه لها ورقته اللامتناهية، تعشق الدهشة التي تسكن عينيه دوماً، تأسرها ثقافته الواسعة وطزاجته ورغبته الدائمة بالمعرفة..

كانت باختصار تحبه بطريقة ما!

لكنها قامت من فورها، ارتدت ثيابها الداخلية التي انتقتها ذلك اليوم خريفية الألوان. جلست بجانبه فيما كان يطالعها بنظرة معاتبة. بادرته بأنه يعرف كم تحبه، بدا الأمر واضحاً في علاقتهما الحميمية، لكنها لا تستطيع أن تتخيّل جواد مرمياً هناك وهي تسافر لتعيش مع شاب آخر أحبّته.. الأمر سينغّص عليهما كل حياتهما المستقبلية، ستبني حياتها معه على أرض ليست ثابتة، وعقدة الذنب

---

(٣٦) ها.. ما رأيك حبيبتي؟

(٣٧) وجواد؟.. لا أستطيع بيير.

(٣٨) لكني واثق أنك تحبينني.. واثق. لمَ تنتظرين جواد، أهو واجبك؟ أم ضغوطاتك الاجتماعية؟ ها.. أجيبيني عنات!!

تطاردها أينما ذهبت..

ـ اعذرني بيير.. أنا ما زلت أحب جواد.. أحبه كثيراً.

اقتربت منه وقبّلت شفتيه الباردتين. كانت تفكر إن هي خاضت أعمق في هذه العلاقة فلن تستطيع التملّص من شباكها، سيكون محالاً أن تنفصل عنه بعد حين! كان هذا الغريب يسحرها، يشرّع أمامها أبواباً على عالم لم تعرفه وعلى حالات لم تختبرها، يغريها بالجديد غير المجرّب وغير المعتاد.

ـ ستكون المرة الأخيرة.. سنبقى أصدقاء؟

لم يسألها شيئاً. أجابها بعد صمت طويل بهزّة من رأسه، ثم جذبها إليه ليطبق على شفتيها بقبلة حارة وأخيرة.

آخر السهرة، وقبل أن يغلق الباب خلفها، سألها بيير أن تسافر معه في الأسبوع القادم إلى كسب وجبال البسيط. كان يخطط لزيارة قرى التركمان المنتشرة في تلك المنطقة. بادرها بعربية مكسّرة:

ـ وسنأكل الروكفور العظيم اللي يصنعونه.. هيك قالوا لي.

ـ بيسمّوها شنكليش بيير، أو سوركة إذا أردت وليس روكفور.

وابتسم بيير مداعباً شعرها محاولاً أن يخلق حالة من اللامبالاة، لكن عينيه بقيتا مسكونتين بحزن عميق. هاتان العينان الغائمتان ظلتا تومضان أمام نظر عنات طوال الطريق، وصوت أزنفور يتصادى كلما أمعنت مبتعدة!

اليوم سيسافر بيير.

كان البيت مليئاً بالأصدقاء من العرب والأجانب. بيير يبدو سعيداً ومفعماً بالحيوية، يقهقه، يدور حول المجموعات التي تثرثر، يقبّل أحدهم ويحتضن الآخر، يشرب من كأس هذا ويقرع كأس ذاك.

لمحها عند الباب، وهرول من فوره ليعانقها. كانت عربيته قد غدت أفضل بشكل واضح، وخاصة أنه قضى السنوات التي مضت وهو يحاول جعلها شغله الشاغل.

ـ ماذا هناك أنات.. أنت منزعجة؟

ـ لا. حزينة لسفرك.. سأشتاق لك.

ـ سأشتاق لك أكثر.

عانقها من جديد، وسحبها إلى وسط الجموع حتى لاصقا فتاة شقراء ناحلة وطويلة ترتدي بلوزة قطنية حمراء.

ـ Annat this is my fiancée Poula...[٣٩]

ـ Poula, this is Annat... my dear Friend for years[٤٠]

صافحتها الشقراء ضاحكة هازّة ساعدها بكل قوتها، فيما عنات تبارك لهما مصطنعة الفرح والمفاجأة.

ـ باولا إسبانية الأصل، لكننا سنسكن في مونريال.. وغداً سنبعث لك صور أطفالنا.

---

(٣٩) عنات أعرّفك باولا.. خطيبتي.

(٤٠) باولا هذه عنات.. صديقتي العزيزة منذ سنوات.

وضحك بيير معانقاً باولا. ثم راح يخبر عنات عن كون باولا في دمشق منذ ما يقرب السنة، وقد كادت فترة مكوثها هنا تنتهي، وأنها عملت طوال الفترة الماضية على وضع أنطولوجيا للشعر السوري.

ـ لو تعرّفت عليها منذ أول مجيئها يمكن كنا ساعدناها.. صحيح عنات؟

ـ بالتأكيد.

ـ Poula, tell Annat about the details of your nice project.. I think she likes to hear about it[٤١]

راحت باولا على الفور تسرد، بإنكليزيتها الغريبة، تفاصيل التفاصيل. وعنات تدور بعينيها في المكان بحثاً عن بيير الذي يتنقل باسماً من مجموعة إلى أخرى. كان واضحاً أنها لا تستمع، نظرها شارد يتنقل بين الجموع. لكن ذلك لم يمنع باولا من إكمال حديثها بانهماك أكبر!

كانت تتحدث عن استغرابها هذا التغيّر الكبير الذي طرأ على الشعر السوري منذ أواسط القرن الماضي وحتى اليوم. عن إعجابها بذاك المشروع الحداثي الذي سمّي مجلة شعر. ثم أخيراً أبدت استياءها من أنها لم تستطع التعرّف إلى الكثير من الشعراء الشباب هنا. وأنها تشعر بأنّ ثمة مؤامرة ما في إقصاء أولئك الشباب.

---

(٤١) باولا أخبري عنات بتفاصيل مشروعك الجميل.. أعتقد أنها تحب سماع ذلك.

The old, established poets won't mention the names – of the up coming generation, while the new poets bicker among themselves. They think I don't understand them![٤٢]

... –

لم تجب عنات.

كانت تحاول، طوال الأمسية، أن تتملّص من فكرة تملّكتها. كلما هربت منها استدارت الفكرة ونبعت في وجهها من جديد مادة لسانها بهزء: ماذا لو بقيت مع بيير؟! ربما كان حبّه كفيلاً بجعلها تنسى كل الماضي. تخيّلت نفسها مكان باولا الآن وهي تستعد للسفر إلى كندا مع أكثر شاب تعرّفت عليه جاذبية وسحراً.

طوّحت رأسها نافضة تلك الأفكار التي راحت تثقب دماغها بتشفّ ولؤم. كانت باولا واقفة قبالتها، صامتة ومبتسمة ببلاهة، وملامح خيبة الأمل بادية على وجهها.

لم تستطع عنات أن تطيل جلستها أكثر. ودّعت بيير، واغرورقت عيناها بالدموع. كان الأخير حزيناً أيضاً وهو يودّعها.

– سنتراسل عنات أكيد.

– أكيد.

---

(٤٢) الكبار يحاولون ألا يدلّوك على الشباب.. والشباب أيضاً لا يسعون إلى مساعدة بعضهم. ويظنوني لا أفهم ذلك!

ـ عندك عنواني الإلكتروني، ووقت أستقر هناك أبعث لك عنواني البريدي.

ـ أكيد.

ـ أريدك أكثر سعادة يا صديقتي الفاتنة، وأرغب أن توصلي تحياتي إلى جواد مع أني لم أعرفه قبل.

ـ ...

ـ That you love him is enough for me to love him too.[٤٣]

احتضنته عنات طويلاً، تملّت وجهه المحبب، ثم خرجت.

---

(٤٣) يكفي أنك تحبينه كي أحبه أنا أيضاً.

للتو بدّلت لمى الحاج بنطال الجينز، الذي كانت ترتديه، بثوب نوم وردي شفاف له حمّالتان رقيقتان. مؤخرتها المكتنزة، التي كانت تبدو لإياد في غاية الإثارة في البنطال، غدت الآن أكثر إثارة وهي تهتزّ تحت ثوبها الذي يظهر أكثر مما يخفي. كان النهار قد انقضى وهي تتسكع مع إياد الشالاتي في شوارع دمشق القديمة.

الأخير كان يفكر، وهو ينتظر في الصالون، برائحة زيت اللوز التي تفوح من بشرة ميّاسة وخصلات شعرها كل ليلة، تملأ زوايا الصوفا التي ينام عليها في الصالون. رائحة تنفّره.. وميّاسة لم تعد تستعمل مساحيق التجميل المعطرة، لقد استبدلت الطبيعية بها حسب مبادئ المايكروبيوتك. ليست تلك الرائحة فحسب التي تثير اشمئزازه، بل الأطعمة العجيبة التي باتت تخترعها: حساء الميسو مع الخضر مرة ومع البقول مرة أخرى. بات يشتهي اللحوم والألبان والبندورة بحق.

كان يفكر أيضاً أن أكثر من خمسة أيام مرت ولم يعد إلى البيت مما جعله ينكمش على الرغم من فرحته باليوم الحافل. كان عليه أن يطمئن على ديانا على الأقل مع أنه يحدّثها على الهاتف يومياً.

جدران غرفة الجلوس في بيت لمى تغصّ بالصور والملصقات والأوراق: صور منزوعة من مجلات، أوراق خطّ عليها مقاطع من قصائد شعر، أجساد عارية، أعضاء متداخلة: إنانا ودوموزي متعانقين، قبلة رودان، أمازونية خلابة من ليبيا تتلوى بمتعة، وروزنامة طريفة تشكّل وضعيات المضاجعة فيها أرقام الشهور وأيامها. كان يحلو لإياد أن يتمعّن طويلاً بتلك الروزنامة، يفصّل خطوطها الدقيقة المتداخلة، ويتخيّل كيفية ممارسة تلك الوضعيات.

ـ على الرجل أن يكون لاعب أكروبات كي يستطيع ممارسة الجنس بهذه الطرق.

وتقهقه لمى رداً على جملته التي لا يملّ من إعادتها كلما فرغ من تأمل الروزنامة. ثم يعيد قراءة جزء من نص مخطوط على ورقة طولية، مسطّرة غير مشذبة، ألصقت على يسار الروزنامة تلك:

نائم في أقطانه

سيدي الصغير

لا يفيق على نايات اليد.

قمع سكر

يذوب في الرغاب

غرّ

مُزدهٍ بحليه والتخاريم[٤٤].

خرجت لمى ضاحكة من غرفة النوم وهي تراقب إياد يتملّى في الورقة. ثم اقتربت متدللة لتجلس في حضنه جاعلة كل ساق من ساقيها على أحد جانبيه. خلال ثوان تبدد شعور الذنب الذي كان ينغصّ إياد، انمحى ما كان يفكر به بخصوص ديانا ومياسة ليحيط خصر لمى بيديه ويعضّ أعلى كتفها العاري. ثم ما لبثا أن غرقا في قبلة طويلة جعلت شفتيها تبدوان ورديتين متورمتين وشهيتين أكثر حين انتهائها.

ـ أحبك بجنون.

أجابته بإطباقة قوية على ذكره جعلته يصرخ، ثم انقلبت فوقه وهي تحسّ النائم يهب مستفيقاً.

ـ أتعرف حبيبي ما هو المحمود من الرجال عند النساء كما يقول الشيخ النفزاوي؟

ضحك إياد. كانت تبدو مستعدة لإلقاء أحد دروسها الإيروسية. ولأنه لم يكن يريدها أن تتكلم أطبق بكلتا شفتيه على فمها ليغلقه. تملّصت وأكملت: كبير المتاع، الشديد، القوي، الغليظ، البطيء الهراقة، السريع الإفاقة من الشهوة.

ـ كيف حفظتها كلها؟ وهل هذا يعني أنني غير محمود؟

ـ والله لا أعرف بعد.. ما رأيك أن نعاين الموضوع في السرير؟

---

(٤٤) من قصيدة «وردة الدانتيل السوداء» لأمجد ناصر.

حملها إياد وهي تصرخ ضاحكة، ثم رماها على السرير، ورمى بنفسه فوقها.

ـ سأخبرك اليوم عن علامات استمتاع المرأة في فن الحب؟

ضحك إياد من جديد وهو يشير بحاجبيه أن لا، لكن ذلك لم يجعلها تصمت:

ـ في البداية يحمرّ وجهها وتصبح أذناها ساخنتين.

ثم أخذت كفيه ووضعتهما على أذنيها، وتحسس إياد سخونة طفيفة في أذنيها الصغيرتين.

ـ وقتها تعرف أن الجنس صار يعنّ على بالها، ووقتها ينبغي أن تبدأ بمداعباتك كرجل.

ثم تقود كفيه إلى نهديها النافرين من تحت ثوبها واللذين يحتضنهما ستيان من الساتان المخرم بلون بوردو فاتح.

ـ ثم ما هي العلامة الثانية؟

ـ حلمتاها تنتبجان، وأنفها يتعرق، وقتها يجب أن يعرف الرجل أن شهوتها تزداد.

ـ والثالثة؟

ـ لمَ الاستعجال؟! أخبرك بها بعد قليل.

كان على إياد لحظتئذ أن يقول لها ما رغب مراراً في قوله. كان يريد أن يفصح عما بات يزعجه وهو ينعاد في كل مرة يلتقيان

فيها. كان يتوق لإخبار حبيبته بأن الجسد، حين يكون عاشقاً، لا يحتاج إلى مراجع لشهوته، يستطيع أن يخطّ سفره الخاص المتفرد بهدى عشقه لا غير. أداء جسده العاشق لن يكون الآن حكراً على مجموعة من التعليمات والأبيات المحفوظة. كان يريد أن يقول لها إنه بات يضجر من دروسها الإيروسية المتكررة، وإنه يفضّلها بدون ذاكرتها النظرية تلك. لتدع جسدها الهائل بتفانينه يعلّمه دون نظريات. كان يريد أن يقول ويقول لكنه أحجم حين صار صوت لمى، بعد دقائق، خافتاً وهي تناجيه وتدعوه متدللة وعيناها مغمضتان. كانت حنجرتها تصدر أصواتاً مبحوحة، وساقاها يحتضنان خصره وهو فوقها على السرير، فيما تنغرس أظافرها عميقاً في لحم كتفه.

...

ـ هذه هي العلامة الخامسة.

قالت بعد دقائق وهي تلهث.

فتحية زانا امرأة سمراء كردية تبلغ الأربعين تقريباً.

سحر بشرتها الغامقة وسم المكان حين أطلّت علينا بعينين مكحلتين بلون العسل تكتنفان كل غواية من الممكن أن تحملها امرأة. تذكرت لوهلة، تحت سطوة أنوثتها الفيّاضة، جملة محمود درويش: امرأة تدخل الأربعين بكامل مشمشها.

تلك المرأة الكردية كانت تلج أربعينياتها، كما تلج غرفتنا، بكامل مشمشها.

طوال الفترة التي عملت فيها هنا في السفارة، كانت النساء الطالبات اللجوء قليلات، قليلات للغاية، وفتحية قد تكون السابعة أو الثامنة على أبعد تقدير. أحببتها تلك المغوية الأربعينية، كانت

ضحكتها المجلجلة تحمل الكثير من التحدي والفتنة، وتسفر عن صفّ من الأسنان غير المنتظمة والمزنّرة بإطار بني.

جلست قبالتنا على كرسيها، وضعت بثقة ساقاً فوق ساق، ثم فتحت حقيبتها لتخرج باكيت دخان بلون صدفي لم أتبين نوعه.

- Is it ok to smoke?[٤٥].

سألت وهي ترمق جوناثان بدلال.

- I'm afraid you can't[٤٦].

أجابها جو مفتوناً. كانت عيناه تراقبان كل جزء من جسدها الأنثوي الأسمر.

فتحية زانا عراقية من حلبجة، المدينة الكردية المنكوبة بالكيماوي في شمال العراق، لكنها كانت تقيم في أربيل عاصمة الشمال، ولطالما أقامت فيها كما أخبرتنا.

عائلتها قتلت بالكامل.. أبوها وأمها وأخوتها الثلاثة وأولاد أخيها، كلهم قضوا في مذابح حلبجة، فيما بقيت وحدها من العائلة.

ترجمت ما قالته فتحية وأنا أتأتئ بكلماتي. كنت مرتبكة من ثقتها

---

(٤٥) مسموح الدخان؟

(٤٦) لا.. للأسف.

المتدفقة، من طريقتها في الكلام دون أية مبالغات أو حركات استعراضية، أو هكذا شعرت، على الرغم من قهر التفاصيل الكثيرة التي بدأت تسفحها أمامنا.

أحسست بالخجل من نفسي. صغيري الذي بلغ شهره السابع يجعلني أبدو كطفلة سيقت من مدرستها إلى هنا. يتحرك باستمرار ودون توقف في بطني. كانت الغيرة تدبّ داخلي من امرأة قوية قبالتي. بادرتني فتحية التي أحست بارتباكي:

ـ أستطيع أن أحدّثه بالإنكليزية لو أردت.

ـ لا.. لا تهتمي. أكملي وسأترجم.

تحدثت فتحية عن تاريخ الشمال بسلاسة كأنها تقرأه من كتاب أمامها. ابتدأت بالقتال الشرس الذي اندلع في عام ١٩٩٤ بين الاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الديموقراطي الكردستاني بعد تصاعد الخلافات بينهما.

ـ وحينها طلب مسعود البرزاني تدخّل الجيش العراقي فلبّى الأخير بكل سرور طلبه، ووجّه ضربات شديدة لقوات الطالباني.

ـ عزيزتي فتحية.. لست مجبرة على إعلامنا بالوقائع التاريخية. رجاء احكِ قصتك فقط.

كم كنت لئيمة وأنا أقلب شفتي السفلى وأنبهها.

ـ لكن كل ذلك جزء من قصتي.. جزء من قصة كل كردي في الشمال! إنها حرب أهلية، أتعرفين يا مدام ماذا تعني حرب أهلية؟ إضافة إلى كل ما كيّله لنا النظام العراقي!!

... ـ

أسقط في يدي، كان علي أن أدعها تكمل حديثها الذي استطال كثيراً واستطال، فيما حذائي، الذي راح يضيق على قدميّ المتورمتين، والمغصات المتواترة في أسفل بطني، يشتتان تركيزي. شعور مقيم بضيق راح يخطّ تفاصيل يومي، حتى شعري لم أعد أتحمّله على ظهري، أعقصه إلى الخلف دوماً تاركة رقبتي حرّة، لم أعد أستطيع تحمّل أي شيء عليها.

تعثر إعلان الاتفاق بين الحزبين في تشرين الأول ١٩٩٦، ولم ينجح وقف إطلاق النار الذي كان مقرراً في الشهر الذي يليه على الرغم من الرعاية الأميركية والبريطانية والتركية للمبادرة. بعد ذلك، في أيلول ١٩٩٨، وقّع الطرفان بوساطة أميركية اتفاقية جديدة. لكن صدامات مسلحة عادت ونشبت بينهما بعد سنتين، استمرت لعدة أيام وأدت إلى سقوط ٤٠ قتيلاً. استمر القتال بصورة متقطعة على مدى أسبوعين في عدة مناطق، من بينها قلعة ديزة ورانية وزيلي. ثم توقف في تشرين الأول ٢٠٠٠، عندما أعلن الاتحاد الوطني الكردستاني وقف إطلاق النار من جانب واحد.

ـ تعرض الدكتور برهم صالح، رئيس الحكومة الكردية بالسليمانية، لمحاولة اغتيال، واتهمت جماعة أنصار الإسلام الكردية بتدبيرها على الرغم من أنها نفت ذلك.

كنت أريد أن أقول لها: وماذا يعنيك ذلك. حين ألحقت بحديثها:

ـ وهنا قتل أخي الكبير مصطفى زانا، وهو لم يبلغ بعد عامه الواحد والأربعين، بعد أن قضى أولاده وامرأته في أحداث حلبجة الكيماوية.

همست في أذن جو بأن علينا تأجيل مقابلة فتحية إلى الغد لأنها طويلة جداً على ما يبدو. رفض جو ذلك بحركة من رأسه ودعاني لأكمل الترجمة.

كل ذلك دفع فتحية إلى الزواج بعد أن أضحت وحيدة تماماً. وكان شاباً كردياً أيضاً من أربيل.

ـ ربما لم أحبه تماماً، لكنه كان شاباً متعلماً، ويعمل في دكان صغير للحبوب يملكه.. كان هذا يعني أني سأعيش عيشة كريمة لا أحتاج فيها أحداً.

إثر زواجها بشهرين قتل زوجها أخته في أربيل لأنه اشتبه بأنها تعشق رجلاً من الحارة. استدرجها من بيت أهلها لتزورهم في بيته، وبعد العشاء ذبحها وهي نائمة في السرير.

ـ رأيت دمها يملأ الشراشف، رقبتها الحمراء تكاد تنفصل عن جسدها.. وعيناها المرعوبتان تكادان تخرجان من محجريهما.

بعد أكثر من ثلاثة أرباع الساعة أرى فتحية مضطربة لأول مرة، اغرورقت عيناها بالدموع وراحت يدها ترتجف.

ـ قال لي، وهو يمسح السكين بالشرشف، إن أية امرأة تلوث سمعتها وسمعة أهلها لن تجابه إلا بالذبح.

ـ ...

وبلعت ريقها ومعه بقية الدموع لتعود فتحية المتماسكة من جديد. لكن مسحة من النداوة ظلت تمور في مقلتيها العسليتين، وأضحى وجهها كسيراً.

ـ قانون العقوبات العراقي المعمول به في الإقليم الكردي منذ عام ١٩٦٩ يتساهل جداً، كما تعرفين، مع جرائم الشرف.

ـ ...

ـ لم يقض زوجي إلا أشهراً قليلة في السجن، وخرج ليحوّل حياتي جحيماً.

أخرجت فتحية من حقيبتها ورقة وقدمتها لي. كانت تتضمن دراسة ميدانية أعدتها باحثة كردية عن جرائم غسل العار في كردستان العراق للفترة من عام ١٩٩١ لغاية ٢٠٠٠.

Imagine Joe, In less than nine years, 632 women ـ were killed in Irbil governorate, 575 in AlSuleimaniya and 196 in Dhuk.[٤٧]

---

(٤٧) تخيّل يا جو في أقل من تسع سنوات قتل في محافظة أربيل ٦٣٢ امرأة، وفي محافظة السليمانية ٥٧٥، وفي محافظة دهوك ١٩٦.

ـ ...

بدا جو متأثراً للغاية.

ـ في شهر آب الماضي أصدر المجلس الوطني لكردستان العراق قراراً ينصّ على ألا يعتبر ارتكاب الجريمة بدافع غسل العار عذراً قانونياً مخففاً.. لكن الأمر ما زال حتى اللحظة غير مسيطر عليه.

ـ The same thing happens in your country, Annat.. I think I heard about this a while ago[٤٨].

سألني جو هامساً. كان يقصد الحملات الأخيرة ضد جرائم الشرف التي راحت بعض الجمعيات الأهلية والجهات الحقوقية تحاربها. ولم أجبه فقد تعبت للغاية. أحسّ طفلي يركل رحمي متأففاً محتجاً على كل الويلات التي يسمعها ليل نهار. إني أتورط حقيقة، أتورط في حيواتهم في الوقت الذي أطالب فيه بالعكس، أطالب بنقلها فحسب. أرواحهم المكلومة كانت كفيلة ببثّ كل قروحها في روحي. أنا أخسر خبرتي المتراكمة في الترجمة الفورية! صار الأمر حقيقة جليّة بادية أمامي.

وقفت دون أن أكلّم جو.

---

(٤٨) الأمر موجود عندكم أيضاً عنات.. كأني سمعت هذا قبل فترة..

لم أودع فتحية التي كانت تنتابني تجاهها مشاعر مختلطة من إعجاب وتعاطف وكره. مشاعر مختلطة لا أكاد أقبض عليها جيداً. كانت فاتنة قوية وأنثوية للغاية، وأنا أحسّ بملامح الذكورة تغزو وجهي. ربما كان السبب عائداً لفكرة قرأتها يوماً عن أن المولود الذكر يضفي من هرموناته المذكرة على أمه. الأمر يتضح يوماً بعد يوم. كان الكلف يغطّي معظم مساحات وجهي، ومعالمي تتضخم وتغلظ، وأنفي تضاعف حجمه، شفتاي، كفاي... أحسّ بأني أبتعد عن أنوثتي بالقدر نفسه الذي أقترب منها.. لا أعرف كيف!

أشعر بالغيرة من فتحية، أحياناً أشعر بالغيرة من أية امرأة تترقرق الأنوثة من تقاطيعها، كما أشعر بالفخر وأنا أكتنف ذاك الكائن داخلي.. مشاعري مختلطة، مختلطة إلى درجة الدوار!

خرجت من مبنى السفارة من فوري.

كانت هناك مجموعة من الرجال والنساء السمر يتكلمون لغة غريبة. أعتقد أنهم أفغان. فقد مرت مدة تكاثر فيها طالبو اللجوء الأفغان الهاربون من بطش طالبان والأسلحة الأميركية..

مساكين. لا أدري لماذا فاجأتني طريقة لباسهم؟! كنت أنتظر رؤية أفغان بعباءات قصيرة وسراويل فضفاضة تحتها. حتى النسوة كنّ بأغطية رأس عادية.. أين الشادور؟!

لهنيهة كنت سأنزلق في أسئلتي! كنت سأفكر بالويلات التي خُزّنت في دواخلهم حتى وصلوا إلى هنا. كنت سأستحضر

أطياف النساء اللواتي جلدن، أو قتلن، أو أهنّ في ملاعب كرة القدم وقد تحولت إلى ميادين للعقوبات. لثوانٍ كنت سأرتب سيناريوات مفترضةً عن حياة دون تلفاز، ولا غناء، ولا موسيقى، ولا كومبيوتر، ولا كهرباء، ولا مساحيق تجميل، ولا عطور، ولا علكة، ولا ألعاب، ولا...

لكنني لن أفكر، ولن أستحضر، ولن أرتب.. ببساطة، لن أنزلق.. تكفيني ويلاتي. كنت قد قررت: لن أستطيع الاستمرار أكثر. اعذريني فتحية لن أستطيع الإكمال بعد، ستأتي مترجمة أخرى أو مترجم آخر مكاني، هناك الكثير منهم، وسيرغبون من كل قلوبهم في أن يساعدوك، وأن يساعدوا غيرك.

اعذريني فتحية، أتمنى من كل قلبي أن تنجحي بالهرب من هذا الخراب. خراب خراب.. قلبي معك يا عزيزتي.

أما جوناثان فسأشرح له في ما بعد، سيفهم الأمر بكل تأكيد. البارحة فاجأني بجملة كنت أنتظرها منه طوال السنوات المنصرمة. أخيراً باح لي ولكن بطريقته. قال إنه لن ينسى أبداً ما عاشه هنا، لن ينسى هذه التجربة المريرة، وربما سيضطر، طوال ما بقي من حياته، إلى التردد بشكل مواظب على طبيب نفساني، ربما يستطيع بعدها العودة للعيش بأمان مجدداً.

وأنا أنسلّ من البوابة اعترض طريقي شاب سوري، كان قد تمّ توظيفه أخيراً في السفارة، سبق أن لمحته غير مرة يقفز في الكوريدورات بتقاطيعه الناعمة ولكنته الدمشقية. كانت لديه سحنة الأرانب على أية حال. حسبما فهمت منه فإنه يعمل على ملف

حقوق الإنسان في سورية، ويبدو أنه سمع بطريقة ما أن زوجي كان معتقلاً سابقاً.

بادرني بالتحية قبل أن يبدأ كلامه بسرعة جعلتني أنصت بكليتي كي ألتقط بعضاً مما يريد.

ـ تعرفين مدام أني أعمل على خروقات حقوق الإنسان من اعتقالات ومنع سفر وتوقيف عن العمل واختفاء قسري وما إلى ذلك. وأنا أحاول إعداد التقرير السنوي الآن..

ـ نعم!!

ـ كنت أريد أن أرى زوجك كي آخذ منه بعض المعلومات عن سجنه ووضعه الآن بعد إطلاق سراحه، وضع العمل والسفر وحقوقه المدنية و.. إن لم يكن لديك مانع مدام.

ـ بالتأكيد ليس لدي مانع لكنه سافر.

ـ سافر؟ إلى أين؟

ـ إلى السويد.

ـ حسناً.. الله يرده بالسلامة مدام. تستطيعين مساعدتي إذاً؟

ـ بالطبع.. لكن ليس الآن!!

لم يدعني الشاب أتملّص حتى أخذ مني موعداً في الغد، لكن ليس في السفارة بالطبع، لأني لن أعود إليها يوماً، عهد أخذته على نفسي. ولا أعرف حقيقة كيف تورّطت بهذا الموعد، وما الذي من الممكن أن أفيده به؟! لكن المهم أني استطعت الآن التخلص منه ومن لسانه الذي لا يتوقف عن الحركة البتة.

إلى البيت رحت أجرجر نفسي.

في بيت مياسة كنت مضطجعة على السرير.

همست وأنا أمسّد بطني الذي راح يربو عن جسدي: مرّت سبعة أشهر ونصف بالضبط.

ـ سبعة أشهر ونصف على ماذا؟ على سفر جواد.

ـ على سفر جواد وتكوّن جنيني..

ـ صحيح هل عرفت جنسه؟

ـ عرفت.. إنه صبي.

ـ ...

ـ ليلة سفره كان الأمر.

صمتت ميّاسة. كانت تبحث في رأسها عن شيء ما تقوله لي، ربما

يسرّي عنّي، لكنها لم تجد. كنت قبالتها في ثوب حمل من الجينز الأزرق يجعل من بطني يبدو أكثر استدارة. ومرهم الترطيب الذي دهنته قبل قليل يزيد من جنون الحكاك. سألتني متى تحدثت معه آخر مرة.

ـ قبل أن آتي إليك بساعة.. أحسّ بأني سأختنق.

ـ حبيبتي فكري قليلاً فيه.. من الممكن أن يجد نفسه هناك.. ليس سهلاً ما تعرّض له هنا!!

ـ وأنا من سيفكر فيّ؟

ـ ...

ـ وعلى فكرة تركت العمل في السفارة.

ـ ...

كذلك بقيت مياسة صامتة ترمقني بتعاطف.

المشكلة أننا لا نستطيع الاقتناع إلا بالويلات التي تترك علاماتها على أجسادنا! لا نستطيع أن نستوعب إلاّ مكان القيد الذي حفر في رسغي جواد وترك ندبته إلى اليوم. لا نفكّر إلا بسنوات سجنه وعذاباته المتراكمة. إنها كوارث بالتأكيد، لا أبخس ذرة من الأمر، لكن العطب الداخلي الذي طال الكثيرات منا من سيتلمسه؟!

فكرة تخطر ببالي في كل مقابلة أترجمها وأنا أرى طالبي اللجوء يستميتون لإقناع السفارة بالموافقة. حقيقة، ولمَ ينبغي أن أهمل المسألة، يد مقطوعة أو قطعة محروقة من جسد كفيلة بإخراج اللاجئ على الفور من جحيمه، فيما لا نستطيع أن نحفل بروح كاملة متفحّمة ومتآكلة في داخله.

حين همّت ميّاسة بقول شيء طق المفتاح في قفل الباب. كان إياد الشالاتي. رمى السلام، ثم قبّل عنات، ودخل من فوره إلى غرفته.

حدّقت عنات في مياسة بعينين تنضحان بالأسئلة فأطرقت الأخيرة دون إجابة.

ـ ...

ـ كأنه إنسان آخر غير الذي أحببته وتزوجته.

قامت ميّاسة لتعد شيئاً في المطبخ، فصاحت عنات إثرها:

ـ وأنت صرت إنسانة أخرى.. سنوات طويلة مرت، عمر يا ميّاسة، أنتما حقيقة تتعرفان إلى بعضكما من جديد.

ـ بعد خمس سنوات؟!

ـ ...

ـ ثم أتمنى أن تقتنعي أنت أولاً بهذه الفكرة عنات.

أجابتها ميّاسة بقسوة وهي تصفّي فول الصويا الذي سبق أن نقعته منذ البارحة بالماء. وضعته في الخلاط الكهربائي، وأدارت الأخير ليخرج شيء أشبه بحليب عكر.

ـ الآن صار حليب الصويا جاهزاً.. بقي أن أعصر التفل الباقي لأصنع التوفو.

مطبخ ميّاسة المليء بالأدوات الخشبية، قدور الفخار، الحبوب المحفوظة في قنانٍ زجاجية، وأعشاب البحر مختلفة الأشكال، بدا أشبه بمطبخ ساحرة في فيلم خرافي.

وسط الموجة الجديدة التي حملت ميّاسة معها كان عليها أن تستيقظ قبل السادسة كل صباح كي تنقع فول الصويا بالماء، تحضّر الخضرة المسلوقة بعشبة البحر كومبو، وتبدأ بإعداد جبن الصويا.

قبل عدة أيام قررت أن عليها البدء بزراعة الخضرة في حديقة خاصة بها، خضرة بدون أسمدة كيماوية، تعتني بها بيديها دون أن يلمسها أي جسم غريب. بالفعل استطاعت أن تحصل على قطعة من حديقة بيت أختها ضحى القائم على تخوم المليحة بين بساتين اللوز.

صبّت ميّاسة لعنات مشروباً حائل اللون تتصاعد منه رائحة غريبة، وحلّت الكأس بملعقة من دبس العنب.

ـ ذوقيه وستدعين لي.. إنه شاي الشعير المحمص.. مشروب هائل عنات، واهب للطاقة ومعتدل غذائياً.

ما إن قرّبته عنات إلى أنفها حتى أبعدته متقززة. ثم طلبت شاياً عادياً كالذي تشربه كل يوم.

ـ ليس لدي عنات.. عندي شاي أخضر إذا أردت، لأن الشاي الأسود والقهوة لم يدخلا بيتي منذ زمن طويل.

ـ ...!!!

ـ والسكر أيضاً والملح.. والزيوت، لا أستخدم إلا زيت السمسم.. والباذنجان والبندورة والفليفلة كلها لم نذقها منذ زمن.

ـ وبماذا تملّحين الطعام؟

ـ بملح البحر عنات! ولا تبدئي سخريتك.. لم تعد تهمني.

ابتسمت ميّاسة وهي تقطّع الخضرة برفق إلى مكعبات صغيرة للسلق.

لا يعقل أن تقضي امرأة يومها في تحضير الطعام فحسب!! فكرت عنات بصمت.

ـ الغذاء في الحقيقة يا حبيبتي هو العامل الأساسي والمهم المؤثر بصحتنا.. وإن شئت بأرواحنا أيضاً.

ابتسمت ميّاسة من جديد بعد أن ألقت جزءاً من محاضرتها المايكروبيوتيكية. كان لوجهها الخالي تماماً من المساحيق نظرة غريبة وكأنها كانت تنتظر كلمة من عنات. حين لم تتلقّها راحت تسرد أن للخضرة حياة أيضاً، ينبغي أن نرفق بها حتى ونحن نقطّعها. كلّمتها عن الغذاء المتوازن، عن الأمراض التي عولجت بنظام المايكروبيوتك حين عجز العلم عنها، حدثتها عن أجسامنا التي قتلناها بغذائنا السيئ، غذائنا المليء بمخلفات الحضارة القاتلة والسامة بعيداً عن أمنا الطبيعة، أمنا التي حينما نسيناها حرمتنا العمر المديد، وسلّطت كل قوتها كي تسقم أجسادنا بشتى أنواع الأمراض، وتسقم أرواحنا بالتوتر وعدم الاستقرار!

ـ طيب عزيزتي أحبّي ما تريدين، لكن شو رأيك نتحدث بموضوعنا الأهم.

ـ تقصدين إياد؟

ـ بالتأكيد.

ـ لم يعد موضوعي المهم.. صدقيني.

هزّت ميّاسة كتفيها بلامبالاة وهي تنتقل إلى حبات الشمندر والجزر لتليّفها بليفة ذات أسنان طبيعية موضوعة على المجلى، ثم أكملت حديثها وهي منهمكة بالغسيل:

ـ عنات عندي شعور أكيد أن هناك امرأة ثانية.. شعور حقيقي.

ـ وكيف ستتصرفين؟

أكملت مياسة غسيل الأرز البني الكامل القشرة، كان يبدو أن الأمر لم يعد يهمها. لم نكن سعيدين أبداً عنات. قالت، ثم راحت تستفيض بحديثها لكن هذه المرة عن السلام وارتقاء الروح، وعدم رغبتها بالانغماس في صغائر الحياة، وأن الحياة ينبغي أن تعاش هناك بعيداً عن أية تفاصيل هزيلة تفقدها معناها الأسمى والأرقى.

ليذهب إياد حيثما يريد، لن أدعه يجرّني إلى دركه بعد اليوم. أشعر بالأمان والتماسك والانسجام. الأهم أنا أعيش السلام الذي حرمت منه طويلاً. السلام يتسلّل إلى كل خلية مني.

أنا راسخة شفافة طافية كما لم أكن يوماً.

وهي تتحدث تناثرت بضع حبات من الأرز المغسول على الأرض، ركضت ميّاسة من فورها لهفة كي تلمّ الحبات حبة حبة.

ـ تعرفين عنات.. لا ينبغي أن تقع أية حبة على الأرض، سأكون عندها قد أجرمت.

ـ لا بأس حبيبتي ليست هذه بالمشكلة الكبيرة!!

ـ كيف ليست مشكلة؟ أنت لا تقدرين المشكلة حبيبتي! لو رمى كل منا حبة في كل وجبة نكون قد أضعنا ما يكفي أكثر من مليون إنسان لمدة عام كامل.. كيف ليست مشكلة؟

ـ لا بأس ميّاسة لا بأس.. ما بك؟! الأمر لا يستحق كل هذا!

ـ كيف لا يستحق عنات؟! كل حبة تساوي مية ألف حبة لو زرعناها. هذا ما يقوله جورج أوساوا.. معلمنا الأول.

أنهت ميّاسة لمّ الحبات بسرعة، وألقتها بعناية في قدر الطبخ الفخارية، ثم تشاغلت عن عنات، الواقعة تحت سطوة الموقف، بالتقطيع من جديد وهي ترسم ابتسامة هادئة ثابتة على وجهها.

بعد فترة صمت، بدت لعنات دهراً، بادرتها مياسة فرحة وكأنها تذكرت شيئاً للتو:

ـ نسيت أن أخبرك.. لقد اتصلت مع ضحى قبل أيام.

ـ رائع!

ـ ستأتي إليّ في الغد.. اشتقت لها كثيراً.

ـ رائع مياسة، تعرفين رأيي في الأمر.. لكن ما الذي جعلك تفعلين ذلك؟! كنت مصرّة طوال سنوات على قطع العلاقة معها؟!

ـ اقتنعت بأننا مختلفتان.. وليس في الأمر أية مشكلة.

ـ ...

ـ ثم إنها ضحى عنات.. ضحى التي عشت معها طفولتي

وشبابي.. حزني وفرحي.

... ...

ـ ضحى هي ذاكرتي عنات.. ذاكرتي. تعرفين ماذا تعني ذاكرتي؟!

في البيت كان حسن ينظّف أرضية البيت بممسحة ذات يد خشبية طويلة محتفظاً بسيجارته بين شفتيه. لأول مرة تراه ابنته على هذه الحال. كان يعمل عمل النساء!!

ـ خير أبو حيان، خير إن شاء الله شو صاير؟!

بلكنة متهكمة حيّته عنات. ابتسم وهو يكمل التنظيف وكأنه اعتاد طوال حياته على هذا العمل. ستأتي إيزابيل غداً، وثمة أنوار متّقدة تسطع من ذاك الوجه العجوز الأسمر.

إن طيف الخيال حين ألمّا[٤٩]

هاج لي ذكرهُ وأحدث همّا

---

(٤٩) من قصيدة لعمر بن أبي ربيعة.

كان المطبخ نظيفاً أيضاً، وهناك شيء ما يغلي في الطنجرة على الغاز.

ـ وتطبخ أيضاً أبو حيان؟.. لا، هذا تطور ما بعده تطور!

ركض حسن من الصالون إلى المطبخ.

ـ تعرفين بابا أنا كنت أطبخ المجدرة دائماً لخالتك سنية. وكانت تحبّها جداً من تحت ديّاتي.

ـ ولمَ لم أذقها منك في حياتي؟

لم يجب حسن، عاد متشاغلاً إلى الممسحة.

بدا البيت مختلفاً. هناك غمامة عطرة تلفّه، وملاءات جديدة على السرير، الطاولة مرتبة، والشباك مفتوح على مصراعيه. فيما صورة سنية العلي ممسوحة الزجاج لمّاعة وقد علّقت عليها باقة من الزهور البرية المتنوعة، ونزعت صورة صباح من على الجدار! ربطة التبغ، التي أُخرجت من تحت مسند الصوفا، موضوعة على إفريز النافذة.

أنهى حسن التنظيف، ثم راح ينتقي فحول البصل كي يقشرها ويقطّعها. كان يريد أن يذيق إيزابيل المجدرة على أصولها مع الكثير من البصل المقلي بالزيت فوقها.

ـ اتصلت إيزابيل اليوم عنات، بكره الصباح لازم نروح عالمطار.. ستصل عند السابعة صباحاً.

ـ إذاً كل شيء ينبغي أن يكون معداً خلال الساعات القليلة المتبقية لليل.

ـ بابا عنات، ممكن تنام إيزابيل في غرفتك عزيزتي؟ إن كنت لا تنزعجين من الأمر!!

صوته المتضرع جعلني أوافق فوراً بهزة من رأسي. حسناً إذا كان نومها في غرفتي سيسعدك كل هذه السعادة فلتنم بقية عمرها على سريري.

ـ وأنا سأنام في الصالون.

ـ ...

ـ وأنت في سرير أمك كما كنت وأنت صغيرة.

وضحك مربتاً على كتفي.

مسكين يا عجوزي! صوت امرأة آت عبر آلاف الأميال جعلك عاشقاً في العشرين. مسكين عجوزي! لم أتوقع أن يغيّره الأمر بهذا القدر! كان ينبغي أن أتمدد، لن أخبره الآن بتركي العمل لأدع فرحته صافية دون أن أنغّصها بقلقي.

بطني المنتفخ بدأ يعوق حركتي حقاً منذ فترة، ويجبرني على النوم على أحد جانبي، وحين أنقلب إلى الجنب الآخر يجيبني طفلي بركلة متحببة. فيما الشقوق الطويلة تدرز أسفل بطني بلونها الخمري، تجعلني أمقت النظر إليها في المرآة، على الرغم من أني لم أكفّ يوماً واحداً عن دهنها بمراهم الترطيب. يا إلهي كم أنا مشتاقة للقياك يا صغيري!

ـ ما بالك، أنت متعبة حبيبتي؟

ـ لا، لا أبو حيان أنا أرتاح فقط.

ـ ستذهبين معي غداً؟

ـ بالتأكيد بابا.. بالتأكيد.

لمَ يثير قصر الحمراء فيّ ما لا يثيره في أصدقائي؟

لا غالب إلا الله! تتهادى على كل حائط منه مزخرفة منمّقة. تلك الزخارف تتناغم مستقيمة ومائلة، منكسرة ومنحنية، الخيط والرمي، كما كان العرب يسمونها، كأنها الذكورة والأنوثة يتناغمان، يتجاذبان ويتباينان، كأنهما ذانك القطبان في داخل كل مبدع. تلك الزخارف ما الذي كانت تفعله بي؟

صرت أحسّ الذاكرة هناك تمتصّني كدوامة سوداء، تجذبني رغماً عني إليها. يناديني أصدقائي: إيزابيل.. إيزابيل.. أسمعهم من مكان بعيد بعيد وألج تاريخي.

حين أدخل قاعة الأختين تلفحني موجة باردة، تشبه تلك الموجة التي تلفح من يتذكر شيئاً مرمياً في قعر دماغه! وتبدأ نوبة من الصداع تمسك بدماغي.

تناديني الأسود البيضاء، تزأر من حولي بأصواتها الحجرية. أشعر بأن عليّ تذكر شيء ما، شيء ملحّ ما، لكني أعجز عن التقاطه! كلما مشيت في أزقة مدينتي أحسّ همسات بعيدة تناديني. همسات كتلك التي تعجّ بها الموسيقى التصويرية لأفلام الرعب.

ذاكرة الأرواح تحاصرني.

أكاد أحسّ غرناطة، مدينتي الفاتنة، تغصّ بالملايين من الأشباح الشفيفة. أشباح الموريين[٥٠] تلتقطني في مدخل البيازين[٥١]. أحب أن أزوره.. أتوق للقياه. لا أدري لماذا؟

تقول أمي إنها الجينات. جينات تركها جد جدي الأندلسي فيّ.. ربما! لا أدري إن كانت الجينات هي التي جعلتني أتعلم العربية! ربما كان الزمن الذي مرّ ليس بقليل، ثمانية قرون ليست بقليلة، كي تحفر تلك الأشياء المسماة جينات في عمق مدينتي.

بعد أن تعلمت العربية رحت أكتشف أن التروبادور[٥٢] الذين طالما عشقتهم وطالما أسكروا أوروبا القرن الثاني عشر بقصائد الهيام، وبلبلوا تزمتها الكنسي المقيم، ما هم إلا خلفاء لشعراء العرب في القرن الحادي عشر، خلفاء لابن فرزان والمعتمد الإشبيلي، ومن راحوا يكتبون ما سمّي الحب العذري. حتى غيوم دي بواتييه تعرّف

---

(٥٠) الاسم الذي يطلقه الإسبان على العرب.

(٥١) الحي العربي الباقي في غرناطة.

(٥٢) التروبادور شعراء متجولون كانوا ينشدون قصائد الحب التي انتشرت في كل القارة الأوروبية.

إلى ذاك النوع من العشق في رحلته إلى الشرق، ومنه استقى كلماته وألحانه.

إن الله يتجلى في كل معشوق لعاشقه، إذ يستحيل علينا عبادة شخص لا نتمثّل الألوهية فيه. هذا ما قاله ابن عربي. هل كانت رسالة موجهة إليّ بالتحديد؟!

أقف في الميدان الرئيسي، أتأمل المارين شاردة، أحسّ بحرارة غريبة تمور في داخل الغرناطيين، حرارة شرقية وطبائع حارة. مررت قبل قليل بالكاتدرائية الكبيرة وسط القيسرية[٥٣]. أكاد أرى مسجد المدينة من تحت زخارف الكاتدرائية، المدرسة القرآنية في مواجهته وبناؤو القرن الرابع عشر يبنون ليوسف الأول صرحه الإسلامي.

أنا لست مسلمة. ليس الدين ما يغريني.

أحاول أن أشرح الأمر لأمي. إنها أصوات أعمق وأعمق، تتناهى إليّ من الغيب، من بعيد، كأنها آتية من نومي.

ليس الدين ما يغويني. إنها الحيوات الضاربة في الأزل، حيوات مرت، تكررت، وتكررت.. كأن الجسد مجرد قميص من جلد يكتنفها!

يرعبني الزحف القادم من الشمال، كأني من بني الأحمر.

أتحسّس دموع أبي عبد الله الصغير على سفح جبل الريحان، في يوم من محرم سنة ٨٩٧ هـ، وهو يبكي أمام أسوار غرناطة. كأن

---

(٥٣) الحي التجاري كما سماه الأندلسيون.

الأمر كان البارحة، وليس قبل خمسمئة سنة خلت.

أرى شفتي أم محمد ترتجفان وهما تصفعانه بجملها القاسية.

أستيقظ على جيوش الصليبيين، بقيادة فرديناند وإيزابيلا، تنتشر فى الوديان والسهول.

أقرأ معاهدة التسليم، أفنّد شروطها السبعة والستين!

يثيرني الحب في طوق الحمامة، كأني أحيا في دواخل ابن حزم وألتقط ما يلتقطه، أستشعر العشق العربي الماجن الجميل بكل أجزائي الإسبانية! ولطالما جرّبنا، فرناندو وأنا، تلك الوضعيات المتبدلة، الشهوات الشرقية، والعشق الإيروسي في كتب العرب.

أحفظ الموشحات! أدندنها في كل وقت: **جادك الغيث إذا الغيث همى.. يا زمان الوصل في الأندلس.**

جدي الغرناطي لوركا يقولها: هناك ذكريات عربية في كل الجهات، أقواس ضاربة إلى السواد وصدئة.. نساء يبدو كأنهن هاربات من حريم.. ثم غموض في كل النظرات التي تبدو وكأنها تحلم بأشياء ماضية.

جدي لوركا الغرناطي قالها.

...

أنا حفصة بنت حمدون، أنا قمر البغدادية، وأنا نزهون الغرناطية: أرق شاعرات غرناطة.

أنا ولّادة بنت المستكفي، أذوب وأبيات حبيبي ابن زيدون تناجي

أنوثتي: **نكاد، حين تناجيكم ضمائرنا، يقضي علينا الأسى لولا تآسينا.**

أما أنا فسيقضي عليّ الأسى وأنا أحسّ حياتي برمتها مجرد عتبة للعبور. كنت في مكان، أنا الآن في مكان، وربما سأغدو غداً، حين يتحول جسدي إلى كومة من ملابس جلدية، في مكان آخر.

كنت في زمن، ولديّ زمن مغاير!

ـ هل تتقمص الذاكرة؟!

ـ ربما.

ـ إذا كانت أجسادنا قمصاناً لأرواحنا، فلمَ لا تكون أدمغتنا قمصاناً لذاكرتنا أيضاً!

ـ ...

ابن حزم قالها، الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في الخليقة، كما أن للتمازج والتباين بين المخلوقات سرّاً دليله الاتصال والانفصال.

ـ أشعر بأني أعشق رجلاً عربياً.

ـ ...

ـ رجل لا أعرفه. لكنه ربما كان يعرفني! وإلا ما وصلني لفح العشق كلما اقتربت من ذاكرة عربية! وإلا ما شعرت بأنّ جزءاً من نفسي متروك في بقعة أخرى، بقعة معتمة وغامضة في الخليقة.

ـ وأنا؟!!

ـ ...

الحب، أعزك الله، أوّله هزل وآخره جد، دقّت معانيه عن أن توصف لجلالتها، فلا تُدرك معانيها إلا بالمعاناة.

أقول هذا لفرناندو، فيبتسم أحياناً، أو يضحك، وأحياناً يخرج عن طوره. يعرف أني أحبه، أحبه كالمجانين. لكن... أمي تقول يفترض بي أن أزور طبيباً نفسياً. وأنا أضحك، لكني أفكر في الأمر بجدية..

أنا لست مسلمة. ليس الدين ما يغريني.

يغريني التاريخ، الأنفاس التي كانت هنا، والزمن وحده من جعلها لا تشاطرني الهواء ذاته الآن. كأن الزمن ستارة كتيمة، أو شفيفة على الأرجح، تحجب عني حياتي الماضية، أو قد تحجبني عنها، فهي المقيمة وأنا الطارئة.

أعشق ما يسمونه عصر الانهيار العربي في الأندلس، أراه عصر العشق والحرية والإبداع. حين حيّد الزمن الخلفاء العتاة، حيّد طموحهم العسكري والسياسي، وفسح المجال للجمال الذي في دواخلهم، تبدّل التاريخ من ذكورة إلى أنوثة.

تبدل التاريخ حين صار الحكام يموتون بين يدي حبيباتهم القتيلات.

عصر العشق والحرية والجمال.. وإلى الجحيم كل ممالك القوة.. إلى الجحيم. ليست القوة ما كانت تلزمهم، على العكس ربما كانت أشد الأسلحة التي فتكت بهم. كانوا يستطيعون الوجود برسوخ لغتهم، بأشعارهم، بشعرائهم، بثقافتهم، بعشقهم، بجمالهم، وبانفتاحهم.. ولتذهب إلى الجحيم كل جحافل الجيوش المحمّلة بالموت.

قد نستطيع أن نحتل أكبر بلد نريده بثقافة العشق ليس إلا.

ـ أحبهم أولئك المجانين. أحبهم...

ويضحك فرناندو وأنا أصيح وأغمره.

أنا إيزابيل، المرأة الإسبانية الأندلسية العربية:

جسدي عتبات للمرور. روحي غطاء لذاكرة مسافرة. قلبي يغصّ بحبٍّ بعيد غريب وغامض.

إنا إيزابيل، ليس لذاكرتي مكان أو منطق، ليس لروحي سكن أو مستقر.

وحده جسدي يوثقني إلى هنا!

وحده جسدي يقرّ في غرناطة.

في الصباح التالي استيقظت متأخرة.

كان البيت فارغاً. لقد ذهب أبي وحده إلى المطار دون أن يوقظني. ثمة ورقة مصفرة على الطاولة النصفية بجانب الصوفا تركها أبو حيان. كانت رسالة شعرية لي. انتابتني نوبة من الضحك المتواصل. يا إلهي لعجوزي المراهق!

(أيها الناس ارحموني

وتمشّوا بي إليه

كلموه في سكون

لا تشقّنّ عليه...

حبيبتي عنات، هذه لأبي النواس. رسالة (متعفنة) من عجوزك العاشق، الذاهب إليه، لكن دون أن تمشي به أنت يا صغيرتي).

وليكن.. أستطيع أن أمارس طقوس الصباح الخمولة باستمتاع دون أن يكون ثمة عمل ما يلاحقني. أنا حرّة الآن. لقد تخلّصت من عبء الآلام التي لاحقتني طويلاً في عملي في السفارة. أستطيع على الأقل أن أكمل رواية برازيلية بدأت بها منذ أكثر من أسبوع ولم أنهها حتى اليوم. فقد كان تركيزي طوال الفترة الماضية في الدرجة صفر مئوية.

أعددت كأس الحليب بالقهوة، ثم اجتاحتني رغبة بأن أقرأ رسالة جواد الأخيرة. كان قد تركها لي على الطاولة صباح سفره. ربما كانت قراءاتي المتكررة لها، منذ ما ينوف عن الثمانية أشهر وحتى الآن، كفيلة بإخماد اشتياقي المجنون له.

بدأ الرسالة بجملته الرقيقة: عنات يا حبيبتي. كما كان يكتب لي من المعتقل.

(كان ينبغي أن أكتب لك[٥٤]).

الحوار بيننا مقتول، لا بد أنك لاحظت الأمر يا حبي.

مرّ ما يقرب العام دون أن نقدر على إدارة حوار حقيقي بيننا. ولأني اعتدت طوال عمري الماضي أن أكتب لك فسأكتب لك الآن

---

(٥٤) لم يكن ثمة أوراق في البيت. كتب جواد الرسالة على كيس ورقي كانت عنات تستخدمه لحفظ الصور الفوتوغرافية المفضلة لديها. وترك الصور مبعثرة على طاولة الكومبيوتر.

أيضاً. ربما استطعت أن أملأ بذلك فراغات علاقتنا المثقبة، كأنها دريئة هذا العمر المليء بالحروب والرصاص.

في يوم خروجي والأصدقاء يحيطون بي كنت أنتظر ذهابهم بفارغ الصبر لأرتمي في حضنك الدافئ الذي حلمت به طويلاً لسنوات وسنوات. في تلك الليلة، وعلى سرير تلك الغرفة الغريبة، كنت أتعرف إلى تفاصيل جسدك من جديد، أو كنت أتعرف إليها لأول مرة. كان جسدك مثيراً ودافئاً وأنثوياً حتى الأقاصي، لكنه جسد غريب على الرغم من ذلك، راح الزمن يخطّه. وشعرت بأن العمر الذي مضى حوّلني إلى رجل آخر لا يشبه الشاب الذي كنت إياه، أنا الآن كهل تجاوز الخامسة والأربعين. ما تخيّله مراراً في لياليه الباردة، اعتماداً على كل الجمال الذي عشناه منذ خمسة عشر عاماً، تبدّل للتو.

قالب روحي تبدّل.

جسدي أحسسته في ذلك اليوم جسد رجل غريب لا أعرفه!

كنت تراقبين الخطوط المحيطة بعيني، لاحظت ذلك. تتحسسين طيات جذعي التي شكلها جلدي المتعب. يدك تجوس مناطق رجولتي، كأنك تتأكدين من أنها ما زالت على قيد الحياة ولم تمت كما مات بريق عيني.

على الرغم من كل ذلك كانت ليلة رائعة. وحقيقة استطاعت أن تتفوق على حلمي بها. وفي تلك الليلة قررت أيضاً أني سأبدأ معك عمري الجديد، سأناضل كي أحافظ على تألق الليلة الأولى هذه، وعلى تلك السعادة التي ساحت من سريرنا لتغمر الغرفة بطوفانها. لكن الذي حدث بعد ذلك كان مختلفاً.

عنات أنا لا أريد أن أعيش أياماً شبيهة بسني الخمس عشرة هناك في الجحيم. ولا أريد أن أعيشها وأنا معك أيضاً. كل ما كان حولي يدفعني بشراسة إلى هذا. البحث عن وظيفة، رغبتي بعمل أحبّه، ضيقي الشديد من عدم قدرتي على جعلك ترتاحين بعد كل هذا العمر. حتى مصروفي الشخصي مرّت أشهر وأنا أضطر إلى أخذه منك.. وأنت تحاصرينني بكلك عنات، تحاصرينني بانتظارك، بتعبك، بروحك التواقة إلى الجمال المفتقد، بأمومة مجنونة قفزت فجأة إلى سطح غرائزك. وكنت أتحطم رويداً رويداً حبيبتي.. وأنت لا تدرين ما الذي يحصل داخلي.

على الرغم من كل ما حصل، فأنا ما زلت أنتظر عمرنا القادم. وسأكون هناك بانتظارك. وأنا متأكد تماماً من أن الزمن لن يطول كي تلحقي بي، وأنا بانتظارك دوماً.

أنت تكرهين هذه الكلمة لكني اليوم أجدها جميلة. حان الوقت لنتبادل الأدوار، سأنتظرك وأنا أهيئ الأيام لقدومك. سأعدّ حياتنا الجديدة، حياة نمحو بها كل الذاكرة السابقة، وحينها فقط نستطيع أن نفكّر بمجيء طفلنا، هناك فقط نستطيع أن نجلبه لحياة جميلة. هنا حبيبتي لم أكن أستطيع أن أتحمّل وزر مجيئه إلى هذا الخراب المحيط بنا من كل جانب.

أحبك عنات وبانتظارك دوماً).

ثم ذيّل الرسالة باسمه وبتاريخها: كانون الثاني ٢٠٠٣.

وأنا أحبك أيضاً. همست عنات. ثم فكرت أنها قد تستطيع كتابة إيميل له قبل مجيء إيزابيل وحسن. فورة حب أشعلتها الآن، جعلتها تقرر كتابة أمر أجّلته شهوراً طويلة. لم تكن تعرف بماذا سترد على

إيميلاته المليئة بالحب، وبدعواته المغرية بالمجيء. كتبت أنها محتاجة إليه، مشتاقة حدّ الجنون، ساعداه بهما كل ما تحلم به طوال لياليها، ورائحته لا تفارق الغرفة.. وأنها حامل في منتصف شهرها الثامن، وذاك المخلوق الذي يمور في أحشائها يذكّرها به في كل ثانية، كأن جزءاً من روحه بقيت لتتكثّف في أحشائها.

سيصعقه الخبر بالتأكيد. ولن يكمل الإيميل ربما. لكن كان ينبغي أن تخبره. والآن فقط، بعد كل تلك الشهور، تجرّأت على ذلك.

ما كادت ترسل الإيميل حتى كان الباب يقرع.

المفاجأة الحقيقية كانت إيزابيل.

صبية سمراء فاتنة بملامح عربية خالصة. بادرتني بسلامها حالما دخلت الصالون وبعربية فصحى. إنها تتكلمها أفضل مني!

ربتت على بطني ضاحكة:

ـ مبروكٌ.. متى سيأتي وليّ العهد؟

ـ بعد أيام سأدخل شهري التاسع.

ـ ستصبح جداً يا صديقي!!

ورمقت أبا حيان ضاحكة. كان أشبه بطفل كبير لديه مسحة من التخلف العقلي.

كانت تحمل باقة كبيرة من الزهور الجورية الوردية اللون على ساعدها، يبدو أن أبا حيان قدمها إليها حالما وطئت قدمها أرض المطار.

حقيقة كان الحق عليّ. لو ذهبت مع والدي كما طلب مني، لألاقي إيزابيل في المطار، لكنت سيطرت على الأمر أكثر. كان يبدو أكثر شباباً بشعره المصبوغ حديثاً بلون أسود كالكحل، بذقنه الحليقة بتأنٍّ، وثيابه الجديدة: بنطال من الجوخ الصيفي الرمادي، وقميص سماوي بتعريقات صفراء. نزل وحده إلى شارع الحمرا واشتراها.

ثم متى عمل على صبغ شعره؟! البارحة ليلاً كان أبيض تماماً!

إيزابيل تكبرني بثلاث سنوات تقريباً. يوم ولادتها هو يوم وفاة خالتي سنية بالضبط، الخامس من كانون الثاني سنة ١٩٦٢. حقيقة لا أعلم كيف عملت الصدفة على ترتيب الأمر بهذه الدقة اللامتناهية.

كان جد إيزابيل من عرب إسبانيا الأندلسيين، لذا فقد كانت تنظم الشعر بالعربية، وتحفظ تاريخ المنطقة باليوم والسنة، الأمر الذي جعل أبا حيان أكثر طرباً وزهواً.

أية مزحة ثقيلة بعثتها لي الأقدار! خصوصاً أن أبي لا يمكن المزاح

معه أبداً بهذا الشأن. كانت حبيبته سنية قد عادت، بعد واحد وأربعين عاماً، ولن يدعها تذهب من بين يديه ثانية.

قدمت إيزابيل إلى البيت لتقلبه رأساً على عقب.

أول الأمر تأملت صورة سنية طويلاً ووالدي يقف بجانبها صامتاً واجماً وهو يلفّ بأناة سيجارة ثخينة. لم تكن تشبهها البتة. عينا إيزابيل سوداوان، شعرها الأجعد القاتم يتبعثر على ظهرها كراقصة غجرية، وجسدها الرياضي يتهادى في بنطال ضيق من الجينز وبلوزة صيفية بيضاء اللون بدون أكمام.

كانت عيناها تقولان أشياء كثيرة لسنية.

ثم ذهبت لتضع حقيبتها في غرفتي حيث ستنام طيلة فترة وجودها كما تم اتفاقنا. قبل ذلك طلبت مني بلباقة، لكن بثقة متناهية، أن أزيّن الصالون بباقة الزهور. وما كان مني إلا أن أمتثل. همس لي والدي وهو يقترب من أذني:

ـ شفتِ ما أجملها؟

ـ ...

ـ لن أدعها تذهب.. سأدعوها للبقاء هنا.

ـ ...

حقيقة لم أعرف بماذا أجيب. أية كلمة في ذاك الوقت كانت غير مناسبة. صمتٌ فحسب. كانت إيزابيل تخرج إلى الصالون وفي يدها كيس ورقي يضمّ مجموعة من الهدايا: مسبحة خيالية من الكهرمان الأصفر المشرّب بخيوط داكنة لوالدي، ساعة جيب أثرية ببيت وسلسلة من الفضة الخالصة، كذلك دفتر ضخم فاخر، صفحاته الصفراء الصقيلة موشّاة بالذهب كما ادّعت:

ـ حتى تكتب عليه كل قصائدك القديمة والجديدة.

لم أر والدي فرحاً كما اللحظة. ظل مشغولاً بهداياه الثمينة كطفل في ليلة ميلاده. كنت أحسّ بشفته السفلى ترتجف كأنه يهمّ بالبكاء. لكن إيزابيل قطعت مراقبتي له حينما طوّقت عنقي بقلادة ذهبية خلاّبة عليها نقش جامع الحمراء بالعقيق القرمزي الشفيف. كانت تلك القلادة تحفة حقيقية.

ـ حتى لا تنسي أمجادكم في الأندلس.

وكشفت ضاحكة عن أسنانها البيضاء كما الخزف.

في تلك الليلة سهر والدي وإيزابيل حتى الصباح. حين استيقظت كي أقوم بأعمالي الصباحية وجدتهما. إيزابيل تتكئ ضاحكة على الصوفا، ترتدي عباءة شرقية بلون الفستق تكشف عن صدرها البرونزي، وأبي، على الأرض قربها، ضاحكاً كما الهُبل ويمجّ سيجارته بتلهف.

ـ صباح الخير.. لم تناما بعد؟

ـ لا.. لم ننم.. صباح الخير.

أجابتني إيزابيل مبتسمة، واتجهت بكلامها إلى والدي.

ـ أتعرف لست نعسانة. هل نذهب في نزهة تعرّفني إلى دمشق.. أنا متلهفة لمعرفتها للغاية.

ـ تكرم عيونك، ألف طلب متل هالطلب.

قفز أبو حيان كشاب في الخامسة عشرة. كان لا يزال يرتدي بنطاله وقميصه منذ البارحة. لم أكن قد أعددت القهوة، حتى كان الاثنان قد خرجا من البيت.

سأموت لأعرف ما الذي يدور بينهما! وأنا أشعر بعجوزي يُسلب من بين يدي شيئاً فشيئاً، ولا أقدر ببطني المنتفخ وهمومي المتراكمة، منذ تركت العمل ورحل جواد، أن أقدم أي شيء ذا قيمة له. يبدو لي أنه كان سعيداً بذلك.

في تلك الليلة، وحالما دخلت عنات إلى غرفتها، نسي حسن كل ما كان يحفظه كي يلقيه أمام إيزابيل. كان يعتقد أن قصائد الحب العربية كفيلة بالبوح، كفيلة بنقل كل ما يعتمل داخله دون سبيل إلى الخروج.

شيطان الشعر خذله!! مع أنه لم يرض أن يفارق واديه طوال

سنوات وسنوات. إنه اليوم، ويا لارتباكه، يأبى أن يطلّ من خياله!! حسناً.. إن كانت قصائد ابن زريق وجميل بثينة ومسلم بن الوليد عصية على شفتيه الآن فلينشد أشعاره هو. ذلك أن أشعاره منها، من سنية، من إيزابيل. شيطان شعره ينبع من جسدهما المتداخل، من اشتياقه المتواصل إليهما.. سيلقي قصائده على مسامعها إذاً.

لكن حالما دخلت عنات صباحاً إلى الصالون تلعثم لسانه. بقي أخرسَ يحدق في الملاك المتكئ بجانبه على الصوفا.

كانت الأحاديث قد توالت وتوالت دون انقطاع. جسده المتذرر، جسده الشفيف، تطوح في أنحاء الغرفة فوقها، بمحاذاتها، بجانبها، وراءها، أمامها، وهي تحكي، تحكي، وتحكي، وهو يستمع، يستمع، يبكي، يتنهد، ويستمع.

في الأيام اللاحقة لم تكد عنات تراهما. كانا يخرجان في الصباح، ولا يعودان إلا أول المساء. إيزابيل محمّلة بالأكياس، وحسن كذلك، والاثنان يتضاحكان دون توقف.

تدخل متّقدة بالحيوية، تخلع حذاءها الخفيف، ثم ترتمي على الصوفا، فيما يركض حسن ليجلب لها المشاية من الداخل. يبقى منتظراً بكامل ثيابه حتى تنهي إيزابيل دوشها السريع، وتتهادى بمنشفتها البيضاء من الحمام إلى غرفتها كي يستطيع أن يتملّى جسدها المبلل الأسمر والمنشفة لا تكاد تغطّي منه شيئاً.

تقول عنات له أن يخلع ثيابه ويرتاح ريثما تهيئ لهما الطعام. يجيبها، ككل يوم، أنهما أكلا خارجاً، ويتشاغل عن طلبها بدقّ الباب على إيزابيل كي يفتح معها حديثاً ما فيما ترتب مكياجها بعد الحمام.

الجميع كان يعتقدنا أباً وابنته.

الجميع في الشوارع التي ضاقت بتسكعنا، وفي المقاهي التي عرفتها بعد مجيء إيزابيل، خاصة مقاهي الرصيف في دمشق العتيقة، وفي السوق وفي الباص.. الجميع اعتقدنا أباً وابنته.

إيزابيل بقربي غزال يتقافز في الأمكنة، تتعلق بساعدي ضاحكة. تتحدث وتتحدث وتتحدث. كلامها يجعلني أتهادى على غيمة من متعة، وربما على وسادة ضبابية من لذة، كأني أسبح في غواية كلماتها وصوتها ورائحتها السحرية وذاك الفيض الهائل من طاقتها المشعّة.. حسب تعبير عنات.

يا إلهي! جسدي بكامله يقشعر، كأن يداً عارفة تداعب ظهري بخبث، وتدغدغ باطن فخذي.. أحسّ بأني سأتهاوى من الإثارة

بقرب فاتنتي. على الرغم من كل ذلك لم أقربها، وهي لم تقربني أبداً. كنت أشعر بالخجل من حبيبة عمري! صحيح أن ما يقرب من الخمسين سنة تجمعنا، منذ أن عرفتها في السابع عشر من أيار سنة ١٩٥٤، لكن جسدي أمسى عجوزاً مضعضعاً وهي ما زالت في عزّ فتوتها..

لم نتحدث بأيّ كلمة عن هذا، كانت إيزابيل تتعامل معي كأنها تعرفني منذ سنوات وسنوات، كأنها اختبرتني حتى صارت تحسّ بالأمان التام مع جسدي، أو بخدر المعرفة الوثوقة. وعلى الرغم من كل تلك الإثارة لم أشعر ولا ليلة برغبة في ممارسة العادة، كنت أنام منتشياً بوجودها في الغرفة المجاورة فحسب، أكتفي حتى النهايات بسطوة حضورها في حيزي الضيق من الحياة، وأصحو مفعماً بسعادة وقوة غريبة فارقتني منذ أكثر من أربعين عاماً حين ودعتني فجأة في حافلة طائرة.

ـ أحسّ بأني شاب في الثلاثين حبيبتي.

تضحك إيزابيل، تضحك حتى تختفي عيناها.

هي لا تشبه سنية أبداً! لكنني مقتنع بأن شكلها الحالي مجرد غلالة رقيقة تشفّ عن سنية الحقيقية تحتها. شكلها الحالي مجرد قناع.. أحسّ بذلك، أحس بذلك بكل جوارحي. أحياناً أتخيل أنها ستنزع فجأة تلك الغلالة ضاحكة وترتمي سنية في حضني. لكني رحت، ويا للغرابة، أعشق شكلها الجديد حتى كدت أنسى شكلها القديم الأزلي الذي ما فارقني يوماً.

لكني لم أقربها أبداً، لم أحاول أن أقربها.

كانوا يعتقدوننا أباً وابنته!

في البداية أحرجني الأمر ثم اعتدت عليه، اعتدت عليه حتى أني رحت أستمتع به، أستمتع به بحق.. كانت إيزابيل تتحول، في أقل من شهر، إلى رفيقة وحبيبة وابنة وملهمة، على الرغم من أني لم أستطع كتابة بيت واحد من قصيدة، ولم أشعر بالخواء القديم الذي كان يملكني حين لا أكتب، كنت أبدع أشعاري داخلي ولست بحاجة إلى كتابتها، كنت أعيشها بكليتي، أعيشها بكل جزء مني، وهذا كافٍ بالنسبة إليّ.

...

كانوا يعتقدوننا أباً وابنته!

مرّ على إيزابيل خمسة وعشرون يوماً في ضيافة حسن.

ذهبا فيها إلى اللاذقية. هناك مرّرها بكل الأماكن التي كانا يلتقيان فيها في القرية حين كانت في تقمصها السابق. زارا بيت والديها، وقبرها الذي أضحى كتلة حجرية عتيقة عرّشت على جوانبها الطحالب والأعشاب البرية.

ـ تعرفين، كنت سأرمي بنفسي وراءك يا حبيبتي.. الحياة لم يكن لها أي طعم بدونك.

ربتت إيزابيل على كفه القابضة على كفها، وابتسمت.

ـ عندي رغبة في أن أرى الطريق الذي صار عليه الحادث.

ـ أنا ليس لدي أية رغبة.. بعد وفاتك بفترة قصيرة تركت الرقة

ورجعت إلى اللاذقية، ثم تركتها هي الأخرى وأتيت دمشق. كنت أفكر: ربما كانت مدينة جديدة ليس لي معك فيها أية أوقات مشتركة كفيلة بنسيانك.. لكني لم أنسك إطلاقاً. أنت حب حياتي سنية.

ربتت إيزابيل على كفه من جديد قبل أن تسلّ كفها العرقة من بين أصابعه.

ـ لم أحب امرأة يوماً كما أحببتك سنية.

ـ ...

همّ حسن بمطلع قصيدة: فأنت وبيت الله همي ومنيتي و... لكن لسانه توقف، شلّ عن الحركة. أمسك بيدها متلكئاً، ثم راح يخبرها بأنه أحسّ بقدومها، هي وليست أية امرأة أخرى. ربما كان التحدث بما يحسّ به، بما يشعر به الآن، أبلغ من سرد قصائد قيلت منذ مئات السنين.. ربما.

سنوات مرّت وهو يكتب شعراً لها.. لها فحسب. كانت هي ملهمته. كل الغزل، كل الحب الذي يفيض من القصائد كان لها. كانت هي ولا أحد سواها، وهو لا يجرؤ على قول هذا لأحد لئلا يحسبوه مجنوناً.

ـ يا الله كم أحببتك يا سنية.. وأحبك.

ـ ...

ـ في الليل، حين أبقى وحدي أشاهد تلك الأفلام.. تعرفين حيث ينام الرجال والنساء على الملأ. أتذكرك.. تصدقين؟! على الرغم من

السنوات الأربعين التي ابتعدت فيها عني ما زلت أذكر ملمس جسمك وتفاصيلك وكل شيء..

... –

– أخاف أحياناً من ذاكرتي. أذكر كل شيء فيك ومعك كأن أربعين دقيقة مرّت، وليست أربعين سنة.. تصدقين؟!!

... –

ابتسمت إيزابيل وأشاحت بوجهها.

بعد عودتهما من اللاذقية بأيام، وحالما دخلت عنات ذات مساء لتنام، طلب حسن متجرئاً من إيزابيل أن تبقى. سيتزوجان، ويسكنان أينما تريد. ستكون ملكة متوجة، وهو عبدها وتحت قدميها، تأمر فتطاع. سوف يعيش من أجل سعادتها فحسب، فهي حبّ حياته الذي لم يغب يوماً.

لا يستطيع أن يتخيل القدر لئيماً إلى هذا الحد، لن يحرمه منها مرة ثانية، لن يحرمه بالتأكيد، سيكون أرأف من ذلك. تكفي مرة واحدة لاختبار حبه. مرة واحدة كانت كفيلة بجعل حياته برمتها مجرد وقت للانتظار، للتحسّر، والفقد. مرة واحدة أدّت رسالتها ولن تُعاد، فما من شيء لتتأكد القدرة الربانية منه، إنه عاشق عاشق وما من شيء آخر لإثباته!

لكن إيزابيل كانت قد بدأت حديثاً مغايراً. أسرّت له بخيبتها حين تجلّت المقارنة أمامها: كل ما جابت به التاريخ عبر الصفحات وما آل إليه اليوم. الماضي بوميضه وإشراقاته وما لمسته اليوم من عفن

غلّف كل الأرواح.

لم أستطع أن أرى إلا طبقة مقيمة من الصدأ، صدأ باهت ممتد يغلّف كل ما حلمت برؤيته. يا إلهي يا حسن كم حلمت! مرت سنوات وأنا أعتقد نفسي في لوحة استشراقية. كنت أفكر أني سألحظ الفرق لا محالة، لن يكون الواقع قطعة فنية من عصر النهضة، ولا مشهداً من بهو في قصر الخلافة. لكن الفرق كان كبيراً، كبيراً للغاية حسن، هوّة سحيقة انحدرت إليها خلال الأيام الماضية، أحسّ بأني أكاد أصل قاعها، أخبط إلى قعرها الوخم! كم أنا محبطة حسن.. الفرق كبير كبير!!

ـ لا يهمّ حبيبتي.. سنتغلب أنا وأنت على هذا الوخم بحبنا.

ـ لكني أصغرك بثلاثين سنة حسن!

ـ لكني أحبك سنية!

ـ وأنا لست سنية.. أنت تعرف!

ـ أعرف.. لكنك في الحقيقة سنية.

ـ أنت تعرف أن الأمر صعب للغاية. أنا هناك لدي عملي، وحياتي، وأهلي، وخطيبي.. حقيقة.

ـ ...

ـ لقد أتيت كي أراك.. كنت أحسّ بأنّ رؤيتي لحياتي السابقة ستغيّر مجرى حياتي الحالية. في غرناطة كان ثمة شيء ما يلحّ علي، يجذبني بإصرار لأبحث عنك، لأراك، لأختبر صدق أحاسيسي وهواجسي التي رافقتني لسنوات وسنوات. كنت بحاجة كي أثبت أن ما أقتنع به ليس مجرد أوهام، وبأني لست فصامية ولا

أعاني من هوس ما، بل أنا حقيقية.. حقيقية للغاية.

ـ ...

ـ أنت أطيب وأجمل وأنبل رجل رأيته في حياتي.. لكنني لا أستطيع البقاء.

ـ ...

ـ ثم إن الفيزا ستنتهي بعد عدة أيام وعليّ المغادرة عندها.. سآتي دوماً لا تقلق.

ـ ...

ـ وسأبعث لك كي تزورني في إسبانيا.. ما رأيك؟

ـ ...

كانت إيزابيل ترمي أمام حسن كل ما يعتمل في داخلها وهي عاجزة عن التملّي في عينيه. حدّثته عن خطيبها فرناندو عن تشجيعه لها كي تأتي وتراه، عن تفهمه للأمر على الرغم من أنه لا يقتنع بكل الفكرة. حدثته عن حياتها في إسبانيا، عن اللغة العربية التي صارت مع الزمن جزءاً من روحها، كأنها لغتها الأم، حتى أن معاهد تعليم اللغة صارت تطلبها بدلاً من مدرسين ذوي أصول عربية.

كانت إيزابيل تتحدث بتدفق وحيوية دون أن تلاحظ التغير الذي راح يطرأ على سحنة حسن الشاحبة.

استيقظت ميّاسة الشيخ في الرابعة صباحاً كما اعتادت طوال الأسبوع المنصرم. كان عليها أن تردّ ثوبها القطني البسيط على جسدها الذي أصبح نحيلاً للغاية.

فتحت النافذة لتحسّ بهواء الخريف المنعش على الرابية حيث يقوم المركز. أحسّت بأنها اشتاقت لديانا، لا بد أنها سعيدة الآن عند جدتها تنعم هناك بالدلال المفرط والعناية المبالغ فيها.

طوال الأسبوع الماضي وميّاسة تستيقظ في الرابعة صباحاً.

بعد أداء الصلاة الخاصة مع بقية المتدربين، تروح لتتمشى في البراري المحيطة بالمركز. ما يقرب من ساعتين تقضيها في المشي السريع. تشعر بعدها بأن جسدها يتطهّر من كل الطاقات السلبية التي يكتنفها، وبأن دفقة من المشاعر الإيجابية استوطنت مسامّها العرقة

حتى نهاياتها. وتشعر كذلك بأنها سعيدة متفائلة وبأن جسدها غدا جزءاً وضاءً من المشهد الخصب المحيط به.

تعود إلى المركز لترمي بنفسها تحت المياه غير الساخنة. يلسعها الدوش بلطف، يوقظ كل حواسها دفعة واحدة. الليفة الطبيعية الخشنة تحزّ جلدها لتوفز الدماء فيه، ومن ثم تنهمك في تنظيف أسنانها بالماء وملح البحر.

سيكون اليوم طويلاً وممتعاً كالعادة؛ مليئاً بمحاضرات المايكروبيوتيك، بالوصفات المبتكرة للطعام الصحي والمتوازن والمعدّ من المواد الطبيعية المدروسة.

الآن وقد بلغت الساعة السادسة حانت وجبة الطعام الصباحية: قصعة فخارية من حساء الميسو مع الفجل وأعشاب البحر، بجانبها شعيرية مع الخضرة، شعيرية من القمح الكامل غير المقشور. أما صحن الخضرة فيتألف من جزرة وبصلة وساق كرفس مع القليل من زيت السمسم. كان طبقاً شهياً.

فكرت ميّاسة، وهي تتناول لقمتها الأولى بتأنٍّ، بأنها لم تعد تشتهي اللحم مع أنها كانت تحبّه بهوس قبلاً! مرّت شهور طويلة لم يدخل فمها. رائحته، التي أضحت بالنسبة إليها مقززة، تثير في داخلها شعوراً طاغياً بالوحشية.

كان على ميّاسة، كما اعتادت طوال الأسبوع الماضي، أن تعيد مضغ اللقمة مرات ومرات كما يفعل بقية المتدربين المحيطين بها. والمشرفة، وهي عالمة مايكروبيوتيك، تردد أمامهم، كما في كل وجبة، أن المعلم أوساوا قال بمضغ اللقمة خمسين مرة قبل بلعها.

مع مرور الأيام هنا راحت مياسة تحسّ بأنها شفيفة تستطيع الطيران بمنتهى البساطة، بأن أوساخ جسدها، التي كانت تكبله إلى الأرض قبلاً، تساقطت عنه ومنه كما يتساقط الورق المتعفن عن شجرة ربيعية. جسدها الآن يتفتح نقياً خفيفاً ونورانياً كشجرة لوز في أول نيسان تتضوع منها رائحة عشب رطب.

تذكرت إياد، وشعرت بالحزن عليه لأنه لا يستطيع عيش هذه السعادة التي تمتلك كيانها برمته.

لكنه قد يكون مستمتعاً الآن مع عشيقته وسعيداً بطريقته!!.. ربما. لسبب ما أيضاً لم ينتبها أي شعور بالغيرة أو الأسى لانفصالهما. كان نتيجة طبيعية لاختلافهما الذي باتت تراه كحقيقة لا تضيرهما.

الاختلاف.. إنه لا يضير أحداً. إنه السلام الذي يتلقفها براحتيه مهدهداً إياها على موجات الريح نائياً بها عن التفاصيل الصغيرة والدونية. السلام الذي جعلها تعود إلى حضن ضحى الشيخ مشتاقة، ناسية الماضي، متقبلة كل ما فعلته وتفعله أختها، فهي وحدها التي تختار مصيرها، وليس لأحد أن يقرر مصائر الآخرين. إن كانت سعيدة فليكن. المهم أن تبقى الأرواح متوائمة، تحبّ بعضها وتتناغم مثل روحيهما تماماً.

أخيراً، وقبل أن تبدأ محاضرة ما بعد الطعام، تذكرت مياسة عنات، وتمنّت ألا تكون قد وضعت، لربما استطاعت أن تكون بجانبها بعد أن تنهي أسبوعَي تدريبها هنا.

لم تكد عنات المتعبة تستغرق في نوم عميق، حتى أيقظتها إيزابيل صائحة برعب. كان حسن مرتمياً على الأرض في الصالون، جذعه المتيبس يستند إلى الصوفا وقد راح لونه يمعن بالازرقاق.

نوبة قلبية مفاجئة دهمته وهو يقبض على يدي إيزابيل.

إنها المرة الثالثة التي تصيبه فيها النوبة القلبية. إن كان قد نجا في المرتين السابقتين فليس بالضرورة أن ينجو هذه المرة.

لم تصل عنات إلى والدها، وهي تحسّ الرعب ينتشل قلبها من مكانه، إلا كانت دفقة ماء ساخن تندلق لزجة بين فخذيها، ثم برق ألم عميق في أسفل بطنها جعلها تخرّ قربه خائرة القوى. لكنها لم تستطع أن تقصد مشفى التوليد إلا حينما نقلت والدها إلى المستشفى، وهناك تركت إيزابيل قربه.

استيقظ للحظات بعد النوبة، كان فمه ملوياً إلى جهة اليسار، كذلك عينه اليسرى، ولسانه ثقيل ثقيل. أومأ إليّ أن أقترب كي يكلّمني. كنت أبكي، لم أستطع أن أمنع عيوني اللعينة من سفح مائها. عجوزي الحبيب مرمي على سرير المستشفى وقد شلّ القسم الأيسر من جسده! همس لي ببضع كلمات، كنت ألصق أذني بوجهه كي ألتقط بعضاً مما يرطن به.

ثم لم أعرف بمن سأتصل ليكون بجانبي، كنت مرتعبة أن تكون الولادة مبكرة. فما كان مني إلا أن اتصلت بالدكتور، ووعدني بأن يلاقيني في المستشفى خلال دقائق.

هناك على سرير إحدى الغرف الحارة استلقيت بعد أن غيّرت الممرضة الشابة ملاءاته البيضاء بأخرى ذات لون سماوي نقي، ثم وصلت كيساً من السيروم بذراعي، وحقنت فيه إبرة للتحريض على الولادة. كنت أفكر بأني لم أنزع شعر عانتي، ولم أقم بتبديل ثيابي الداخلية، ولا جلبت أغراض الولادة اللازمة.

ـ لم يكن لدي الوقت لأجلب حفاضات لي.

قلت للممرضة مستعطفة.

ـ لا عليك سآتيك بها.. وأغراض الصغير؟

ـ لم أجلبها كذلك.

بدت مستغربة على الرغم من محاولاتها لطمأنتي، ووعدتني بأن تسعى لتأمين ملابس مناسبة للصغير. ثم وقبل أن تغادر الغرفة سألتني ألا أحد معي؟! هززت رأسي بالنفي، فيما كان القلق على

والدي يترقرق ساخناً على وجهي. اعتقدت المسكينة أن تلك الدموع الغزيرة سببها شعوري بالوحدة فأحاطتني بنظرة متعاطفة ومشفقة:

ـ لا تقلقي سأكون بجانبك.. سأحاول تأمين الأغراض.. لا تقلقي.

لم أستطع أن أبتسم رداً على لطفها. كان أبو حيان يملأ رأسي بالرعب والوساوس. ماذا لو لم ينج هذه المرة؟! عجوزي الحبيب، لا أدري لمَ مزقتني جملته الأخيرة؟! لم أكن أريد سماعها.

لا تعذليه فإن العذل يولعه(٥٥)

قد قلت حقاً لكن ليس يسمعه

وهمّ بالإكمال لكن لسانه خانه، أو ربما ذاكرته؟! نزلت دمعة وحيدة على أخاديده السمراء. لا يا عجوزي ما هكذا ينتهي العشاق!!

وفاجأتني مغصة فظيعة أعادتني إلى مخاضي الذي لم يتوقف منذ ساعات.

أي خراب ستأتي إليه يا حبيبي! تسعة أشهر طويلة وأنا أعدّك للخراب القادم ليس إلا. أشعر بأن موعد وصولك اقترب، أحسّ بجسدي كله يتهيّأ للقياك. لم أكن أريد، على الأقل في الساعات القليلة المتبقية، أن أفكر إلا بك، بك وحدك.

---

(٥٥) مطلع قصيدة لأبي زريق البغدادي.

...

عند الفجر كان الدكتور في غرفة الولادة يحثّني على الدفع. أشعر بأني خائرة القوى ولا أقدر على التنفس حتى. مغصات المخاض تأتي وتذهب وأنا لا أستطيع أن أدفع بطفلي إلى الخارج. سائلي شحّ تماماً وهو يسيل بين فخذي منذ ليل البارحة وحتى اللحظة. أحسّ معبري جافاً جافاً كحلقي.

راح الدكتور يصرخ، كان الجزع يبدو واضحاً على وجهه، والممرضة تضغط بكل قوتها على بطني.

دقائق... هاجرت فيها روحي خارج جسدي، ومغصة قوية تجتاح أسفل بطني آتية من الخلف لتنضغط إلى الأسفل حاملة معها كتلة طرية. أحسست بتفاصيلها تمرق في معبري: كرة قاسية أولاً، ومن ثم أطراف صغيرة دقيقة تنزلق إلى الخارج خلال هنيهات.. ثم تناهى إليّ صراخ محتجّ.

وجه الدكتور، الذي بدا أكثر راحة، يبتسم وهو يوسّد صغيري، الملطّخ بالدم والسائل اللزج، على بطني:

عيناه مغمضتان كستارة أول العرض.

أنفه صغير أفطس كقطرة ندى.

جبهته مليئة بعروق نحيلة بنفسجية كخارطة قلبي.

وشعره فاحم ومبلل، مبلل بمائي!!

...

تفاصيل التقطتها خلال ثوانٍ قبل أن أضع صغيري على وجهي. كان منخرطاً في بكائه، وكنت أشعر بدموعي تختلط بما عليه وتلوّث ملامح وجهه الدقيقة حيث قبّلته عشرات وعشرات المرات...

لم أعِ بعدها ما حدث فقد ذهبت في إغفاءة عميقة عميقة.

المؤلفة

كاتبة سورية من مواليد دمشق ١٩٧٤

درست الهندسة المعمارية، ومن ثم عملت منذ سنوات في مجال الكتابة والصحافة الثقافية في عدد من الدوريات العربية والسورية.

صدرت لها مجموعة قصص بعنوان: **سماء ملوثة بالضوء**، في عام ٢٠٠٠.

ومن ثم فازت روايتها الأولى: **أبنوس**، بجائزة حنا مينة للإبداع الروائي وطبعت في عام ٢٠٠٤.

وصدر لها أخيراً في القاهرة رواية توثيقية بعنوان: **نيغاتيف** – من ذاكرة المعتقلات السياسيات، وذلك في عام ٢٠٠٨.

حرّاس الهواء

روزا ياسين حسن

«إنها التفاصيل اللعينة.. التفاصيل.. التفاصيل. على الرغم من اعتقادها بأنها اعتادت على هذي القصص، وتشكّلت لديها مناعة من آلام اللاجئين عبر سنوات من عملها في السفارة.

ليست مناعة بهذا المعنى! إنه تداخل معهم، تمازج، جعلها تتحول يوماً بعد يوم إلى جزء من تلك الحكايات، لا مجرد مستمعة خارجية. كأنها، بترجمة ما يقولون، تعيد تدوين ما عاشوه، أو تعيد عيشه من جديد بجسدها، بإحساسها، وبثقافتها الخاصة والحميمية. تتحوّل من مترجمة- هي في النهاية تعبث باللغة أو تعيد كببغاء قول ما يبدعه الآخرون- إلى مشارك في كل تلك الوقائع التي حصلت أو لم تحصل.

ربما كان ذلك الصغير في أحشائها هو من جعلها تشفّ ثانية، تتطهر من ذاكرتها المقيتة، كأنها المرة الأولى التي تجلس فيها وراء هذا المكتب تسمع، ترى، تخاف، ترتعب وترتجف.. جعلها ذاك الصغير، الذي لا يكاد يُرى، تعود صفحة بيضاء! كتلة من طين رخو لم تصلّبه صفعات الآهات الساخنة، ولا الرياح المحملة بآلام أناس أغراب يتوالون على أيامها كقطار محموم لا يرضى التوقف.»

من الرواية

دار الحكمة ذ.م.م.
DAR AL HIKMA L.L.C.
TEL: 2665394 DUBAI
DH 45/00

ISBN 9953-21-408-5
9 789953 214085
الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS